سلسلة « الحقيقة الصعبة » (٣)

Series "The Truth Hard" (3)

عَالَمُ المُعجزات

بَحثٌ في تاريخ القُرآن

THE WORLD OF MIRACLES

STUDY ON THE HISTORY OF QUR'AN

أبو موسى الحريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

www.muhammadanism.org
September 1, 2010
Format: printed book
Fonts: Arabic Transparent and Simplified Arabic

عَالَم المعجزات

أبو موسى الحريري

عَالمُ المُعجزات

بَحثٌ في تاريخ القُرآن

بيروت

١٩٨٢م / ١٤٠٢ هـ

[Plank Page]

مُقدّمَة

١ ــ كتَابُ المُسْلمينَ المُقَدَّس :

مع القرآن أنتَ في قدْس أقداسِ الإسلام والمسلمين : انّه كتابُ اللهِ المجيد[١] الكــريم[٢] الحكيم[٣] العظيم[٤] المُنير[٥] المُبين[٦] . نزّله اللهُ على محمّد تنزيلاً[٧] ، وأنزله قرآنــا عربيّــاً[٨] غيرَ ذي عِوَج[٩] ، لا ريبَ فيه[١٠] ولا اختلاف[١١] ، ولا ينطقُ عن الهــوى[١٢] . أنّــه هُــدى للمتّقين[١٣] وبُشرَى للمؤمنين[١٤] ورحمةٌ للعالمين[١٥] . أنّه نورٌ من الله[١٦] وذكرٌ للعــالمين[١٧] . انّه « الحقُّ اليقين » [١٨] والقول

---

(١) القرآن، سورة ٥٠ آية ١ ، ٨٥ / ٢١.
(٢) ٥٦ / ٧٧ ، ٢٧ / ٢٩ .
(٣) ٣٦ / ٢ ، ٣ / ٥٨ ، ١٠ / ١ ، ٣١ /٢.
(٤) ١٥ / ٨٧ ، ٣٨ / ٦٧ ، ٧٨ /٢.
(٥) ٣ / ١٨٤ ، ٣٥ / ٢٥ .
(٦) ١٥ / ١ ، ٢٧ / ١ ، ٣٦ / ٦٩ ، ٥ / ١٥.
(٧) ٧٦ / ٢٣ ، ٣ / ٣ ، ٤ / ١٣٦ ، ٢٥ / ١ ، ٢ / ٢٣ و٤٧ ، ١٥ / ٩ ، ١٦ / ٨٩ ، ١٧ / ١٠٦ ، ٢ / ٩٧ ، ١٦ / ٤٤ ، ٥٧ / ٩ ، ٤٧ / ٢.
(٨) ١٢ / ٢ ، ٢٠ / ١١٣ ، ٣٩ / ٢٨ ، ٤١ / ٤٤ ، ٤٢ / ٧ ، ٤٣ / ٣.
(٩) ٣٩ / ٢٨ ، ١٨ / ١.
(١٠) ٣٢ / ٢.
(١١) ٤ ، ٨٢.
(١٢) ٥٣ / ٣.
(١٣) ٢ / ٢ و ١٨٥ ، ٤١ / ٤٤ ، ١٦ / ١٠٣.
(١٤) ٢ / ٩٧ ، ٤٦ / ١٢ ، ١٦ / ١٠٣.
(١٥) ١٠ / ٥٧ ، ٦ / ١٥٧ ، ٤١ / ٤٤.
(١٦) ٦٤ / ٨ ، ٤ / ١٧٤ ، ٥ / ١٥ ، ٧ / ١٥٧ ، ٤٢ / ٥٢ ، ٦٤ / ٨.

الفَصلْ[١٩] ، لا يَمَسُّهُ الاَّ المُطَهَّرون[٢٠]. وما هــو بالنتيجةِ « الاّ وحيٌ يُوحَى » [٢١] ، والذين « يُتلَى عليهم يَخرّون للأذقانِ سُجَّدًا » [٢٢] .

القرآن « هو الكتابُ المقدَّس للمسلمين ... فيه أصولُ دينهم، وشرائعُ حياتهم، ونبــعُ إلهامِهم، ونبراسُ أخلاقهم، ونورْ هدايتهم في مُختَلَف شؤونِهم الدينيــةِ والدنيويّــةِ، الروحيّــةِ والمادّيّةِ، العامّةِ والخاصّةِ، السياسةِ والقضائيةِ والاجتماعيةِ والشخصيةِ والإنسانيّةِ ... وَصَفَهُ نبيُّهم بهذا الوصفِ الشاملِ الرائعِ المأثورِ عن طريقِ عليٍّ بن أبي طالب ... : « فيهِ نَبَأُ مَــا قَبْلكم، وخَبَرُ ما بَعدكم، وحُكْمُ ما بَينَكم » [٢٣] .

و « القرآن الكريم هو الكتابُ السماويُ الوحيدُ الذي ليسَ محلَّ شكٍّ وريبٍ مــن بــين الكتبِ السماويةِ المتداولةِ في كونهِ مُتّصِلاً بالنبي، وفي صدورهِ عنه بِحُروفهِ وألفاظهِ وسُــوَرِهِ بوحيٍ من الله » [٢٤] . وهو « أعظمُ مظهَرٍ لنبوّةِ النبيِّ وأقوى آياتِها ودلائلها » [٢٥] . « وقــد تكرّر فيه توكيدُ اتّصالِه بوحي الله, وصدورهِ عنه، وعجز الناس عن الاتيانِ بمِثلِهِ، مُعلِنًا ذلك على ملأٍ من خصومهِ الألدّاءِ وجاحديه الأشدّاء » [٢٦] . « وبالإضافةِ إلى هذا

---

(١٧) ١٢ / ١٠٤ ، ٣٨ / ٨٦ .
(١٨) ٦٩ / ٥١.
(١٩) ٨٦ / ١٣ .
(٢٠) ٥٦ / ٧٩.
(٢١) ٥٣ / ٤.
(٢٢) ١٧ / ١٠٨.
(٢٣) محمّد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٥ ـ ٦.
(٢٤) نفس المرجع، ص ٧ ، انظر الآيات التي يدعم بها حجّته، وهي : ٦ / ١٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤ / ١ ، ١٨ / ١١٠.
(٢٥) نفس المرجع، ص ٨ ، الآيات : ٦ / ١٥٥ ـ ١٥٧ ، ٧ / ٥٢ ، ١٥ / ٨٧ ، ٢٩ / ٥٠ ـ ٥١.
(٢٦) نفس المرجع، ص ٨ ، الآيات : ٢ / ٢٣ ـ ٢٤ ، ٤ / ٨٢ و ١٦٥ ، ١٧ / ٨٨ ، ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥.

فقد احتوى آياتٍ كثيرةً، فيها إعلانٌ بإشهادِ الله على صحةِ هذه التوكيدات والتقريرات وتعظيمٌ لجرمِ الافتراء على الله » [٢٧] ، منها قوله : « ومَنْ أظلم مِمَّنِ افتَرى على اللهِ كذِباً، أو قــالَ أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليهِ بِشَيء » [٢٨] .

في إيمان المسلمين أيضاً : « جاء القرآن خاتِماً لرسالاتِ السـماء، ومكمِّــلا للكتــبِ المنزلةِ من قَبلِه، ومُهيمِناً عَلَيها. وقد تميَّز إلى ذلك بميزةٍ كبرى هي أنَّ الله ســبحانَه وتعــالى تعهَّدَ بحِفْظِه، بينَما وُكِلَتِ الكتبُ الأخرى إلى مَن أُنزلتْ إليهم للاحتفاظِ بها.

« ومِن هنا فإنَّ القرآنَ هو الكتابُ الوحيدُ في العالَم كلِّه الذي حُفِظَ مــن التحريــف... ولقد كان نزولُ القرآنِ على محمّد صلعم، في تقديرِ الباحثين والمؤرّخين، « أعظمَ حادِثٍ في تاريخِ البشريّة » .

« فلأوّلِ مرَّةٍ ــ مِن بين الكتبِ السماويةِ الأخرى ــ يَظهَرُ علــى الأرض كتــابٌ ذو كلماتٍ وحروفٍ إلهيّةٍ، لم يَكْتبْ سَطراً من سطورهِ بَشَرٌ، ولم يَخُطَّ حَرفاً من حروفهِ إنســانٌ. وقد أعلنَ الكتابُ الإلهيُ إعلاناً لا مَحيصَ عنه أنّه آخِرُ وحيٍ من السماء، وانَّ رسالةَ الســماءِ اكتملتْ بهِ اكتمالَها الأخير، وإن الدائرةَ الإلهيّةَ التي هبطتْ منها الألواحُ والصُــحُفُ والكتــبُ الإلهيّةُ الأخرى قد أُقفِلتْ نهائياً » [٢٩] .

هذا القرآن هو معجزةُ المعجزاتِ الإلهيّة، بل هو، على حدِّ قول ابن خلدون « أعظــمُ المعجزاتِ وأشرفُها وأوضحُها دلالةً » [٣٠] . إنّه معجزةٌ في كلِ شيء : في ألفاظِه، وحروفِه، وآياتِه، وأسلوبِه، ولغتِه، ومعانيهِ، وتعاليمِه، وعلومِه، وشريعتِه، وتدوينِه، وحفظِه ... « ولَئِن

(٢٧) نفس المرجع، ص ٩.
(٢٨) ٦ / ٩٢ ـ ٩٣، انظر : ١٦ / ١٠١ ـ ١٠٥، ٤٢ / ٢٤، ٤٦ / ٨، ٦٩ / ٤٣ ـ ٤٨.
(٢٩) أنور الجندي، الإسلام والعالم المعاصر، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٣٠) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص ١٦٥.

اجتمعتِ الانسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يَأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً » (٣١) . وبرهانُ معجزتِه أنّه كلُّه مِن عندِ الله، « ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كبيراً » (٣٢) .

هذا الكتابُ هو « معجزةُ التاريخِ العربي خاصّةً، ثم هو بآثارِه الناميةِ معجزةٌ أصليةٌ في تاريخِ العالَمِ كلِّه على بَسيطِ هذهِ الأرض، مِن لَدُن ظَهَرَ الإسلامُ إلى ما شاء الله... » (٣٣) . و « القرآن ... انّما هو البابُ الذي خرَجَ منه العقلُ الإنسانيُ المُستَرحِلُ، بعدَ أن قَطَعَ الدهرُ في طفولةٍ وشباب ... (و) القرآنُ إنّما هو الدرجةُ الأبديةُ التي أجازَ عليها العالَمُ في انتقالِه من جهةٍ إلى جهة » (٣٤) .

القرآن « هو كتابُ السماء إلى الأرضِ مُستقرّاً ومُستودعاً، وقد جاء بالإعجازِ الأبدي الذي يَشهَدُ على الدهرِ، ويشهدُ الدهرُ عليه. فما مِن جهةٍ من الكلامِ وفنونهِ الاّ وأنتَ واجدٌ إليها مُتوجَّهاً فيهِ، وما من عصرٍ الاّ وهو مَقلِبُ صفحةٍ منه حتى لتنتهي الدنيا عندَ خاتِمته فإذا هي خَلاء « من الجَنّةِ والناسِ » (٣٥) . وعند الدكتور الرافعي أيضا « إن القرآنَ كتابُ الدهرِ كلِّه، وكم للدهرِ من أدلّةٍ على هذه الحقيقةِ ما تَبرحُ قائمةً » (٣٦) . وأيضاً : « القرآنُ كتابُ كلِ عصرٍ، وله في كلِ دهرٍ دليلٌ من الدهرِ على الإعجازِ » (٣٧) . وأخيراً : « لا يعلمُ الناسُ من ذلكَ إلاّ أنّه (القرآن) معجزَةٌ من معجزاتِ التاريخِ العِلميِ في الأرضِ لم يَتّفِقْ له في ذلك شبيهٌ مِن أوّلِ الدنيا إلى اليومِ، ولن يَتّفقَ » (٣٨) . ومن ذلك أيضاً : « هذا الكتابُ الكريم سَبَقَ العقلَ الإنسانيَ ومخترعاتِه بأربعةَ عشَرَ قرناً إلى زمننا، وما ذاك الاّ فَصْلٌ من الدهرِ، وستَعقبُه فصولٌ بعدَ فصولٍ » (٣٩) .

---

(٣١) ١٧ / ٨٨.
(٣٢) ٤ / ٨٢.
(٣٣) الدكتور مصطفى الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١١٤.
(٣٤) نفس المرجع، ص ١١٥ ـ ١١٦.

لقد « عُنِيَ المسلمون بالقرآنِ من كلِ جانبٍ من جوانبِه، حتى كانَ هو الـذي قامـتْ حولَه ومن أجلِه كلُ العلومِ الدينيةِ والعربيةِ والكونيّةِ، وغيرِها ... فكان حقًا باعِـثَ النهضـةِ العلميةِ بمفهومِها الواسعِ لأتباعِه » [٤٠] . بالقرآنِ ظهرَ فضلُ المسلمين على العالَمِ أجمع : فـ « الحمـدُ للهِ الذي فَضَّلَنَا بالقرآنِ على الأممِ أجمعين، وآتَانَا بهِ مـا لم يُـؤتِ أحـدًا مـن العالَمين » [٤١] .

ولئن تحدَّى النبيّ بالقرآنِ كفّارَ قريش ومشركِي مكّةَ وجميعَ الجنّ والإنسِ بأن يـأتوا بسورةٍ من مثلِه، فإنَ القرآنَ نفسَه أعطى المسلمينَ لأن يَتَحَدّوا العالَمَ أجمع بجميعِ ما عنـدَهم من علومٍ وشرائعَ. هكذا « نَقَلَ جميعُ المسلمين هذا التحدّي إلى جميع الأممِ، فظَهَـرَ عجزُهـا أيضا » [٤٢] . وذلك لأنّنا نقعُ فيه « على ذخائرَ واسعةٍ من المعرفةِ تُعْجِزُ أكثرَ الناسِ ذكـاءً، وأعظمَ الفلاسفةِ، وأقدرَ رجالِ السياسةِ » [٤٣] .

ويكفي المسلمين فخرٌ أن يَنعَموا بكلامِ اللهِ يَتَجَسَّدُ فيما بينهم، يحـلُّ فـيهم، ويُعطـيهم السكينةَ والطمأنينةَ والسلامَ. ويكفي قارئَ القرآنِ أن يكونَ من الوحي والنبوّةِ على قيدِ شَعْرةٍ. والحقيقةُ تقال : « مَنْ قَرَأَهُ فَقَدِ استَدْرَجَ النبوّةَ بينَ جنبَيهِ غيرَ أنّه لا يُوحَى إليهِ » [٤٤] .

---

(٣٥) هذه الجملة هي آخر المصحف، نفس المرجع، ص ٣٢.
(٣٦) نفس المرجع، ص ١١٩.
(٣٧) نفس المرجع، ص ١٥٤.
(٣٨) نفس المرجع، ص ١٢٧.
(٣٩) نفس المرجع، ص ١٣٠.
(٤٠) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٣٣.
(٤١) محمد بن عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ٩.
(٤٢) محمد رشيد رضا في مقدمة على « إعجاز القرآن » للرافعي، ص ١٧.
(٤٣) لورا فيشيا فاغليرى، دفاع عن الإسلام، ص ٥٨.
(٤٤) عن إعجاز القرآن للدكتور الرافعي، ص ٩٩.

٢ ـ صِلَةُ النبيّ بالقرآن :

لا يدَ لمحمدٍ في القرآن. ليسَ له أن يُبَدِّلَ فيه شيئاً : « قُلْ مَا يكونُ لي أنْ أُبدِّلَهُ مِن تَلْقَاءِ نفسِي، أَنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحى إليّ » (٤٥) ، بل ليسَ له أيضاً أن يتسرَّعَ في تَقبّلِ الوحي، اللهُ هو الذي يصنَعُ له كلَ ما يشاء : « لا تُحرّكْ به لسانَكَ لِتعجلَ به، انَّ علينا جمعَه وقرآنَه. فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنَه. ثم إنّ علينا بيانَه » (٤٦) . لا يملك محمّدٌ، إزاء القرآن، أيَ أمرٍ من أمور السماءِ : « لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّا الاّ ما شاء الله » (٤٧) ، و « قل : لا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله، ولا أعلمُ الغيبَ، ولا أقولُ لكم أنّي مَلَكٌ، أنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إليّ » (٤٨) .

فمحمدٌ إذن « لا دخلَ له في الوحيِ، فلا يَصوغُه بلفظِه، ولا يُلقِيهِ بكلامِه، وإنّما يُلقى إليه الخطابُ القاءً. فهو مخاطَبٌ لا متكلِّمٌ، حَاكٍ ما يَسْمَعُه، لا معبِّرٌ عن شيءٍ يجولُ في نفسِه... (ثم) إنّ النبيّ لا يملِكُ حتى حقَّ استخدامِ ذاكرتِه في حفظِ القرآنِ، بل اللهُ يتكَفَّلُ إيّاه... وهو يرى بنفسِه أنه لا يملِكُ من أمرِ نفسِه شيئًا... إنّه الوحيُ يَنزِلُ على محمّدٍ حين يشاءُ ربُّ محمّدٍ، ويَفتَرُ إذا شاء له ربُّ محمّدٍ الانقطاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والأسجاعُ، ولا تقدِّمُ عواطفُ محمدٍ ولا تُؤخِّرُ في أمرِ السماء » (٤٩) .

« القرآنُ إذاً صريحٌ في أنّه لا صنعةَ فيهِ لمحمد ... ولا لأحدٍ مِنَ الخَلق، وإنما هو مُنَزّلٌ من عندِ اللهِ بلفظِهِ ومعناه » (٥٠) والتعريفُ المتَّفَقُ عليه هو أنّ « القرآنَ هو كلامُ الله تعالى، المنزَلُ على محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، المتعبِّدُ بتلاوته » (٥١) .

---

(٤٥) ١٠ / ١٥ ـ ١٦.
(٤٦) ٧٥ / ١٦ ـ ١٩.
(٤٧) ٧ / ١١٨.

وممّا يدلّ على أنّ القرآن كلَه من عندِ الله واقعُ محمّدٍ الأمّيِّ الـذي يجهَـلُ الكتابـةَ والقراءةَ. وأمّيّةُ محمّدٍ من مُسَلَّماتِ الإسلام والمسلمين. لهذا « كيفَ يمكنُ أن يكونَ هذا الكتابُ المعجزُ من عملِ محمّدٍ، وهو العربيُ الأمّيّ!؟ ... وعلى الرغم مـن أنّ أصـحاب البَلاغـةِ والبيانِ الساحر كانوا غيرَ قلائلَ في بلادِ العربِ فانّ أحدًا لم يتمكّنْ من أن يـأتي بـأيٍّ أَثَـرَ يُضاهِي القرآنَ ... انّه ممتنِعٌ على التقليدِ والمُحاكاةِ حتى في مادّتِه ... » [٥٢] . ومـن هـذا القبيل أيضًا : « من أينَ لأمّيٍّ كالنبي عليه السلام، أو متعلّمٍ مَهما أُوتِيَ من العلمِ أن يُؤَلِّفَ ستةَ آلافِ آية بهذه الفصاحةِ والاتّساقِ ؟ انّ في ذلك لآيةً على أنه من عندِ الله ... وقد ظهَر القرآنُ على لسان أمّيٍ لم يَتَعَلَّمِ القراءةَ والكتابةَ، فكيف يمرّ عليه أربعةَ عشَر قرنًا تتغيّرُ فيه العقليّـةُ البشريةُ ولا يظهَرُ فيه اختلافَ ؟ بل نَرى الأصولَ التي أتى بها القرآنُ ... تُناسِبُ مـع كـل زمانٍ ومكان » [٥٣] .

****

٣ـ اللّغَةُ العربيةُ في حِمى القرآن :

القرآنُ هو مصدرُ اللغةِ العربيةِ وحافِظُها، وهو الذي حَماها « لغة مِن أنَ تذوبَ فـي لغاتٍ. وما نعرفُ شيئًا حَمى اللغةَ العربيةَ من الضياع ... غيرَ هذا الكتابِ الكريم. أُبعِدَتْ ما أُبعِدَتِ الشعوبُ العربيةُ عن الكلامِ

---

(٤٨) ٦ / ٥٠.
(٤٩) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ و ٣٣ و ٣٨.
(٥٠) محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.
(٥١) نفس المرجع، ص ١٤. انظر تفسير ذلك في الصفحات التالية.
(٥٢) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٥٦ ـ ٥٨.
(٥٣) عفيف عبد الفتاح طبّاره، روح الدين الإسلامي، ص ٤٢ و ٤٣.

بلغتِها العربيّة وكانَ هو مردَّها إليها، كلما أوشكتْ أن تنفصم صلتُها بها ربَطتَها هو بها. وهكذا عاشتِ الأمّةُ العربيةُ بعيدةً بكل ما في يَدَيها عن لغتِها قريبةً بهذا الكتابِ وحدَه إلـــى لغتِهـــا. وحينَ حمَى هذا الكتابُ اللغةَ لأهلها حمَى هؤلاء مِن أنْ يتفرَّقوا أيدي سبأ ... » (٥٤) .

ثمّ انّ القرآنَ هو قاعدةُ اللغةِ العربيةِ وأصلُها والحَكَمُ عليها. وهي تَنتسِبُ إليه، وتحتمِي بهِ، وتُصَان. وفي رأي الشيخِ صبحي الصالح : « انّنا نجعلُ القرآنَ حَكَمَاً على قواعدِ اللغـــةِ والنحْوِ، ولا نجعلُ تلك القواعدَ حَكَمَاً على القرآن » (٥٥) . وفي رأيِ الـــدكتور الرافعـــي، أن القرآنَ « هو يدفعُ عن هذه اللغةِ العربيةِ النسيانَ الذي لا يُدْفَعُ عن شيء. وهذا وحدَه اعجاز... تُذْكَرُ بهِ اللغةُ، ولا يُذْكَرُ هو بِهَا. وبذلك يَحْفَظُها » (٥٦) .

ويبدو واضحًا للعيانِ وللتاريخِ أَنَّ القرآن « هو الكتابُ الوحيدُ الـــذي احـــتفظَ بلغتـــهِ الأصليةِ، وحفظَها على قيدِ الحياة، وسيحفظُها على مرِّ الـــدهورِ. وســـتموتُ اللغـــاتُ الحيّـــةُ المنتشرةُ اليومَ في العالَمِ، كما ماتتْ قَبْلَها لغاتٌ حيّةٌ كثيرةٌ في سالفِ العصـــورِ، الاّ العربيـــةُ، فستبقى بمنجاةٍ من هذا الموت، وستبقَى حيّةً في كل زمان، مخالفةً لنـــواميسِ الطبيعـــةِ التـــي تَسري على سائرِ لغاتِ البشر، ولا غروَ فانّها متّصلةٌ بالمعجزةِ القرآنيّةِ الأبديّة » (٥٧) .

وبعد كل هذا ليس على اللغةِ العربية، بعدَ القرآن، أنْ تَخافَ على نفسِها من المـــوتِ والفناء، حتى ولو فارقتِ الشفاهَ واللسانَ، لأنّ المتكلّمَ بها هو اللهُ، والكلامُ فيها هـــو كـــلامُ الله والملائكةِ وأهلِ الجنّة الناجِين.

---

(٥٤) ابراهيم الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٥٤.
(٥٥) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.
(٥٦) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٤.
(٥٧) أنور الجندى، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٦٩.

ولو لم يكنِ القرآنُ حافِظًا قواعِدَها، ورابطًا مراسيها، وحامِي ألسنةِ الناطقين بها، لأصابَها ما أصاب سواها من لغاتِ أهلِ الأرض. كلّ لغاتِ العالَمِ يجري عليها قانونُ الموتِ والحياةِ، مـا عداها، لأنها تَعْلو على سنّةِ الموتِ بعدَ أنْ أفسحتْ لها الحياةُ مجالَ الدهور. ومهما قرّر علـمُ اللغةِ من تطوّرِ اللغاتِ في أَلْسِنَةِ البشر، فانّ اللغةَ العربيةَ متنعّمةٌ بالسؤددِ والمجدِ في كلامِ اللهِ السرمديّ. فلا اللَّهَجَاتُ ولا اللَّكَنَاتُ ولا التلحينُ والتصحيفُ والتحريفُ بجائزٍ علـى لغـةِ اللهِ العليّ. وعلى الاستعمارِ ورجالهِ أن يعرفوا حدودَهم وحدودَ علمِهم عندما يواجهـون لغـةَ اللهِ وأهلِ الجنّة، لأنّنـا أمام « معجزةٍ ثانيةٍ خالدةٍ بخلودِ » القرآن[٥٨]. وهكـذا يكـونُ القـرآن « معجزًا في نفسه من حيثُ هو كلامٌ عربي » [٥٩].

****

٤ ــ العِلْمُ في القرآنِ ومِنَ القرآنِ :

كلُ ما في الأرضِ من علومٍ مصدرُها ومرجعُها القرآن : « انّ ما يداولُه العالَمُ اليومَ من فلسفاتٍ وعلومٍ انّما هو من نتاج الفكرِ الإسلاميّ أصلاً، وان القرآنَ كان بالحق هو مصدرُ المصادر « في مناهجِ العلومِ التجريبيّة والاجتماعيةِ جميعاً » [٦٠]. بل « ان القرآنَ (هـو) بمثابةِ ندوةٍ علميّةٍ للعلماء، ومعجَمِ لغةٍ للغويين، وأجروميّةِ نَحْوٍ لِمَنْ أرادَ تقويمَ لِسَانَه، وكتاب عروضٍ لمحبِ الشعرِ, وانسكلوبيديةٍ عامّةٍ للشرائعِ والقوانين » [٦١].

(٥٨) ابراهيم الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٤٤. انظر أيضًا ٤٥.
(٥٩) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٥٧.
(٦٠) أنور الجندى، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٠.
(٦١) أنور الجندى، العالم الإسلامي والاستعمار ...، ص ٣٢٦.

هذا القرآن العظيم نجدُ فيه كلّ « ما يؤيّدُ ويدعَمُ مواضيعَ العلمِ الحديث : من تجزئـــةِ الذرة، وثنائيةِ المادة، والأشعةِ الكونية، وطبقاتِ الجوِّ، والضـــغطِ الجـــوي، وتركيـــبِ المـــاء والهواء، ولغةِ الحشرات، وبصمات الأصابع، والكائنات المجهرية، وعدمِ فناء المادة، وغـــزوِ الفضاء، والذبذبات الصوتية، والنَقْلِ البعيد، والرؤيةِ عن بُعْد (التلفزة)، إلى غير ذلـــك مـــن حقائق العلم الحديث » [٦٢] .

لقد تناولَ القرآن بالبحثِ كلّ المعارفِ والعلومِ الممكنةِ « تناولاً شامِلاً جامِعًا مانِعًا. لم يبقَ فيه للأجيالِ التي تلتْ نزولَه ما تزيدُه، ولم يُتْرَكْ للعلمِ وآلاتِه أن يُضيفَا شيئًا إلى بيّناتهِ ... فسبقَ العلمَ ولم يَتْرِكْ زيادةً لمستزيد » [٦٣] . لهذا « نحنُ نقدِرُ أن نقولَ، بكل ثقةٍ واعتزاز، أنّ جميعَ الأمثالِ القرآنيةِ مؤيّدةٌ من العلمِ الحديثِ دون استثناء » [٦٤] .

بل قد نعجزُ عن احصاءِ علومِ القرآن أو أن نَستقصيَها جميعَها، « وقد ذكَر الألوســـي في تفسيره عن بعض السلف : أُنزِلَ في هذا القرآن كلُ علمٍ، وبُيِّنَ لنا فيه كلُّ شـــيء. ولكـــنْ علمُنا يقصر عمّا يُبيّن لنا في القرآن. ونَقَلَ عن ابن عباس قولَه : « لَوْ ضَاعَ لِي عقالُ بَعِيـــرٍ لَوَجَدْتُهُ في كتاب اللهِ تعالى » . وذَكَرَ أيضا : ان بعضَ العلماءِ استخرجَ من « الفاتِحَةِ أسماءَ سلاطين آلِ عثمان وأحوالَهم ومدّةَ سلطانِهم إلى ما شاء الله » [٦٥] .

وهكذا « ما مِن علمٍ الاّ وقد نظَر أهلُه في القرآن، وأخذوا منه مادّةَ علمِهم، أو مـــادّةَ الحياةِ له » [٦٦] . وفي علمِ الرافعي « قد ألّفَ بعضُ

(٦٢) يوسف مروّة، كتاب العلوم الطبيعية في القرآن، ص ٦٩.
(٦٣) أحمد سليمان، القرآن والطب، ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٦٤) الامام موسى الصدر، في مقدمة كتاب يوسف مروّة، « العلوم الطبيعية » ، ص ٣٨.
(٦٥) أحمد سليمان، القرآن والعلم، ص ١٦٩ ، نقلا عن « روح المعاني » .
(٦٦) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٢.

علماءِ القومِ كتابًا سمّاه « تنبيهَ الأغنياء على قَطرةٍ من بحرِ علومِ الأوليــاء » . كانــت هــذه القَطَرةُ فيه زهاءَ ثلاثةِ آلافِ علمٍ. فترى ما عسى أن يكونَ البحرُ ؟ اللهــمَ ان الســلامَةَ فــي الساحل » [٦٧] . وعند الرافعي أيضًا أن في القرآن « اشاراتٍ وآياتٍ بيّناتٍ في مســائلَ مــا برحتِ العلومُ الطبيعيّةُ تحاولُ الكشفَ عن كنهها منذ عصور » [٦٨] . كما يخلص إلى القول : « ان هذه المخترعَاتِ والمستحدَثَاتِ وما أدّتْ إليه من أدلّةٍ ونظرياتٍ قد جاءَتْنا ببرهانٍ جديــدٍ على إعجازِ القرآنِ الذي نَدينُ اللهَ عليه، فقرّتْ أعينُ المؤمنين، وذلك من فضلِ الله علينا وعلى الناس » [٦٩] .

« ولعلّ أهمَّ الأسبابِ الداخليّةِ لانحطاطِ المسلمين وتأخرِهم في الوقتِ الحاضــرِ هــو انصرافُهم ... عن تدارسِ ما في القرآنِ من كنوزِ العلمِ والمعرفةِ، والتي ما زالتْ بكرًا حتــى الآن » [٧٠] . ونحن على يقينٍ أنّ العالَمَ الإسلامي، إذا ما عادَ إلى كلامِ اللهِ يستشفُ منه العلــمَ والمعرفةَ، سيلتحقُ بِرَكْبِ العلمِ وأهلِ العلم، لأنّ مصدرَ العلمِ في كتابِ الله الذي بين أيــديهم. وبهذا لن تعودَ أوروبّا تتحكّمُ برأسمالِ المسلمين، لئلا يلحَقَ بكتابِ الله من هذا التحكّمِ شــيءٌ. وحاشا الله من المفسدين.

****

٥ ــ في القرآنِ شريعةُ الخلود :

في اعتقاد المسلمين ان الشريعةَ الإسلاميةَ هي آخِرُ صورةٍ لكِل شريعةٍ، وقد لا تلحقُ البشريةُ في نُضجِها ونموِّها الأخيرِ مستوَى شريعةِ الإسلام « التي

(٦٧) الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٦، حاشية (١).
(٦٨) نفس المرجع، ص ١٣١.
(٦٩) نفس المرجع، ص ١٣٣.
(٧٠) الدكتور داوود العطّار، موجز علوم القرآن، ص ٧.

أرادَها اللهُ لمستقبلِ البشريةِ كلِّها، والتي وضعَها اللهُ على مستوى النضجِ للبشريةِ كلّها، وصاغَها بحيثُ تشملُ كلّ دقائقِ حياتِهم، وتسيرُ مع كل نموّهِم وتطوّرِهم حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ وما عليها ... وعالجَ الإسلامُ (هذه الشريعة) بحيثُ لا تخرجُ الحياةُ البشريّةُ في أيّةِ لحظةٍ من تطوّرِها عن مفاهيم الإسلامِ وتشريعاته » [٧١] .

ان الإسلامَ، بنظرِ المسلمين المؤمنين، يناسِب كلّ عصرٍ، فيما سائر الأديانِ تناسبُ عصرَها الذي وُجِدَتْ فيه. و « الأديانُ تختلفُ في تشريعاتِها لاختلافِ أحوالِ الأممِ الاجتماعيةِ ودرجةِ استعدادِها العقلي. ولقد اختتمَ اللهُ الأديانَ بالدينِ الإسلامي، وأعطى محمّدًا شريعةً تَنْسَخُ ما قَبْلَها من الشرائعِ مظهِرًا فيها كنهَ الدينِ الحقّ. وهذه الشريعةُ توافقُ ما اقتضاه التطوّرُ العقلي للإنسانِ وتصلحُ لكل زمانٍ ومكانٍ، وانّها الشريعةُ المقبولةُ عند الله ، ولا يُقْبَلُ غيرُها » [٧٢] .

ثم ان « الشريعةَ الإسلامية هي شريعةُ الخلودِ والبقاء، لانّها جمعتْ بين حلقاتِ الزمنِ من دابرٍ وحاضرٍ، فوضعتْ لكلِ عصرٍ وجيلٍ أحكامَه وطرائقَه، فكانتْ شريعةُ الإسلامِ خيرَ الشرائعِ وأمثلَ القوانين » [٧٣] . وهكذا « لما كان الإسلامُ خاتمَ الأديانِ كان من الضروري أن يأتي بشريعةٍ تختمُ كل الشرائع، ومن هنا كانتْ شريعةُ الإسلامِ صالحةً لكلِ زمانٍ لأنّها شريعتُه، ولكلِ مجتمعٍ لأنّها حياتُه الفاضلة المهذبة. وليس في الأرضِ شريعةٌ صالحةٌ كشريعةِ الإسلام، وما من مزيةٍ صالحةٍ في أيّ شرعٍ كان الاّ والإسلامُ يَحويهِ على أكملِ وجه، لأن شريعةَ الإسلامِ هي شريعةُ الله ، وما شَرْعٌ أكملُ من شَرْعِ الله ، ولا خيرٌ منه للإنسانيةِ كلّها » [٧٤] .

(٧١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٢١ ـ ٢٢.
(٧٢) عفيف عبد الفتّاح طبّارة، روح الدين الإسلامي، ص ١٧.
(٧٣) عباس طه، السلطتان الدينيّة والدنيوية كما يراها الإسلام، في كتاب « الإسلام والأنظمة السياسيةُ » ، دار الكاتب العربي، ص ٨١.

والسبب في ذلك هو ما « في شريعةِ الإسلام من المُسَايَرَةِ والمطاوَعةِ واليُسْرِ والسَعَةِ والمُرونةِ والكفايةِ لكلِ ما يشمَلُ تطوراتِ الحياةِ، ويحقّقُ للناسِ سعادَتهم أفرادًا وجماعاتٍ فـــي كل زمنٍ وبيئة » [٧٥] .

و « كذلك المبادئُ والأصولُ الرئيسيةُ للفقهِ والتشريعِ الإسلاميّ، فيها صفة الشـــمولِ والعمومِ لحياةِ الإنسانِ في كل البيئاتِ والعصورِ. وفي الوقت نفسهِ تتصفُ بالثباتِ والـــدوام، ولكن لا بمعنى الجمودِ والتحجّر ... وعليه يكونُ معنى صلاحِ الشريعةِ الإسلامية لكلِ زمـــانٍ ومكان : ان مبادئَها وأصولَها الأساسية تصلحُ لأن يتفرّع عنها ويُستَخرجَ منها أحكامٌ تنســـجِمُ وتتلاءَم مع كل بيئةٍ وعصر، وانَ الخيرَ والصلاحَ لا يمكن وجودُه والبحثُ عنه خارجَ إطـــارِ مبادئِ الشريعةِ الإسلامية وأصولِها » [٧٦] .

والعجيبُ الغريبُ حقّا أن تَرى بعض « الدولِ الإسلامية أو أكثَرها تنقلُ قوانينَها عـــن الغَرْبِ، وتهملُ الشريعةَ الإسلامية، مع العلمِ أن أكثرَ القوانين الغربيةِ منقولـــةٌ ــ بطريـــقٍ أو بآخر ـــ عن الفقه الإسلامي. وعلى فرْض استقلالِها عنه، فان التشريعَ الإسلامي لا يُدانِيهِ أيُّ دستورٍ أو قانون » [٧٧] .

ان الشريعَة الإسلامية، أخيراً، بلغتِ الكمالَ والتمامَ في كل شيء : « لقد بلغتْ (مثلاً) في تكريمِ المرأةِ وتأكيدِ حقوقِها واستقلالِ شخصيتها ما لم يبلغْهُ تشريعٌ اجتماعيٌ أو قانونيٌ في القديمِ ولا في الحديث » [٧٨] . و « ان الحضارةَ الإسلاميةَ سبقتِ الإعلانَ العـــالمي لحقـــوقِ الإنسان، حتى

(٧٤) أحمد عبد الغفور عطّار، هل يفي الفقه الإسلامي بحاجات كل عصر ؟ في كتاب « الإسلام والتحدي الحضاري » ، دار الكاتب العربي، ص ١١٢.
(٧٥) محمود الشرقاوي، التطور روح الشريعة الإسلامية، ص ٧٠ و ٩١.
(٧٦) محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٧٧) نفس المرجع، ص ٤٣.
(٧٨) الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ١٨٨ و ١٨٩.

جاء هذا الإعلانُ وكأنّه مشتَقّ من مبادئِ الإسلام » [٧٩] . كما أنّه « ولا شكّ أيضًا في أن الإسلامَ قد سبقَ الأنظمةَ كلَّها إلى تحريرِ الرقيق » [٨٠] . وبالعموم « ان التشريعَ الإسلاميّ لا يُدانيه أي دستورٍ » في العالم [٨١] .

****

٦ ـــ في القرآنِ حُلولٌ لكلِ مشاكلِ الكونِ والإنسان :

في اعتقادِ المسلمين أن القرآنَ قدّمَ الحلولَ المناسِبَةَ والنهائيّةَ والجذريّةَ لكلّ مشاكلِ الإنسانِ والعصرِ والمجتمع. بل ان « الإسلامَ هو نهايةُ الفكرِ الإنساني. والإنسانيةُ، بعد طُولِ حَيرَتِها حولَ المذاهبِ والدعواتِ والأفكارِ، لن تجدَ حلاً لمشاكلِها الاجتماعيّةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ إلا في الإسلام » [٨٢] .

وفي القرآنِ أيضا « المنهجُ الذي يُعطي الجوابَ الصحيحَ عن كلِ مسألةٍ، ويَحكُمُ بالحقِ في كلِ مشكلة ... المنهجُ الذي لا مُنقِذَ غيرُه للناس ممّا هم فيه من شقوةٍ وعذابٍ وحَيرةٍ واضطراب » [٨٣] . وفي كل أمرٍ من أمور الدنيا والناس تجدُ الحلَّ لمعضلتهِ في القرآن والإسلام : « لا حلَّ الاّ بالإسلامِ الذي يُعَبِّدُ الطريق في كلِ شيء. ويكونُ بوسعهِ أن يوفّرَ لنا المخرجَ إلى حدٍّ بعيد » [٨٤] .

وفي القرآن أيضًا « دينٌ جارَى التطوّرَ في كل زمانٍ ومكان ... ولم تقفْ أمامَه مشكلةٌ من المشكلات ... دينٌ لا زالتْ أصولُه ودعواتُه حلمَ البشريةِ بعدَما وصلتْ إليه من تطوّرٍ وتقدّمٍ وحضارة ... دينٌ وضَع أصولاً خالدةً لإصلاحِ جميعِ

(٧٩) أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٧.
(٨٠) الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ١٦١.
(٨١) محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٤٣.

مجالاتِ الحياةِ ... لم يقفِ الإسلامُ ... حائلاً أمامَ أيّةِ مشكلةٍ من مشكلاتِ الحياة، في كل عصرٍ وكل بيئة. بل وَجَدَ الحلولَ العادلةَ لكلِ ما جدَّ وما يَجِدّ على سطحِ الأرض من جديد ... حلّ جميعَ العصبياتِ وأبطَلَها، وكلَ المشكلاتِ وأزالَها، وجميعَ العِقَدِ النفسيّةِ والروحيّةِ عند جميعِ الناس ... قابلَ الإسلامُ آلافَ الدعواتِ والمبادئِ والأفكارِ الجديدةِ، ومع ذلك لم تستطعْ أحداها أن تجاريَهُ في حيويتهِ، وبساطتهِ، ومثاليتهِ، وعِظَمِ مبادئهِ وأصولهِ ... » (٨٥) .

كلُ إنسان، مهما كانتْ درجةُ وعيهِ ونضجهِ، وإلى أيّ معتقدٍ أو مذهبٍ أو إيمانٍ يَنتمي، يجدُ في الإسلام « نِظامًا من القيمِ الأخلاقيّةِ والشرائعِ المدنيةِ التي تعطيهِ أجوبَةً مفَصَّلَةً لما يعترضُه من مشكلاتِ الحياةِ اليوميّة » (٨٦) . و « لا ريبَ أن الدينَ الإسلامي خاتم أديانِ العالم كفيلٌ بكلِ ما يحدثُ إلى يوم القيامة » (٨٧) . بل « منذ بزغَ فجرُ الإسلام إلى اليوم ... وإلى ما بعدِ اليوم لم يُقْضَ أمرٌ من أمورِ هذا الكوكب دون أن يكونَ للإسلامِ فيه أثرٌ... »(٨٨).

ونستطيعُ القولَ أن « أيَّ استكشافٍ يصلُ إليه العقلُ البشري فهو انتصارٌ لدينِ محمد والقرآن. وأيَّ عملٍ ينفَعُ الناسَ بجهةٍ من الجهاتِ فهو من هذا الدينِ في الصميم ... وأيَّ إنسانٍ يَتْرُكُ أَثَرًا مفيدًا لأخيهِ الإنسانِ

---

(٨٢) محمد فريد وجدى، المستقبل للإسلام، ص ١٢٦.
(٨٣) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٢١.
(٨٤) الدكتور قهر الدين يونس، النظام الاقتصادي في الإسلام، في كتاب « الإسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة » ، ص ١٢٨.
(٨٥) الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ص ١١.
(٨٦) نعيم عطيّة، عن أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ١٩٦.
(٨٧) محمد يوسف البنوري، موقف التشريع الإسلامي من الاجتهاد ومنصب العقل في الدين، في « الإسلام والتحدي الحضاري » ، ص ٧٣.
(٨٨) أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٣.

فانه يلتقي بعَمَلِهِ هذا مع دينِ الله ... » [٨٩] .

وبالنتيجةِ، وبفضلِ القرآن، كانَ الإسلامُ « ثورةً لم تشهدْها الإنسانيةُ من قَبل ولا مــن بَعد، وإصلاحًا لم يكن يحلَمُ بهِ بشرٌ، ولا زلنَا حتى اليوم لا نســتطيعُ أن نصِــلَ إلــى مــداهُ الكبير... ثم استمرَ في مَدّهِ العظيمِ وانضوَى تحتَ لوائهِ الملايين... مستبشرين بعهدِ الحريــةِ والإخاءِ والتعاونِ والعدالةِ والمساواةِ والرفاهيةِ لبني البشرِ جميعًا، وعاملين على تأثيلِ حضارةٍ ومدنيةٍ جديدة لم تشهدْها البشريةُ من قبل » [٩٠] .

وفي رأي الدكتور الشيخ صبحي الصالح « ان الإسلامَ ... أقوى عامل ثوري يُخْرِجُ المجتمعَ العصري من الرتابة والجمود، بما يستطيعُ تقديمَه من الحلولِ في ســبيلِ الإصــلاحِ العالمي المنشود ... وقد انطوتْ تعاليمُه الصريحة على مبادئَ واضحةٍ كفيلةٍ، إذا ما طُبِّقــتْ، بإحداثِ ثورةٍ شاملةٍ في ميادينِ الاجتماعِ والاقتصادِ ... » [٩١] . وكل ما في العالم من مذاهب معاصرة، « لقد سبقَ الإسلامُ هاتيك المذاهبَ في هذا المجالِ، بعدّة قرونٍ وأجيال » [٩٢] .

بل « ان كلَ الدلائلِ تشيرُ إشارةً حاسِمةً إلى قدرةِ الشريعةِ الإسلاميةِ على وضع مــا سمّيتُه بالصياغةِ المرنةِ والحلولِ الذكيّة لكل ما يحتاجُ البشرُ إليه فــي يومنــا هــذا » [٩٣] . وبالعموم ان الإسلامَ هو « طريقُ حقيقةٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وحضارةٍ وعلمٍ وفلسفة » [٩٤] .

---

(٨٩) محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ١٣ ـ ١٤.
(٩٠) الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ٩ ـ ١٠.
(٩١) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ٩ و ١٢.
(٩٢) نفس المرجع، ص ٢١.
(٩٣) نفس المرجع، ص ٢٤.
(٩٤) حسن صعب، الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية، ص ٤١.

٧ ــ كلُ الاطمئنانِ في القرآن :

« في الإسلام ــ وطبعا في القرآن ــ تجدُ الإنسانيةُ القلِقَةُ طمأنينتَها وهدايَتها » (٩٥). هذه الطمأنينةُ هي نفسُها التي أنعمَ اللهُ بها على رسولهِ. وهذا القرآن « ما جعلَه اللهُ إلاّ بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبُكم به » (٩٦). ونحن بالقرآنِ، ومع الرسولِ، على سَكِينَةٍ مــن عنــدِ الــرب العلي: لقد « أنزلَ اللهُ سكينَتَه على رسولهِ وعلى المؤمنين » (٩٧).

و « الطمأنينةُ خُلُقَ من أخلاق القرآن الكريم، تحدّث عنها في أكثر من موطِنٍ، فقــالَ في سورةِ البقرة : « قال : أولمْ تؤمن ؟ قال : بلى. ولكن ليطمئنَّ قلبــي » (٩٨). وقــال فــي سورةِ الرعد : « الذينَ آمنوا وتطمئنُّ قلوبهُم بذكرِ الله، ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلــوب » (٩٩). وقال في سورة الفجرِ :« يا أيّتها النفسُ المطمئنّةُ ارجعِي إلى ربكِ راضيةً مرضية » (١٠٠) .. الخ » (١٠١)

ثم إن « القرآن الكريم هو أصدقُ رائد إلى هذا الإيمان، وهو أقوى قاطع لذيل الشــكِ والريبِ، ومن هنا جاء قولُ الله تبارك وتعالى : « الذين آمنوا وتطمئنُّ قلــوبُهم ... » ، لأنَ هؤلاءِ إذا ذَكَروا ربَّهم، وقرأوا كلامَه وتدبّروا مغزَاه، خشعتْ قلوبُهم واطمأنّت » (١٠٢).

وقد عبّرَ المسلمون المؤمنون عن هاتين الفضيلتين : الطمأنينة والسكينة خيرَ تعبير في جميعِ ما وضعوا من كتبٍ ومقالات، وفي جميعِ حياتهم الإيمانية المستنيرةِ بــالقرآنِ وســيرةِ النبي؛ لقد وجدُوا، في كتابِ الله، حلاً لكلِ مشكلة.

---

(٩٥) أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص ٨.
(٩٦) القرآن : ٣ / ١٢٦، انظر ٨ / ١٠.
(٩٧) ٩ / ٢٦، ٤٨ / ٢٦، انظر : ٩ / ٤٠، ٤٨ / ٤ و ١٨.
(٩٨) ٢ / ٢٦٠.
(٩٩) ١٣ / ٢٨.
(١٠٠) ٨٩ / ٢٧.

ومنهجًا لكلِ علم، وشرْعًا لكلِ شريعة، ومرجعًا لكلِ معرفة، وأساسًا لكل خيرٍ وصلاح، ونهجًا مستقيما لكلِ رأي، وقاعدةً متينةً لكل عقيدة، واستقامةً لكل صراط، وهدىً لكل شريد، وموئِلاً لكلِ تائه، ومحجةً بيضاءَ لكلِ ضالّ، وخلاصًا للعالمين.

فـ « في الإسلام فقد يَجدُ العقلُ ما يوسعُ أفقَه ويرشدُه » إلى طريقِه السويّة ... وفي الإسلامِ يَجدُ الفكرُ المشلولُ النورَ الباعث ... وفي الإسلام تجدُ العواطفُ المسعورةُ بالشهوةِ ما يهذِّبُ غرائزَها ويسمو بها إلى المثاليةِ الممكنة ... ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... » [١٠٣].

ليس بعد هذه الطمأنينة في قلب المسلم أو عقله أيُّ قلق أو تمزّق. فهو مطمئنٌّ البالِ والنفسِ والعاطفةِ والفكر. انّه على يقينٍ من ربّه وإيمانِه بربّه، لأن كتابَه هو « الحقّ اليقين » [١٠٤] . ولئن كان في قلبِ المسلم من قلقٍ فبسببِ بُعْدِه عن كتابِ الله : « إن أزمةَ القلق التي يعانيها المثقفُ المسلمُ اليومَ انّما تعودُ إلى أصلٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ، وهو أنّه تركَ مقوّماته الأساسية وقيمَه ... ولو أنّه التقَى بالفكرِ الإسلامي ... لما وقعَ في مثل هذا التمزّق أو هذه الأزمة » [١٠٥] .

وعندما يكون « الإسلامُ كلهُ حقائق » [١٠٦] ، وعندما يؤمنُ المسلم « انّ الإسلامَ صُنْعُ الله الذي أتقنَ كل شيء » [١٠٧] ، لا بدّ ان يطمئنَ المسلمُ ويرتاحَ من البحثِ والتفتيشِ والمعاناةِ والتعبِ والتفكيرِ المضني والحياة الصاخبةِ والقلقِ على اللهِ والخوفِ من مصيرهِ وسعادتهِ ان كان من الصالحين.

---

(١٠١) الدكتور أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، فصل « الطمأنينة » الجزء الأول، ص ٧٩.
(١٠٢) نفس المرجع، ص ٨٠.
(١٠٣) أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص ٨.
(١٠٤) القرآن : ٦٩ / ٥١.
(١٠٥) أنور الجندي، الإسلام والدعوات الهدّامة، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

« فالمستقبلُ للإسلام وإنْ جهلَ ذلك الجاهلون، أو تجاهَله المتعصّبون » [١٠٨]. ولنفترضِ القرآنَ مجرَّدًا من كل قداسةٍ دينية، ثم لننظرْ إليه كمصدرٍ تاريخي بحت. فماذا نجد ؟ نجد أنّنا لا نملكُ كتابا آخر، ولا أثرا تاريخياً آخر في تاريخِ البشرية كلّها، توافرتْ له أسبابُ التحقيقَ العلمي البحتة، كما توافرت لهذا الكتاب » [١٠٩]. ومجرّد افتراضِ القرآن كلاً ما بشريًا يوقِعُ البشرَ في حيرةٍ واضطراب ما بعدَه حيرة ولا اضطراب. من هنا إيمانُ المسلمينِ بطمأنينةِ النفسِ والقلبِ والعقل. وفي هذا يكمن سرُّ اعجازِ القرآن وسرُّ معجزته.

****

٨ ـــ القرآنُ معجِزَةُ المعجزَات :

لا شكَّ أنّنا مع القرآنِ أمامَ معجزة، بل أمامَ معجزةِ المعجزات. ونحن في القرآنِ نمسكُ بالحقيقةِ كلِ الحقيقة، ونعرف الله بأسمائهِ التسعة والتسعين. ونحصلُ على العلمِ والمعرفةِ كلِ العلم وكلِ المعرفةِ. وهل نعجبُ بعدُ من « معجزةِ المعجزات » انِ احتوتْ على علومِ الدنيا والآخرة، واحتوتْ على أسرار علومِ الأرضِ والسماء، وحملت في دفّتيها نُظُمَ علاقاتِ البشر مع بعضِهم بعضا ؟

أليسَ من حقّ يوسف مروّة أن يجدَ « العلومَ الطبيعية في القرآن » [١١٠]؟ ومن حقِ أحمد محمود سليمان أن يرى بين « القرآن والعلم » [١١١] تلازمًا،

---

(١٠٦) محمد الخضر حسين، المدينة الفاضلة في الإسلام، في كتاب « الإسلام والتحدّي الحضاري » ، ص ٢٩.
(١٠٧) نفس المرجع، ص ٢٨.
(١٠٨) محمد فريد وجدي، المستقبل للإسلام، ص ٣٧.
(١٠٩) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢٠٥.
(١١٠) بيروت، سنة ١٩٦٨، ٢٨٢ صفحة.
(١١١) دار العودة بيروت سنة ١٩٨٧ ، ١٧٤ ص.

وفي « القرآن والطبّ » علاجًا [١١٢] . أليسَ من حق مصطفى محمود أن يجد في « القــرآنِ محاولةً لفهم عصرى » [١١٣]، ولمحمد فريد وجدي أن يرى « الإسلامَ في عصر العلم » [١١٤] والدكتور صابر طعيمة « الشريعة الإسلاميّة في عصر العلم » [١١٥] ؟ لم يتأخّر القرآن لحظة عن التطوّر العلمي الحاصل والذي سيحصل في مستقبل البشرية، بل هو الذي وضع أســسَ العلم والمعرفة.

وهل من عَجَبٍ بعد إذا رأينا مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح وفَاقــًا وارتباطًا بين « الإسلامِ والمجتمع العصري » [١١٦] ؟ ومع الدكتور رفعت الشرقاوي تحدّى « الفكر الــدينيّ (الإسلامي) في مواجهة العصر » [١١٧] ، ومع الدكتور مصطفى الرافعي حلولا مشتركة بــين « الإسلام ومشكلات العصر » [١١٨] ، ومع أنور الجندي اتّفاقــــًا بــين « الإســـلام والعـــالم المعاصر » [١١٩] ، ومع عشرة من علماء الإسلام قضاءً جذريًا بــين الإســـلام والمعضـــلات الاجتماعية الحديثة » [١٢٠] ، ومع الدكتور حسن صعب « الإسلام تجــاه تحــدّيــات الحيــاة العصرية » [١٢١] ، ومع أبي الأعلى المــودودي « الإســـلام فــي مواجـــهة التحديــــات المعاصرة » [١٢٢] ، ومع وحيد الدين خان « الإسلام يتحــدّى » [١٢٣] ، ومـــع عبــد الكــريم الخطيب الذي يجد « التعريفَ بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدّياته » [١٢٤] أحسنَ ما يمكن أن يكون لفهم الإسلام، ومع عشرة علماء من المسلمين يوازون بين « الإسلام والتحدّي الحضاري » [١٢٥] ، فإذا بالإسلام، عندهم، يَعلو ولا يُعلى عليه ؟ !!!

---

(١١٢) دار العودة بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٨ ص.
(١١٣) دار الشروق بيروت سنة ١٩٧٠، ٣٠٤ ص.
(١١٤) بيروت سنة ١٩٦٧، ٨١٦ ص.
(١١٥) دار الجيل، بيروت ١٩٧٩، ٢٣٢ ص.
(١١٦) دار الآداب بيروت، ١٩٧٧، ٢٧٢ ص.
(١١٧) بيروت سنة ١٩٧٩، ٤٦٤ ص.
(١١٨) دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٢، ٣١٤ ص.
(١١٩) دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٣، ٤٧٠ ص.
(١٢٠) دار الكاتب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ١٤٤ ص.

وكم هي الذين رأوا الإسلامَ يُعنَى بكلِ شيء في المجتمع العالمي المعاصر ؟ فإذا الدكتور صابر طعيمة يوازِن بين « الإسلام ومشكلات السياسة » [١٢٦] ، وعشرة علماء يرون بين « الإسلام والأنظمة السياسية » [١٢٧] تفوّق النظامِ الإسلامي، بل تفوّقَ « النظم الإسلامية » [١٢٨] التي يراها الدكتور صبحي الصالح شاملة لنظريات العالم السياسية. ولهذا يحقّ لنا أن نقول مع طه عبد الباقي سرور بـ « دولة القرآن » [١٢٩] ، ومع الدكتور محمد أحمد خلف الله أن نرى بين « القرآن والدولة » [١٣٠] صيغةَ الدولةِ الحقيقية التي جاء بها القرآن الكريم.

وإذا أردتَ الموازنةَ بين « القانونِ الروماني والشريعة الإسلاميّة » [١٣١] كما جاء بها زهدي يكن، فلا بدّ لك أن تقول مع الدكتور خليل الجرّ بأنّ الوحيَ الإلهي هو وحدَه مصدرُ الفقهِ الإسلامي[١٣٢] . وقد رأى خمسةٌ من العلماء المختصين الجوابَ على سؤال « هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي » [١٣٣] . والنتيجة أن نرى مع رأفت شفيق شنبور أن « دستور الحكم والسلطة في القرآن والشرائع » [١٣٤] لا في أنظمة ماركس ولينين وغيرهما[١٣٥] .

---

(١٢١) دار الآداب بيروت سنة ١٩٦٥، ٢٠٠ ص.
(١٢٢) تراه في سلسلة كتب أبي الأعلى المودودي.
(١٢٣) نفس المرجع.
(١٢٤) دار المعرفة، بيروت سنة ١٩٧٥، ٣٢٨ ص.
(١٢٥) دار الكاتب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ١٤٤ ص.
(١٢٦) دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤، ٤٤٠ ص.
(١٢٧) دار الكاتب العربي، بيروت، (بدون تاريخ)، ١٢٨ ص.
(١٢٨) دار العلم للملايين، ط ٤، سنة ١٩٧٨، ٥٧٦ ص.
(١٢٩) القاهرة، سنة ١٩٦١، ٢١٢ ص.
(١٣٠) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، سنة ١٩٨١ ، ١٦٤ ص.
(١٣١) دار يكن للنشر، بيروت ١٩٧٥ ، ١٨٤ ص.
(١٣٢) من مقدمة على كتاب المرجع السابق.
(١٣٣) من فهارس الشركة المتحدة للتوزيع.
(١٣٤) المكتبة العصرية، بيروت (بدون تاريخ)، ١٦٣ ص.

وعليه يكون « منهاج الإسلام في الحكم » [١٣٦] أكملَ ما يمكن أن يكون في هذا العالم المضطرب. وكيف لن يكون له ذلك وهو الذي اهتمّ بكل شاردة وواردة في أنظمة البشر ومشكلاتهم! إذ هو الذي يحدّدُ « النظامَ العالي » [١٣٧]، لأن « المالَ في الإسلام » [١٣٨] هو عصبُ الحياة والدولة. وقد رأى الدكتور خفاجي في « الإسلام ونظريته الاقتصادية » [١٣٩] خيرَ نظرة في عالم الاقتصاد الذي بسببه يتقاتلُ البشرُ على خيراتِ الأرض. وهذا ما يحدونا إلى قول بأن بين « الإسلام ومتطلباتِ التغيير الاجتماعي » [١٤٠] تفاعلاً ينتصرُ بنتيجتهِ الإسلامُ طبعًا.

ناهيك عن أن أحسنَ صورة لتنظيمِ الأسرةِ والمجتمعِ تراها في الإسلام، فـ « مكانة المرأةِ في الإسلام » [١٤١]، كما قال محمد عطية أرفعُ مكانة، وعند أحمد زكي تفاحة تجد « المرأة والإسلام » [١٤٢] يتفّسان هواءَ الحرّية. وإذا ما كان « الطلاق في الإسلام » [١٤٣] جائزاً فانّه، بنظر مولانا محمّد عليّ « أبغض الحلال عند الله »، على حدّ قول الرسول. ومع هذا في الإسلام « رَفْعُ الشقاق في أحكام الطلاق » [١٤٤] خيرُ الأحكامِ بنظرِ أحمد أمين الانطاكي.

---

(١٣٥) انظر : مصطفى محمود، « الماركسية والإسلام »، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٥، ٨٢ ص. وعبد العزيز البدري، « حكم الإسلام في الاشتراكية »، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط ٢، ١٩٦٥، ١٧٢ ص. وسيّد قطب، « معركة الإسلام والرأسمالية »، بيروت ط ٣، ١٩٦٦، ١٢٤ ص.

(١٣٦) محمد أسد، دار العلم للملايين، ١٩٧٨، ١٩٢ ص.

(١٣٧) الدكتور بابللي، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥، ١٧٤ ص.

(١٣٨) محمد مهدي الآصفي، المكتبة الإسلامية بيروت ١٩٧٣، ١٥٦ ص.

(١٣٩) دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٧٣، ١٨٢ ص.

(١٤٠) العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الغدير ١٩٨٠.

(١٤١) القاهرة، (بدون تاريخ) ١٢٦ ص.

(١٤٢) دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩، ١٩٢ ص.

(١٤٣) المكتبة العصرية، (بدون تاريخ) بيروت، ١٥٦ ص.

(١٤٤) حلب، سنة ١٩٦٦، ٦٠ ص ... وعديدة هي الكتب التي تتكلّم على شأن المرأة ومكانتها واستقلاليتها وأحكام الطلاق والزواج في الإسلام والقرآن. وقد توقفنا عند بعضها وليست هي أهمّها ...

ولئن كان « الزواج في الإسلام » [١٤٥] خيرَ عقدٍ فيما بين البشر، فانّــك لَوَاجِــدُ « انحــرافَ المسلمين عنه » [١٤٦]، أو بعضِ المسلمين. لهذا لا بدّ لصلاح الأمور من الرجوعِ إلى القرآن لنجدَ « نظامَ الأسرة في الشرع الإسلامي » [١٤٧] وما يتضمّنهُ من أحــوالِ المهــر والمتعــة والنَسَب والبنوة والحضانة والنفقة ... وما إليه أحسن نظام على وجه الأرض.

وإذا تخطّينا هذه الأحوال الشخصية فإنّنــا نجد أن أضــمن « الــديموقراطية فــي الإسلام » [١٤٨]، وان القرآن يدعــو إلى « إسلام الحريــة لا إسلام العبــودية » [١٤٩] وإلى « العدالة الاجتماعية في الإسلام » [١٥٠] كخير عدالة في العالم. وانّنا نجد أن بين « الإســلام والتقدم الاجتماعي » [١٥١] تكاملاً، ولن نعودَ نرى بذلك أيةَ مشــكلةٍ فيمــا بــين « الإســلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة » [١٥٢]. بل نجد « الإنسانَ في القرآن الكــريم » [١٥٣] فــي أجلى صورة له، وبين « القرآنِ وقضايا الإنسان » [١٥٤] حلولاً جــذرية. بهذا لن يكــون بين « الإسلام ومكارم الأخلاق » [١٥٥]، أو بين « الإسلام والحضارة الإنسانية » [١٥٦] الاّ دعــوةٌ متبادَلَةٌ إلى الخيرِ والسعادة.

وبعد كل هذا ألا يكون « الإسلام دعوة عالمية » [١٥٧]؟ أو ألا يكون

(١٤٥) مجيد الصيمري، الدار الإسلامية، ١٩٧٩، ١٧٨ ص.
(١٤٦) عنوان آخر للكتاب السابق.
(١٤٧) عمر فروخ، ط ٢، سنة ١٩٧٤، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٢ ص.
(١٤٨) عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ١٧٨ص.
(١٤٩) الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين ١٩٧٤، ١٤٤ ص.
(١٥٠) سيّد قطب، دار احياء الكتب العربية، ط ٥، ١٩٥٨، ٢٨٠ ص.
(١٥١) الدكتور صابر طعيمة، المكتبة العصرية ط ٢، ١٩٧٣، ٣٤٤ ص.
(١٥٢) عشرة من علماء الإسلام، دار الكاتب العربي، ١٤٤ ص.
(١٥٣) الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين ١٩٧٢، ٤٤٨ ص.
(١٥٥) عشرة علماء من الإسلام، دار الكتاب العربي، ١٢٠ ص.
(١٥٦) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٨٨ ص.

« المستقبل للإسلام » [١٥٨] ؟ علما بأنّ الحضارةَ هي « حضارة الإسلام » [١٥٩] ، و « الإسلامُ هو روح المدنية » [١٦٠] . والعالم كله مدين إلى « روح الإسلام » [١٦١] ، وكل ما في العالم لا شأن له إن لم يأخذ من « الفكر الإسلامي المعاصر » [١٦٢] حظَّه وغذاءه . والحقّ يُقال لـولا وجود « الفلسفة القرآنيّة » [١٦٣] أو بالحريّ « فلسفات إسلامية » [١٦٤] لما استطعنا أن نـرى انتصاراً للإسلام عندما تحصل بين « الإسلام وشبهات الاستعمار » [١٦٥] مواجهة ومشادّة، أو عندما يتعرّض « الإسلام والدعوات الهدّامة » [١٦٦] إلى مجابهة وصراع. ويوم يحصل ذلـك الصراعُ بين الإسلام والعلمانيّة مثلا، لا بدّ من « سقوط العلمانيّـة » [١٦٧] لا محالـة. بهـذا يتفاعل « الإسلام وحركة التاريخ » [١٦٨] ليستمرَّ الإسلامُ في القـرن العشـرين » [١٦٩] ، أو ليطلّ « الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر » [١٧٠] ويتعدّاه.

والفضل في وثبة الإسلام هذه نحو المستقبل يعود إلى « الشخصيّة الإسلاميّة » [١٧١] الفذّة، وإلى « أسلوب الدعوة في القرآن » [١٧٢]

(١٥٧) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢١٦ ص.
(١٥٨) محمد فريد وجدي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٢٤ ص.
(١٥٩) صلاح الدين خواد بخش، دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، ١٩٦ ص.
(١٦٠) الشيخ مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت ٢٨٠ ص.
(١٦١) عفيف عبد الفتاح طباره، « روح الدين الإسلامي » دار العلم للملايين ... سيد أمير علي، دار العلم للملايين ط ٤ ، ١٩٧٧ ، ٤٤٨ ص.
(١٦٢) غازي التوبة، دار القلم بيروت، ط ٣ ، ١٩٧٧ ، ٢٢٤ ص
(١٦٣) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٢ ص.
(١٦٤) محمد جواد مغنية، دار التعارف بيروت ١٩٧٨ ، ٩٦٨ ص.
(١٦٥) ألسيد أمير محمد الكاظمي القزويني، التوجيه الإسلامي كويت، ١١٦ ص.
(١٦٦) أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية ٣ ، ١٩٧٤ ، ٢٩٦ ص.
(١٦٧) أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية ٢ ، ١٩٧٣ ، ٢٠٠ ص.
(١٦٨) أنور الجندي، رقم ٥ من الموسوعة العربية الإسلامية، ١٩٨٠ ، ٥٠٦.
(١٦٩) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية بيروت، ١٤٤ ص.
(١٧٠) أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية، رقم ١ ، ٣٤٤ ص.
(١٧١) الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين، ط ٢ ، ١٩٧٧ ...
(١٧٢) محمد حسين فضل الله، دار الزهراء، بيروت ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ١٧٦ ص.

والحظّ الأكبر لانتشار الدعوة إلى « الجهاد الأكبر » [١٧٣] لأن « الجهاد في سبيل الله » [١٧٤] هو «... أعلى مراحل تطوّر الكفاح... » [١٧٥]. بهذا يكون أعظم « دفاع عن الإسلام » [١٧٦].

وهل لك بعد أن تسأل : « كيف انتشر الإسلام » [١٧٧] ؟ أو كيــف « الطريــق إلـــى الإسلام » [١٧٨] ؟ أو متى يكون « الإسلام في فجر عظمته » [١٧٩] ؟ ليس لك، بعد هذا كلّــه، الا أن تعلن وتقول : الــ « إسلام رائد » [١٨٠]، مع السعي الحثيث « نحو إسلام سليم » [١٨١]. وعليك أن تقول، كما قال أرخميدس، لقد وجدتُ « هذا الدين » [١٨٢] وجــدتُ فيــه « الأدلّــة المطمئنّة » [١٨٣] . لقد وجدتُ « التوازن في الإسلام » [١٨٤] ، ووجدتُ « العقلَ والإيمان فـــي الإسلام » [١٨٥] . بهذا أفهم « ماذا يعني انتمائي للإسلام » [١٨٦] .

****

(١٧٣) الامام الخميني، الدار الإسلامية، بيروت، ٨٢ ص.
(١٧٤) أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ٥٦ ص.
(١٧٥) جلال الدين فارسي، بدون دار نشر، ١٩٧٨ ، ص ١٤٧.
(١٧٦) لورا فيشيا فاغلي، دار العلم للملايين، ط ٤ ، ١٩٧٩ ، ١٣٥ ص.
(١٧٧) مؤيد الكيلاني، دار لكاتب العربي، ٢٨٨ ص.
(١٧٨) محمد أسد، دار العلم للملايين، ط ٥ ، ١٩٧٧ ، ٤٠٨ ص.
(١٧٩) موريس لومبار، ترجمة حسين العودات، دمشق ١٩٧٩ ، ٢٨٠ ص.
(١٨٠) عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩ ، ١١٢ ص.
(١٨١) الشيخ أحمد مغنية، المكتبة الأدبية، ١٩٨٠ ، ٢٧٢ ص.
(١٨٢) سيّد قطب، مكتبة وهبه، عبدين، ط ٤ ، بدون تاريخ، ٩٦ ص.
(١٨٣) الشيخ عبد الله مصطفى العريس، مكتبة الحياة ١٩٨٠ ، ١٦٠ ص.
(١٨٤) محمد علي التسخيري، الدار الإسلامية، ١٩٧٩ ، ١٧٠ ص.
(١٨٥) الدكتور صابر طعيمة، دار الجيل، ١٩٧٩ ، ١٩٠ ص.
(١٨٦) فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، ١٨٤ ص.

٩ ـــ هذا الكتاب :

بعدَ هذا الغيضِ من فيض الكتبِ الإسلاميةِ الحديثةِ الرائجةِ في أسواقِ العلم والــدين، والباحثةِ في القرآن الكريم، والمطمئنّةِ إلى تعاليمه ووحيه الإلهــي، والمعبّــرةِ عــن إيمــان المسلمين الطيّبين، والطريفةِ كل الطرافةِ بمواضيعِها وأسلوبِها ويقينِها، والكافلةِ سعادةَ النـــاسِ في الدنيا والآخرة، والمتّفقةِ الأساليب والأهداف فيما بينهما، والمتعلّقةِ بكلام الله الذي اســتمرّ يتساقط على الرسول طيلة ثلاث وعشرين سنة، والمستريحةِ في أحضان جبريل ساعي البريد النبويّ الأمين، والمرتاحةِ إلى عصمةِ كَتَبَةِ الوحي وحفّاظِه المرضيين، والكثيــرةِ الاطمئنـــانِ والارتياح إلى تحطيم الشكّ باليقين، والعظيمةِ التأكيد في كل معتقدٍ وتشريعٍ وتعليم، المزحزحةِ الحيرةِ والقلقِ والريبة عن عقول العالمين ...

بعد هذا كلّهِ لا بدّ من الاستراحة. الاستراحةِ في أحضانِ الإسلام، في الإيمان الذي لا يدخُلُه شكّ، وفي اليقينِ الذي لا يخامِرُه أيّ ظنٍّ، و « انّ الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئًا » (١٨٧)، بل انّ « الظانِّين باللهِ ظنَّ السوء عليهم دائرةُ السوء (١٨٨). هذا اليقينُ هو من كتابِ الله « الحقّ اليقين » (١٨٩)، الذي فيه عصمةُ الله وأنبيائهِ المرسلين، والذي يضمنُ للإنسانِ العلمَ والمعرفةَ والحظَ السعيد، أيُّ حظٍ هو للمسلمِ المؤمنِ الذي أنعمَ اللهُ عليه بعَضلاتٍ بهــا يَــربطُ الأرضَ المائِجَةَ بِعُمُدِ السماء، ويُغَرِّزُ للجبالِ في الأرضِ أوتادًا (١٩٠) وينحتُ في صخورِها بيوتًا (١٩١).

(١٨٧) القرآن : ١٠ / ٣٦ ، ٥٣ / ٢٨.
(١٨٨) ٤٨ / ٦.
(١٨٩) ٥٦ / ٩٥ ، ٦٩ / ٥١.
(١٩٠) ٧٨ / ٢٠.
(١٩١) ٧ / ٧٤ ، ١٥ / ٨٢ ، ١٦ / ٨١.

مرجعنا في هذا اليقين إلى الله، الذي أرسلَ جبريلَ يَسعى بينه وبين النبيّ ينزّلُ عليه القرآنَ من « اللوحِ المحفوظ » [١٩٢] في « الأفقِ الأعلى » [١٩٣]، ويقرأ له، ويعلّمه ايّاه. ولم يتركْ لنا، لا الرسولُ الالهي ولا النبيُّ الرسول، آيةً بغيرِ ترتيب، أو حرفًا بدون عصمة، أو كلمةً تحتاجُ إلى تأويل. ولم يعرفْ جبريلُ راحةً بَعْدُ، بل لم يذقْ طعمَ الراحةِ حتى انتهى من عملهِ الشاقِ في جَمْعِ القرآن وحفظهِ وبيانهِ، وقد طمأننا على لسانِ الله عزّ وجلّ بقولهِ : « إنّا علينا جمعَه، وقرآنَه ... ثم انّ علينا بيانَه » [١٩٤].

ثم أكملَ الملاكُ الرسولُ السعيَ الحثيثَ فيما بينَ الله والنبي : فكما كانَ مسؤولا عن تنزيلِ الوحيِ والقرآن، فسيظلُّ هكذا أيضًا مسؤولاً عن حفظهِ وتدوينهِ وتسليمهِ إلى العَالَمِ بدونِ عِوَجٍ فيهِ أو اختلاف. جاءَ على لسانِ الله سبحانه: « إنَّا نزّلنا الذكَر. وإنّا له لَحَافِظون » [١٩٥]. من أجلِ ذلك لن تجدَ في القرآنِ الاّ الطمأنينَة واليقينَ، ولن تجدَ فيه أيَّ محلٍّ للزيادةِ أو للنقصانِ أو للتلحينِ أو للتصحيفِ أو للتحريفِ أو ما أشبه ذلك.

واستمرَّ جبريلُ في مهمّتهِ. فبعدَ أن طارتْ نفسُ النبي إلى ربِّها مطمئنّةً، ضاعفَ ملاكُ الوحيِ نشاطَه، فحفَظ كَتَبَة القرآنِ. من أميالِ الهوى، وحفظَ سُوَرَهُ وآياتِهِ من التَلَفِ والضياعِ، وحفظَ حفَّاظَه من النسيانِ، وحفظَ وَسَائلَ الكتابةِ من الجلودِ والاكتافِ والعِظامِ والأخشابِ من الحريقِ، وعَصَمَ القلمَ من نَزَقِ أصحابهِ واختلافاتِهم السياسيّة ... وفوقَ كلِ هذا، ما يزالُ جبريلُ إلى اليوم قَيِّمًا على رسالةِ السماءِ ومترصِّدًا لكلِ مَن يُخامِرُه ظَنٌّ أو شَكٌّ في كلامِ الله. انّها معجزةٌ مستمِرّةٌ ألقاهَا اللهُ بين يَدَيهِ وفي عُنُقِهِ.

---

(١٩٢) ٨٥ / ٢٢.
(١٩٣) ٥٣ / ٧ ، انظر : ٨١ / ٢٣.
(١٩٤) ٧٥ / ١٧ ـ ١٩.
(١٩٥) ١٥ / ٩.

١٠ ــ هل لغيرِ اللهِ في القرآن نصيب ؟

القرآن معجزة. وأيّةُ معجزة!؟ في كلِ شيء هو معجزة. ولن نقفَ، في هذا البحث، الاّ عندَ معجزةِ نشأتِه وتدوينهِ وحفظهِ. وما عدا ذلك يدخلُ في نطاقِ معجزاتِ النبوةِ والعقيدةِ، ولا شأنَ لنا بها الآن، لأنَّ كلَ ما في الدنيا من خيرٍ وصلاحٍ وعلم وقوانينَ هو، في القرآنِ والإسلامِ، على أتمِّه. وكلُّ ما في الكونِ من فضيلةٍ لا يصلُ إلى عشْرِ معْشَارِ فضيلةٍ من فضائلِ القرآن.

وفيما نحنُ نرى اللهَ وراءَ القرآن، يستحثُّنا القرآنُ نفسُه لرؤيةِ غيرِ الله. وفيما يدعونا المسلمون إلى سؤالِ اللهِ عن عصمةِ كِتَابهِ، والاكتفاءِ بشَهَادتِه، والاتّكالِ عليه، يدعونا القرآنُ نفسُه إلى سؤالِ أهلِ الذكرِ، والاحتكامِ إليهم، والاستشهادِ بهم. ففي قولِ القرآنِ للمسلمين: « اسألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتم لا تعلمون » [١٩٦] عبرةً خطيرةً للغاية! وأخطرُ منها حثُّ القرآنِ لمحمّد نفسِه إلى سؤالِ أهلِ الكتابِ والالتجاءِ إليهم ليرفعَ عن نفسِه الشكَّ والريبة. يقول له: « إن كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلْنَا إليكَ فاسألِ الذينَ يَقرأون الكتابَ مِن قَبْلِكَ » [١٩٧] .

ويبدو أنّ محمّدًا كان يعرفُ تمامَ المعرفةِ بأنَّ الذينَ يَشهَدونَ على صحّةِ رسالتهِ هم أهلُ الكتاب. وكان يكتفي بشهادتِهم لاقناعِ تابعِيه. يقول : « قلْ : كفى باللهِ شهيدًا بيني وبينَكم ومَنْ عِندَه علمُ الكتاب » [١٩٨] . وأخطرُ من كلِ شيءٍ آخر احتكامُ محمّدٍ إلى أهلِ الإنجيل، لأنّهم يَحْكمون بما لديهم على ما في القرآن : « ولْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أَنزلَ اللهُ فيه » (أي في القرآن) [١٩٩] . فهل لأهلِ الإنجيلِ حقٌّ يستحقونه ؟

---

(١٩٦) ١٦ / ٤٣ ، ٢١ / ٧.
(١٩٧) ١٠ / ١٠.
(١٩٨) ١٣ / ٤٣.
(١٩٩) ٥ / ٤٧.

انّنا إذا كنّا نتجرّأُ على مثلِ هذا السؤالِ فلأنَّ القرآنَ يدعونا إليــه. ولكــنَّ وراءَ هــذا السؤالِ سَيْلاً من الأسئلة، وهي تصدرُ عنه وتتفرّعُ منه. وليستْ دونَه أهمّيّةً وخطورة. مَنْ هم « أهلُ الذكرِ » ، و « أهلُ الكتاب » ، و « أهلُ الإنجيل » ؟ مَنْ هم الذين « يقرأون الكتــابَ مِن قَبْلِ » محمد ؟ وهل للقرآنِ مصدرٌ غيرُ الله ؟ وهل تَمَّ نَقْلُ القرآنِ على يدِ غير يــدِ الله ؟ وهل هذا يَعني أنَّ « حِفْظَ » القرآنِ، و « جَمْعَهُ » ، و « قِرَاءَتَهُ » ، و « بَيَانَهُ » ، وتدوينَهُ، وانتشارَهُ، واستمرارَهُ، تمّتْ على يدِ جبريلٍ بشريٍّ اختلسَ دورَ جبريلَ الإلهي ؟

انّها أسئلةٌ تطالُ حَرَمَ القرآنِ وقدْسَ أقداسِ المسلمين. ولكنْ، قبلَ الدخولِ في مَتَاهَاتِها والغوصِ فيها، لا بدَّ من طرحِ أسئلةٍ أخرى تخطرُ على البال، وهي أيضًا من وحيِ سَــمَاحَةِ القرآنِ وَسَعَةِ صَدْرِه :

أين أنزلَ جبريلُ القرآن ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ وعلى مَنْ أنزلَه ؟ وأينَ كان قبلَ تنزيلِهِ ؟ وأينَ كَتَبَهُ ؟ وعلى أيُّ لوحٍ لؤلؤيٍّ دَوَّنَ كلامَ الله ؟ ولمَنْ أعطى شرفَ حفظِهِ وكتابتِهِ وتدوينِهِ؟ ثم هلِ استطاعَ « النبيُ الأميُّ » الذي يجهلُ القراءةَ والكتابةَ حفظَه كلَّه ؟ هل عُصِمَ مِن آفــةِ النسيان ؟ هل وَجَدَ محمّدٌ لكلِ الآياتِ الأزليّةِ مناسباتٍ في التاريخِ ؟ هل عُصِمَ كَتَبَــةُ الــوحيِ أيضًا من أهوائِهم لِيدوّنُوا بموضوعيّةٍ كلَ آياتِ القرآن ؟ هل نُزِعُوا كلُّهم من أنانيّتِهم وأميالِهم السياسيّة ؟ هل كانوا فيما دَوَّنُوا على اتّفاقٍ وعصمة ؟؟ لئنْ كانَ كذلك ــ وهم بنظرِ المسلمين كذلك ــ فهم، واللهِ ، أكثرُ عصمةً مِنَ الرسولِ نفسِه. وَبتٌّ لا أعرفُ كمْ باركَ اللهُ هذه الأمّــةَ لكي يكونَ فيها أكثرُ من خمسةٍ وأربعينَ رجلاً يتمتّعونَ بالتجرّدِ والصدقِ والأمانةِ والإيمــانِ والتسامي والعصمةِ والشرفِ المجيد[٢٠٠] .

(٢٠٠) انظر في عدد كتبة الوحي : الاستيعاب ١ / ٣٠، وكتاب الوزراء والكتّاب ١٢، والعقد الفريد ٤ / ٢٤٦، وحاشية على الاصابة الخ ...

ثم بعد، هل لِمكّةَ في القرآنِ يَد ؟ أم للمدينةِ يد ؟ وهل كانت اليدانِ على اتّفاق ؟ أم بين مَكةَ والمدينةِ جَرى تزويرُ وتحريفٌ وتصحيف ؟ هل كان أبو بكر الصديق وعمرُ بن الخطّابِ وعثمانُ بن عفّان وعليٌّ بن أبي طالب على اتّفاقٍ وصراطٍ قويمٍ حتى يُجْمِعُوا على وَحْدَةِ كلامِ اللهِ ويَختلفوا في ما عدا ذلك ؟ وهل كانتْ أمّهاتُ المؤمنين، حَفْصَةُ وعَائِشَة وأمُ سلْمة، علـــى شيءٍ من الاتّفاقِ حتى لا يَخْتَلِفْنَ في روايةِ القرآن ؟ هل كانَ القرآنُ واحِدًا، واستمرَّ واحِــدًا، ووَصلَ إلينا واحدًا موحَّدًا ؟ فما دورُ مصاحفِ الصحابةِ اذن ؟ لماذا كانَ لعلـــيٍّ مِصْــحَف ؟ ولابنِ مسعود مصحف ؟ ولأُبَيّ ابن كَعْب مصحف ؟ ولسَالِم مَوْلَى حُذَيْفَة مصحف ؟ ولابـــنِ العبَّاسِ مصحف ؟ ولِزَيْد بن ثابت مصحف ؟ ولعائشة مصحف ؟ ولحَفْصَة مصحف ؟ ولأبِي موسى الأشْعرِي مصحف ؟ .. ولماذا قرّر أبو بكر جَمْعَ المصاحف ؟ ولماذا اختارَ مصـــحف زيدِ بن ثابت ؟ ولماذا جَمَعَ عثمانُ المصاحف ؟ ولماذا اختارَ مِصْحَفَ أبي بكر ؟ ولماذا أحرقَ سائرَ المصاحف ؟ وفيها كلِّها صورةُ المُعَلِّمَ المحبوبِ وكـــلامُ اللهِ الـــذي لا عِـــوَج فيـــه ولا اختلاف، وقد أقسَمَ اللهُ بـــ « إِنَّا لَهُ لَحَافظون » ؟؟؟

وحدَه القرآن بقيَ لنا من عهدِ النبي، وما كَتَبَهُ المُحَدِّثون وأصحابُ السِــيَرِ والأخبـــارِ كَتَبُوهُ بعدَ مضيِ أكثَر من مائةٍ وخمسةٍ وسبعينَ عامًا على موتِ محمّد : فهل يصدقونَ القولَ فيما كتبوا ؟ هل كان لهم مصادرُ ومراجعُ مِن أيّام النبي والصحابة ؟ أينَ هي ؟ لماذا أُتْلِفَتْ ؟ ولماذا لم تَبْقَ ؟ والمعروفُ أَنَّها دُوِّنَتْ ـــ بحسبِ رواياتِ أهلِ الأخبارِ ـــ علـــى ألـــواحٍ مـــن حجارةٍ وأكتافٍ من العظام، وأخشابٍ من النخيل، تَعْصَى على عواملِ الطبيعة! فهل نَقَلَ أهـــلُ الأخبارِ ما نَقَلُوا بصدقٍ وأَمانةٍ وروحٍ علميّةٍ رصينة ؟ من الصعبِ ذلك، بعدَ هذه المـــدّةِ مـــن الزمن! والخلافُ فيما بينهم دليل.

ثم أيضًا، ألم تتركِ الفتوحاتُ العربيةُ أيَّ أَثَرٍ في كلامِ الله ؟ أَلَمْ

يُضَفْ إلى كلامِ القرآنِ كلامٌ بشريٌّ يُناسبُ الوضعَ السياسي المستجَدّ ؟ أَبَقِيَ نصارَى الشامِ والعراقِ، مَثَلاً، مع الفاتحينَ كما كانَ نصارى مكّةَ مع محمّد ؟ أَيُعْقَلُ أن يكونَ نصارى « سورةِ التوبة » هم أنفسُهم نَصَارى « سورةِ المائدة » ؟ أَيُعْقَلُ أن يكونَ رهبانُ « التوبةِ » « يأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطل » (٢٠١) ورهبانُ « المائدةِ » « لا يستكبرون » (٢٠٢) ؟ وقل الشيءَ نفسَه عن أهلِ الكتابِ بالعموم، وعن الصابئةِ والمجوسِ واليهود، وانظرْ ما كانوا عليه أيّامَ محمّد وما أصبَحوا عليه عهدَ الفتوحاتِ والغزوات ...

كلُّها أسئلةٌ تخطُر على البال. وغيرُها سَيُطْرَحُ في محالِ البحث. وسببُ طَرحِها اليومَ هو ذلك الاطمئنانُ المتحكِمُ بعقولِ « القرآنيين » الذينَ احتجزوا اللهَ في هيكلٍ، لا من حجارةٍ هذه المرّة، بل مِن وَرَق. هؤلاء الذين قَعَدُوا عن البحث، واعتصَمُوا بحَبْلِ الله، واستكنّوا في « ظلالِ القرآن » (٢٠٣) ، واستراحوا في « دارِ الإسلام » ، ووجدوا كلَ الحقيقةَ في دَفَّتَي كتابٍ، ورأوا فيهِ كلَ العِلمِ والمعرفةِ، ونظروا فيه الحلولَ لجميع مشاكلِ الإنسانِ وأمراضهِ وعِقَدِهِ النفسيّة ... لهؤلاءِ نقول بكل اخلاص :

هل من شأنِ الدين أن يحلَّ مشاكل ؟ أو أن يتنبَّأَ عن المستقبل ؟ أو أن يحوي في جوفهِ علومَ الأرضِ والسماء ؟ أو أن ينظِّمَ علاقاتِ البشر ؟ أو أن يَسِنَّ شرائعَ وقوانين ؟ أو أن يُعنَى بحقوقِ الإنسان ؟ أو أن ينتمي إلى عضويّةِ الأممِ المتّحدةِ: أو أن يكونَ له على الأرضِ دولة ؟ هل من شأن الدين أن يتحدّى المدنيّةَ المعاصرة، أو أن يكونَ له فلسفاتُ وعقائدُ ونُظُمُ في المالِ والاقتصادِ، وأحكامٌ في ما بينَ الرجلِ وامرأتِهِ ؟ وجهادٌ في سبيلِ فرضِ عقيدتهِ وتعاليمهِ وشرائعِه على الناس ؟ ..

---

(٢٠١) ٩ / ٣٤.
(٢٠٢) ٥ / ٨٢.
(٢٠٣) عنوان لتفسير سيّد قطب على القرآن.

لستُ أخافُ على الله من أن لا يكون « أكبر » ولن أرتعبَ، مثلَ الشيخِ أحمد الوائلي الذي ارتعدتْ فرائِصُه لِمجرّدِ ذكرِ لفظةِ « دعوةِ وقوعِ التحريفِ بالقرآن » . قال الشيخ : اننا في « موضوعِ ــ دعوة وقوع التحريف بالقرآن ــ يجبُ أن نتلمَّسَ طريقَنَا في حَذَرٍ شَــدِيد. وأُقسِمُ، وأنا أكتبُ هذه الكلمات، أنّ قلبي لا يطاوعني على مجرّدِ سَطْرِ هذا العنوان المذكور. وفيما أعتقدُ أنّ ذلك شعورُ كلِ مسلم يؤمنُ باللهِ ورسولهِ وكتابهِ. انّ مجرّدَ افتراضِ وقوعِ هذا المعنى في القرآنِ الكريم يَعتدِي على أغلى صورةٍ قدسيّةٍ في صميمِ وجْدَانِ المسلم » [٢٠٤] ... أمّا أنَا فلن أخافَ ولن أرتعِبَ، ولن يضطربَ قلبي لا على الله ولا على نبيّه ولا على كتابــه. ومع هذا لن أكونَ أقلَّ إيماناً من خيرِ المؤمنين.

ومع هذا أيضًا سأستمرّ في البحثِ عن اللهِ وعن كتابهِ ونبيّهِ. ولن يكونَ بحثي في نشأةِ القرآن أبعدَ من الكلامِ على معجزاتِ حفظهِ وتدوينِه. ولم يوفّر اللهُ لكِتابه كلمــةً الاّ ومَسَــحَهَا بعِصْمَتِهِ، ولم يتركْ لنا مَجَالا لظنٍّ وريبةٍ الاّ وأَحْكَمَهَا بمعجزتهِ. فالوحيُ والتنزيلُ كلاهما عندَ المسلمين معجزة، ووحيُ اللهِ إلى نبيٍّ أمّيٍّ جاهلٍ بالقراءةِ والكتابةِ هو أيضًا معجزة، وحفْــظُ محمّد للقرآنِ على أمّيته هو أيضًا معجزة، وحفظُ الصحابةِ لهذه المعجزة معجزة، وجَمْعُ السُوَرِ والآياتِ من الرقاعِ وصدورِ الرجال معجزة، وبلاغةُ القرآن معجزة، وما في القرآن من علومٍ اكتشف العالَمُ بعضًا منها ويسعى إلى اكتشاف بعضِها الآخر معجزة، واتيانُ القــرآنِ بحلــولِ مشاكلِ المجتمعِ البشري بأحسن ما يمكن أن يكون هو الآخر معجزة ...

فأنت ترى أنّنا مع القرآن في عالم المعجزات، في حين أنّنا مع الإسلام علــى ديــنِ الفطرة، وأنت ترى أيضًا أنّ اللهَ في القرآنِ تَجَسَّدَ، فيما

---

(٢٠٤) « ادّعاء وقوع التحريف في القرآن وموقف الشيعة منه » ، في كتـاب : « القرآن نظرة عصرية جديدة » ، ص ١٣٥.

القرآن يعلن عن الله « ليس كمثله شيء » [٢٠٥] . وأنت ترى المسلمين أخيراً يَحلّــون بآيــاتِ القرآن كلَ العِقَدِ والمشاكل، فيمــا الإنسان غَنيٌّ بالعِقَدِ والمشاكل ولــو كانَ بالقرآن مؤمنــاً. هذا الغِنى أكسبَ الإنسانَ بحثًا وحرّيّة وقلقــاً، في الوقتِ الــذي اكتسبَ المسلمون من القرآنِ « سَكِينَةً » و « طمأنينة » واستراحة. ولكأنّك ترى المسلمين، وهم يقفون عنــد « مصــحفِ عثمان » ، غيرَ جديرين لا بالإسلامِ ولا بالقرآن.

هؤلاء المطمئنّون إلى عالَمِ المعجزاتِ هم في العالَم معجزات. وَمَنْ يُزحزِحُ في العالَم إيمانًا مُعجِزًا دونَ أن يُطَبِّقَ السماءَ بالأرض! حَسْبُ جبريلَ أن يَلزمَ إكمالَ معجزاتِه لِيَهــدِينا الصراطَ المستقيم. ولكنّه يبدو عليه الوهَنَ لكثرةِ ما سَعى! وهل عندَ الله سِــواهُ أكثــرُ سَــعيًا ونَشَاطًا! تبدو لنا أبوابُ السماءِ مُوصَدَة، وليسَ مَنْ يقومُ مُقَامَ رسولِ الوحيِ القــديمِ العــاجز! ومع هذا سَنَظَلُّ نطرقُ الأبوابَ ساجدِين بَاكِينَ مَعَفّرِي الجبين بالترابِ لعلَّ سامِعًا يَسمع! ولكنْ وراءَ الأبوابِ صمتٌ وهدوء. لعلَّ سكّانَ السماء ضُرِبُوا أيضًا بــ « سَكِينَةٍ » و « طمأنينة » واستراحة!

عدتُ إلى الأرضِ من معراجٍ باتَ لحظة، ووَعيتُ جُنوني في عالَمٍ مجنون. التمســتُ من عندِ المطمئنّينَ الطمأنينةَ فلمستُ في نفوسِهم قلقًا أشدَّ من الجنون. ذُهِلْتُ من وضعٍ عجيب، وضعِ عناقِ الجنون للمعجزة، بل وضعِ التزام متناقِضَين في وقتٍ واحدٍ وفــي رأسٍ واحــد : إيمانٌ وكفر، حرّيةٌ واطمئنان، خيرٌ وشيطان، جبريلٌ وقرآن، بَشَرٌ يَمْشون صَــرعَى الجنــونِ والمعجزات ...

أمّا كيفَ يُعانِقُ الجنونُ المعجزات فأمرٌ بات لديَّ مضمونًا : الساكتُ عــن المعجــزةِ مجنون، والمرتاحُ إلى جنونهِ هو في معجزةٍ مستمرّة. وأيُّ إلَهٍ يُعْبَدُ في الحَالَين ؟! وها عَنــذا بينَ فريقَين : فريقٍ مطمئنٍّ إلى ما لديهِ،

---

(٢٠٥) ٤٢ / ١١.

ما استطعتُ لطمأنينتهِ عِلاجًا، وفريقٍ قَلِقٍ مجنونٍ لم أتمكّنْ من دَفــعِ الكبــتِ عنــه. أولئــك ثرثارون ملأوا الدنيا حقائقَ وحلولاً وكتبًا ودراسات، وهؤلاء صـــامِتون مكبوتـــون خـــائِفون عاجِزون درَجوا على القلق فأصبحَ القلقُ عندَهم أمرًا مألوفًا ومعهودا. فكلا الفريقينِ مُزعِج : واحدٌ لكثرةِ كلامهِ، والآخر لكبتهِ وصمتهِ. وعندهما يلتقي الجنونُ بالمعجزة ويتعانقان.

إنّي فيما أقصد واضح : أمامي معجزة أبغي النفاذَ إلى حَرَمِهَا، وبين يديّ كتبٌ تتحدَّى العِلمَ والمدنيّةَ وكلَّ ما في الأرضِ من عِقَدٍ ومشاكل، وترى فيها كلَ الحلولِ وكــلَ المعرفــةِ، وعَلَيَّ واجبُ دفعِ هذا التحدّي، وهذه المواجهةِ الصريحة. في العالَم العربي كُتُــبٌ لــو أردتَ زَرْعَ الصحراءِ جنائنَ وبساتين لَطَالتْ أغصانُ أشجارِها بروجَ السماء. انّها صالحةٌ جدًّا لمثل هذا النموِّ المطلوب. لقد أعطيتُ نموذجًا واضحًا عنها فيما تقدّم.

وعلى الصامتين، حُبّا برقيِّ العالَم، أن يتدخَّلوا، أن يَخرُجوا مِنَ الكبتِ المُشــين. وإنْ بَقَوا في قلقهِم صامتين لشَارَكوا الذينَ هم في راحتِهم مطمئنّون. وهل تسألُني بعدُ لماذا نحنُ في عالَمٍ يَنْدَحِر! آمَلُ من كل هذا أمرًا، وهو : أن يَسْمَحَ الإنسانُ للهِ بالتدخّلِ مرّةً أخرى. فعندَ الله كلامٌ جديد، وكتابٌ جديد، ومعلوماتٌ جديدة. قد يُريدُ، لكثرةِ ووفرةِ رحمتِه، أن يُتحِفَنا بمعجزةٍ أخرى. فَلْيُسْمَحْ له!

لديّ أمل. وأرجو خيرًا. وعلى الذينَ يَخافون على اللهِ أن يَتركوا للهِ شَرَفَ الدفاعِ عن كرامتهِ! بل لِيُحرِّروا اللهَ منهم، هو الذي أعطاهم خيرَ ما عنده، وهي حرّيتهم. وهل يَحُقُّ لهم سلبُ الناسِ حرّيتَهم! هذا الشيء الذي لم يفعلْه اللهُ نفسُه! افتَحوا أبوابَ الكعبةِ، ونَقِّبُوا في رمالِ مكّة، لعلَّ الباحِثِينَ يَجِدونَ مَنِ الذي كانَ « قَبْلَ » النبي! واللهُ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ في كلِ حال.

****

الفَصْلُ الأوَّل

مُعْجزَة الوَحي والتَنزيْل

أَوّلاً ــ استمراريّة الوحي

ثَانيًا ــ معنى الوحي

ثَالثًا ــ طرق الوحي

رَابعًا ــ بدء الوحي

خَامسًا ــ الوحي والإلـهام والنبوّة

سَادسًا ــ بين النبيْ محمد والأنبياء السابقين

مقدّمة الفصل

في إيمانِ المسلمين أنّ اتصالَ الله بالنبي محمّد لم يكنْ وقتَ إنزالِ الوحي عليه وحسب، بل سبَقَ ذلك الاتّصالَ اختيارٌ منذ الأزل. وإنْ لم نجدْ في القرآن دليلاً على هذا الاختيار، فانّ كتبَ السِّيَرِ والحديثِ مليئةٌ بهذا الحدثِ الفريدِ العجيب. ولئنْ لم نهتمّ ببحثِنا هذا بهذا الاختيار فلأنّه لا يدخلُ في نطاق ما نحنُ بصددِه، ولأنّه ليسَ في القرآنِ ما يشير إليه.

ومع هذا لا بدّ من القول بأنّ صفحاتٍ شاسعةً من كتبِ المسلمين اهتمّتْ بتاريخِ محمّد الإلهي إلى جانب اهتمامِها بتاريخِه البشري. وصَعِدَ أهلُ السِيَرِ بسلسلةِ نَسَبِ محمّد حتى انتهَوا بآدَم أبِ البشريّة. ومنهم مَنْ ابتعدَ أكثر فدخَل الجنّةَ ووجَد اسمَ محمّد محفورًا على جذوعِ أشجارها. وكم من الإشاراتِ والتنبؤاتِ ألمحتْ مُسْبَقًا إلى مجيءِ نبيٍ أميٍّ من هذهِ الأمّةِ العربيةِ التي حُرِمَتْ من النبوّةِ في الوقتِ الذي كانتْ أختُها اليهوديةُ تَنْعَمُ بفَيضِ النبوّاتِ والأنبياء.

لقد آن الأوان ليكونَ لهذه الأمّة نبيٌّ، وأيّ نبيّ! إنه خاتَمُ الأنبياء، ودينُه تمامُ الأديان، وشريعتْه كمالُ الشرائع، وكتابُه وحيٌّ من الله وتنزيل، لا اختلاف فيه ولا عِوَج، انه كتابٌ بلسانٍ عربيٍّ مُبين. وكفى هذه الأمّةَ هذا الاختيارُ حتى تكونَ « خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس » [1].

من منّا يجهل تلك الكتب التي أثبتَ اللهُ فيها اختيارَ محمّدٍ منذ الأزل! وأتمنَّى على القارئِ العودةَ إليها بنفسهِ لِتَوَفُّرِهَا في أسواقِ الدين. ولئنْ كانتِ التسليةُ فيها جائزةً فانَّ الاعتمادَ عليها في أمورِ التاريخِ غيرُ جائز. وما أدراكَ بهذه الرواياتُ تُخبِرُ عن محمّد منذُ آدم حتى بعثتهِ، مرورًا بالتنبؤاتِ التي سَبَقَتْ مولِدَه بأجيالٍ، وبالعجائبِ التي حدثتْ عند مولدِه، وبأخبار الكهّان والعرّافين والأحبارِ والرهبانِ التي استبقتْ مجيئَه، وبشهاداتِ الأشجارِ والأحجارِ والحيواناتِ تشيرُ إلى علاماتهِ وصفاتهِ! ..

كلّ هذه لا قيمةَ لها ولا اثبات. وهي وضعتْ لتنشيطِ إيمانِ المسلمين، وللدلالةِ على أزليّةِ اهتمام الله بهذا النبيّ وبأمّتهِ المحظوظة. ونحن إذ ننبّهُ على مقصودِها الظاهر في مجالِ الدفاعِ عن نبوّةِ محمّد والدين الإسلاميّ، نرفضُ هذه الاخبارَ رفضًا قاطعًا، لأنّها، كما يقولُ محمّد دروزة، « يبدو عليهما آثارُ التكلّفِ والتجوّزِ التي تؤدّي إلى عدمِ الاطمئنانِ، ولا سيّما أنَّ فيها تطرّقًا لا يَشفِي غليلاً، ولا طائلَ من ورائهِ إلى السرِّ الذي ظلَّ على الرغم من ذلك كلهِ محجوبًا عن سائر الناس » [٢].

ومع هذا التحفّظ بقي عامّةُ المسلمين يؤمنون بكل هذه الأخبار، واستغلَّ العلماءُ منهم سرعةَ انقيادِهم إليها، فراحوا يكتبونَ لهم فيها، ويَخطُبون عن صحّتِها في المساجدِ ومن عَلى رؤوسِ المآذن ... ومن أجلِ هذا قصدتُ التنبيه. علمًا بأنّها وضعتْ في زمنٍ متأخّرٍ جدّا عن ظهور الإسلام. وهي تشبه إلى حدٍّ بعيد ما كتبَهُ اليهود والنصارى مِن « كتبٍ مزيّفةٍ » في مهمّةِ إثباتِ المعجزاتِ على أنبيائهم وتعاليمِهم.

---

(١) القرآن : ٣ / ١١٠.
(٢) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٢٨.

أَوّلاً ــ استمراريّة الوحي

هو الوحي نفسُه الذي نزل على الأنبياءِ السابقين نزلَ على محمّد. ومحمّدٌ يعتبر نفسَه من جملةِ هؤلاء الأنبياء الذينَ سبقوه في التاريخ. وهذا ليسَ من كتبِ السِيَر والاخبار، بل من القرآنِ ذاته. و « لم يكنِ الوحيُ الذي أيّدهم (أي الأنبياء) بهِ اللهُ مخالِفًا الوحيَ الذي أيّدَ بــه محمّدًا، بل كانت ظاهرةُ الوحيِ متماثلةً عند الجميع، لأن مصدرَها واحد، وغايتَها واحدة »[٣].

وجاء في القرآن : « انّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعدِه، وأوحينــا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبوراً، ورُسُلاً قد قصصناهم عليكَ من قَبْل، ورسُلاً لم نقصصهم عليك. وكلّمَ اللهُ موسى تكليماً » [٤] .

ووحي الله على محمــد كوحيهِ على مَنْ سَبَقَه سواءٌ بسواء. وكان محمــد يَعي ذلك: « كذلك يُوحى إليكَ وإلى الذينَ من قبلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم » [٥] ، وأيضًا : « أوحــى إليــكَ وإلى الذين مِن قبلك » [٦] .

---

(٣) الشيخ صحبي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٢ عن الطبري ٦ / ٢٠.
(٤) القرآن : سورة النساء ٤ / ٦٣ ، ١٦٤.
(٥) القرآن : ٤٢ / ٣.
(٦) القرآن : ٣٩ / ٦٥.

هذا الوحي هو من عند الله ، وليسَ لمحمد أن يبدِّلَ فيه أو أن يعطيهِ من تلقاءِ نفســـه، أو أن ينطقَ به على هواه، أو أن يختارَ اتّبَاعَه بحسب ما يشاء. قال : « قلْ : ما يكون لي أن أبدِّلَه من تلقاءِ نفسي، أنْ أتَّبع الاّ ما يُوحَى إليّ » [٧] ، و « قل : انّما أتبع ما يُوحى إليّ مـــن ربّي » [٨] ، وقال : « ... وما ينطِقُ عن الهوى، إن هو الاّ وحيٌ يُوحَى » [٩] .

وما نزل على محمد من وحي كان « تبيَانًا » لما أُنزِلَ من قَبل. وكان همُّ محمّــد أن يُظهرَ للناسِ كلَ ما أنزِلَ على الأنبياءِ. فهو يأخذُ منهم، ويعتمِدُ عليهم، وينقُلُ عنهم، ويستوحِي أخبارَهم، ويَسردُ قَصَصَهُم، ويتمثّلُ بأمثالهم، ولا يفرِّطُ في كتابهِ بشيء ... وذلك ليبيّنَ للعربِ كلَ ما أُنزِلَ على أهلِ الكتاب. قال : « أَنزلْنَا إليكَ الذكرَ لتبيّنَ للناسِ ما نُــزِّلَ إلـــيهم » [١٠] . وقال أيضًا : « أخذ اللهُ ميثاقَ الذين أوتُوا الكتابَ لتبيّنَه للناس » [١١] ...

وشهدَ على استمراريّةِ الوحيِ هذه كثيرُون ممّنْ يعرفون التوراةَ والإنجيـــل. فمحمّــد يعتبر أهلَ الكتابِ على علمٍ بما في القرآن : « والذينَ آتيناهم الكتابَ يعلمون انّه منَــزلٌ مـــن ربِّكَ بالحقّ » [١٢] . بل هم يفرَحُون بما جاءَ فيه : « الذين آتيناهم الكتابَ يفرحونَ بما أُنـــزِلَ إليك » [١٣] . وجميعُ الناسِ، كتابيينَ كانوا أم أميين، يؤمنون بما أُنزِلَ على محمد وبما أُنـــزِلَ من قبل سواءٌ بسواء : « والراسخون في العلم منهم (من أهل الكتاب) والمؤمنـــون (مـــن العرب) يؤمنون بما أُنزِل إليك (القرآن) وما أُنزِلَ من قبلِكَ (التوراة

---

(٧) سورة يونس ١٠ / ١٠.
(٨) سورة الأعراف ٧ / ٧.
(٩) سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ٤.
(١٠) سورة النحل ١٦ / ٤٤.
(١١) سورة آل عمران ٣ / ١٨٧، انظر : ١٦ / ٨٩.
(١٢) سورة الانعام ٦ / ١١٤، انظر : ٣٤ / ٦.

والإنجيل) » [١٤] . والمسلمون حقّاً هم القائلون : « آمنّا بالله وما أُنزِل إلينا وما أُنزِلَ من قَبل » [١٥] . ويحدّد القرآنُ موقِفَهُ منهم بقوله : « يا أهلَ الكتاب لَسْتُمْ على شيءٍ حتى تُقِيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكم » [١٦] ، « والمؤمنون (كلّهم) يؤمنون بما أُنزِل إليكَ وما أُنزِلَ من قبلِك » [١٧] .

وفي الحقيقةِ ان أهلَ الكتابِ يشهدون على استمراريّةِ الوحي من التوراةِ إلى الإنجيلِ إلى القرآن. ويشهدون على صحةِ الوحي والتنزيلِ على محمّد : « ان كنتَ في شكٍ مما أَنزلْنا إليكَ فاسألِ الذينَ يَقرأون الكتابَ من قبلِك » [١٨] . وإذا كان أَتْبَاعُ محمّد من العربِ والأعرابِ ممّنْ لا يستطيعون فَهْمَ الوحيِ القرآني فما عليهم الاّ أن يَسْأَلوا أهلَ الكتابِ. فهو يوصيهم بذلك: « اسألوا أهلَ الذكر إن كنتمْ لا تعلمون » [١٩] .

وَحْدَةُ الوحي هذه جعلتْ من المؤمنينَ برسالةِ محمّد مع المؤمنينَ برسالةِ موسى وعيسى واحِدًا. فشريعتْهم واحدة : « نشرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً » [٢٠] ، وهي « سنّة مَن قد أرسلْنَا قبلَك من رُسُلِنا » [٢١] ، و « لنْ تجدَ لسنّةِ الله تبديلاً » [٢٢] . فبوحدةِ الشريعةِ لا بدّ أن يتوحّدَ المؤمنون في أمّةٍ واحدةٍ، هي أمّةٌ وَسَط[٢٣] ، مقتصِدَةٌ في عقيدتِها[٢٤] ، بسيطةٌ في شريعتِها بسببِ ضَعَفِ الإنسانِ العربي[٢٥] . وهي دعوةٌ قرآنيّة

---

(١٣) ١٣ / ٣٦.
(١٤) ٤ / ١٦٢.
(١٥) ٥ / ٥٩.
(١٦) ٥ / ٦٨.
(١٧) ٤ / ٢١٢ و ٦٠ ، ٢ / ٤.
(١٨) ١٠ / ٩٤.
(١٩) ١٦ / ٤٣ ، ٢١ / ٧.
(٢٠) ٤٢ / ١٣.
(٢١) ١٧ / ٧٧.
(٢٢) ٣٥ / ٤٣ ، انظر : ٦ / ٣٤ ، ١١٥ ، ٤٨ / ٢٣ ، ١٨ / ٢٧ ، ١٠ / ٦٢ الخ ...
(٢٣) ٢ / ١٤٣.
(٢٤) ٥ / ٦٦.
(٢٥) ٨ / ٦٦ ، ٢ / ١٨٥ ، ٤ / ٢٨ ... وما سواها من آيات كثرة.

ملِحّة في الوَحدَةِ بين المؤمنين : « أَقيموا الدينَ، ولا تتفرّقوا فيه » [٢٦]، و « اعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفَرّقوا » [٢٧]. وهي دعوةٌ استجابَ لها محمّد وأتباعُه : « لا نفرّقُ بين أحَدٍ منهم. ونحنُ له مسلمون » [٢٨]. وقال أيضًا : « لا نفرِّقُ بين أحدٍ من رسله » [٢٩]. ووَصف أتباعَه بـ « الذين آمنوا باللهِ ورسلهِ، لم يفرّقوا بين أحدٍ منهم » [٣٠]، ونَصَحَهُم قائلا : « لا تكونوا من المشرِكين مِن الذينَ فَرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعًا » [٣١]، وأيضًا : « لا تكونوا كالذينَ تفرّقوا واختلَفوا » [٣٢].

وبوحدةِ الوحي والشريعةِ توحَّد المؤمنونَ جميعًا حتى أصبحوا « أمَّةً واحِدةً » [٣٣]، وأعلنوا إيمانَهم بقولهم : « آمَنّا باللهِ، وما أُنزِل إلينا، وما أُنزِلَ من قَبل » [٣٤].

*****

هذا هو الوحي المحمّدي : لا شيء فيه جديد، سوى انّه خفّف عن كاهلِ هذه الأمّةِ العربيّة بعضَ عُسْرِ شريعةِ أهلِ الكتابِ، وذلك بسبب ضَعفِهم[٣٥]. وقصّةُ معراجِ محمّد على السماواتِ شهيرةٌ في سبيلِ الطلبِ من اللهِ التخفيفَ عن أمّتهِ[٣٦].

******

(٢٦) ٤٢ / ١٣.
(٢٧) ٣ / ١٠٣.
(٢٨) ٢ / ١٣٦، ٨٣ ـ ٨٤.
(٢٩) ٢ / ٢٨٥.
(٣٠) ٤ / ١٥٢. وآيات أخرى كثيرة. انظر كتاب « قسّ ونبيّ » لأبي موسى الحريري.
(٣١) ٣٠ / ٣٢.
(٣٢) ٣ / ١٠٥.
(٣٣) ٢٣ / ٥١.
(٣٤) ٥ / ٥٩، ٤ / ١٣٦.
(٣٥) ٨ / ٦٦، ٤ / ٢٨.
(٣٦) انظر قصّة الإسراء والمعراج في تفسير الجلالين، ص ٣٧١.

ثانياً ــ معنى الوحي

وردت لفظةُ « الوحيّ » ومشتقّاتُها في القرآن حوالي ثماني وسبعين مرّة. وليستْ كلّها بمعنى واحد. وقد نستطيعُ حصرَ معانيها بما يلي :

١ً ــ من الوحيِ ما هو بمعنى الإلهام الفطري للإنسان، كقوله : « وأوحينا إلى أمِّ موسى أنِ أرضِعيه » (١) ، وقولهِ: « وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بِي وبرسولي » (٢). وهذا الإلهامُ هو أيضًا بمعنى التوجيه الذي رتّبه الله في نظامٍ محدّدٍ وفقَ طبيعةِ الإنسان.

٢ً ــ ومن الوحيِ أيضًا ما هو بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان، كقولهِ : « وأوحى ربُّك إلى النحلِ أنِ اتَّخِذي مِنَ الجبالِ بيوتًا » (٣) . « وهو يمثّل هدايةَ اللهِ وتوجيهَه للحيوان بما ركَّبَهُ فيهِ من خصائصَ لحفظِ حياته وقيامهِ بوظائفه » (٤) .

٣ً ــ ومن الوحي ما هو بمعنى الإشارةِ السريعةِ التي تكون بالرمزِ والايحاء والرؤيا، كما في قوله عن زكريّا : « فخرج على قومِه من المِحراب، فأوحَى إليهم أن سَبِّحوا بَكْرَةً وعَشِيًّا » (٥) . وقد يكونُ وحيُ

---

(١) سورة القصص ٢٨ / ٧.
(٢) سورة المائدة ٥ / ١١١.
(٣) سورة النحل ١٦ / ٦٨.
(٤) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٤.
(٥) سورة مريم ١٩ / ١١.

زكريا إلى الناس : رمزاً، أو كتابةً، أو اعتباراً، أو إشارةً سريعةً، أو ايماءً ...

٤ً ــ ومن الوحي ما يتعلّقُ بوسواسِ الشيطان وإيحائهِ للإنسانِ الشرَّ والغرور. قال : « وكذلك جَعَلنا لكلِ نبيٍّ عَدُوًا : شياطين الجنِ والإنسِ، يُوحِي بعضُهم إلى بعــضِ زخــرفَ القولِ غروراً » [٦]، وقال أيضًا : « وانَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أَولِيائهم ليُجَادِلوكم » [٧] .

٥ً ــ ومنه أيضًا « ما يُلقيه اللهُ إلى الملائكةِ من أمرهِ ليفعلوه من فَورِهم » [٨] كقولهِ : « إذ يوحي ربُّك إلى الملائكةِ انّي معكم. فثبّتوا الذين آمنوا [٩] . هذا الوحي هو إلهامٌ سريع، لا إشارةَ فيه ولا رموز.

٦ً ــ أمّا الوحي الذي يَحمِلُه النبيُ محمّد إلى الناسِ ليبلّغَهم مضمونَه فهــو كــالوحيِ الذي كلّفَ اللهُ به مَلاَكَه جبريلَ لِيَنْقُلَهُ إلى الأنبياءِ. وبذلك يكونُ ما جاء به جبريلُ محمّدًا مــن وحيٍ هو تنزيلٌ عليه من ربِّ العالمين[١٠] .

هذا المعنى الأخير للوحي يكونُ من الله على رسلهِ وأنبيائهِ، مباشرةً، أو بواسطةِ مَلاكِ الوحي، ويكونُ أيضا برؤيا ليليةٍ أو نهارية، أو يكونُ بظهورِ الملاكِ نفسِه بهيئةِ رجلٍ علــى النبي، أو أيضًا بغَير ذلك، كما سنرى.

******

---

(٦) سورة الانعام ٦ / ١١٢.
(٧) سورة الانعام ٦ / ١٢١.
(٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤.
(٩) سورة الانفال ٨ / ١٢.
(١٠) انظر سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥ ، والنساء ٤ / ١٣٦ ـ ١٦٤.

ثَالثًا ــ طرق الوحي

هناك، بحسب القرآن وكتب السِيَر، عدّةُ طرقٍ أو صُوَرٍ لإبلاغِ الوحي، بها اتّصلَ اللهُ بأنبيائه، كلٍّ بحسب ظروفهِ وأحوالهِ. وأشارتْ إلى بعضِ هذه الطرق ســورةُ الشــورى فــي قولها: « وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ الاّ وحيًا، أو مِن وراء حِجابٍ، أَو يُرْسِلَ رَسُولاً (ملاكاً) فيوحي بأذنِهِ ما يَشاء » [١] .

١ً ــ أوّلُ الطرق إذن : الوحيُ، بمعنى الالهامِ المباشَر، أي إن اللهَ يُلقي كلمتَــه فــي قلبِ رسولهِ وروحِه، وينفثُ المعنى في رَوعِه، كقولِ حديثٍ نبــويٍّ جــاءَ فيــه: « ان روحَ القدسِ (أي الملاك جبريل) نَفَثَ في روعِي أنّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ رزقَها ... » [٢] .

٢ً ــ والطريقة الثانية تقوم في أنْ يُوحي اللهُ إلى نبيّهِ كلامًا يسمعُه من وراءِ حجاب، دون أن يَرى النبيُّ المتكلِّمَ، وذلك كمــا نــادَى اللهُ موسى من وراءِ الشجرة وســمعَ موســى نداءَه [٣] ، وكما حدث لمحمّد وهو في معراجِهِ على الأنبياء[٤] .

٣ً ــ والثالثة أن يكونَ الوحيُ بوساطةِ المَلَكِ جبريل، ملاكِ الوحي الأمــين، الــروحِ القدس، الذي أرسلَه اللهُ إلى محمّد، وإلى غيرهِ من الأنبياء، بصورةِ رجلٍ. ويبدو أن القــرآنَ كلَّه نزلَ بوساطتهِ، كما جاءَ : « نَزَلَ به الروحُ

---

(١) ٤٢ / ٥١.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٠ حاشية (١).
(٣) انظر سورة النساء ٤ / ١٦٤ ، طه ٢٠ / ١١ ـ ١٤.
(٤) سورة النجم ٥٣ / ٨ ـ ١٠ ، سورة الاسراء ١٧ / ١ ...

الأمين على قلبِكَ لتكونَ من المنذرين بلسانٍ عربيٍ مُبين » [٥]، وجاء أيضًا : « قــلْ نزّلــه الروحُ القدسُ من ربّكَ بالحقِّ ليثبّتَ الذينَ آمنوا » [٦].

وأمّا في كتب الحديثِ والسيرةِ النبويةِ فهناك صُوَرٌ أخرى لحدوث الوحي وتنزيلهِ على محمّد. وهي، على غَرَابتِها، تفسِّرُ بعضَ ما جاء في القرآن :

جاء على لسان عائشة قولُها : « أوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ صلعم من الوحي الرؤيــا الصالحة في النوم، فكان لا يَرى رؤيَا الاّ جاءتْ كَفَلَقِ الصبح » [٧]. وحدثَ مثلُ هذه الرؤيــا لابراهيمَ واسمعيل[٨] ، ولكن « لم يثبتْ ثبوتاً قاطِعاً أن شيئًا من القرآنِ نزلَ عن طريقِ الرؤيا المناميّة » [٩].

*****

أمّا كيفيّةُ نزولِ الوحي على النبي فكانتْ بأحوال مختلفة ومتعدّدة : أحيانًا كان يأتيــهِ بعنفٍ وجهدٍ وتعبٍ وثقلٍ وشدّة. وقد عبَّر الرسولُ عن ذلك بقوله : « أحيانًــا يــأتيني مثــل صَلصَلَة الجَرَسِ، وهو أشدّهُ علَيّ، فيفصم عنّي، وقد وعيتُ عنه ما قال » [١٠]، كما عبّــرتْ أيضًا عائشة بقولها : « ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ، فيفصم عنه، وأنّ جبينَه لَيتفصَّد عَرَقًا » [١١]، وكذلك ابنُ عبّاس قالَ : « كان رسولُ الله يُعالِجُ

---

(٥) سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٣ ـ ١٩٥.
(٦) سورة النحل ١٦ / ١٠٢.
(٧) صحيح البخاري ١ / ٣ ، ابن هشام ١ / ٢١٦ ...
(٨) سورة الصافات ٣٧ / ١٠٢ ـ ١٠٥.
(٩) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٧.
(١٠) صحيح البخاري ١ / ٢ ـ ٣.
(١١) نفس المرجع ١ / ٣ ... انظر ما جاء في جميع كتب السير، فهي على وفاق تام فيما بينهما بما يخصّ كيفية نزول الوحي على الرسول.

من التنزيل شِدّة » [١٢] . وعن السيرةِ الحلبية جملةُ أحوال تنقلُها عن مصادرَ عديدة. تقول في وصف حالِ النبي أَنَ يأتيهِ الوحيُ بأنّه كانَ « يغطُّ كغطيطِ البكر المحمَّرةِ عيناه » [١٣] . وعن زيد بن ثابت قوله : « كان إذا نزلَ الوحيُ على رسولِ الله ثقلَ لذلك، ومرّةَ وقع فخذُه على فخذي، فوالله، ما وجدتُ شيئًا أثقلَ من فخذِ رسولِ الله » . ويضيف : « ربّما أُوحِيَ إليه وهو على راحلَتِهِ (ناقته) فترعَدُ حتى يُظَنَّ أنَّ ذراعَها ينقَسِم. وربّما بَركتْ ... فلم تستطعْ أن تحمِلَه، فينزِل عَنها » [١٤] .

وفي رواياتٍ كثيرة أيضًا جاءَ على لسان رسولِ الله قولُه : « ما مِن مرّةٍ يُوحى إليّ الاّ ظننتُ أنَّ نفسي تُقبَضَ منّي » . وعن أسناء بنت عميس : « كان رسول الله، إذا نزل عليه الوحيُ يكاد يُغشى عليه ... ويصيرُ كهيئةِ السَكران » [١٥] . وعن محيي الدين : « كان إذا جاءَه الوحيُ يستَلقي على ظهرهِ » . وسببُ ذلك « لم يبقَ للجسمِ مَن يحفَظُ عليه قِيامَه ولا قُعُودَه فيرجعُ إلى أصلهِ وهو لُصوقُه بالأرض » [١٦] .

وعن أبي هريرة : « كان رسولُ الله، إذا نزل عليه الوحيْ صدَع، فَيُغَلِّفُ رأسَه بالحناء » . وعنه أيضًا : « كان رسولُ الله، إذا نزل عليه الوحي لم يستطعْ أحدٌ منّا يرفعُ طَرْفَهُ إليه حتى يَنقضي الوحي » . وسبب ذلك انّ الرسولَ حين الوحي تستقبله الرعدة، والكرب، فيتربّدُ وجهُه ويغمضُ عينيه، ويُسمَع عند وجههِ كَدَوِيّ النحل، ويضطرب ارتعاشًا، وينوءُ تحتَ

(١٢) صحيح البخاري ١ / ٣.
(١٣) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٧.
(١٤) نفس المرجع، ١ / ٢٥٧.
(١٥) نفس المرجع، ١ / ٢٥٧.
(١٦) نفس المرجع، ١ / ٢٥٧ ـ ٢٦٣.

النوباتِ العصبية والارهاصاتِ العاطفية، ويرزح تحتَ ثقل ملاكِ الوحي. وقد جاء في حديث خديجة عن حال النبي ما يلي :

سألتْ خديجةُ زوجَها قائلة : « أيْ ابنَ عمّ، أتستطيع أنْ تُخبرَني بصاحِبِكَ هذا الذي يأتيكَ إذا جاءَك ؟ قال : نعم. قالت : فإذا جاءَكَ فأخبرني به. فجاءَ جبريل عليهِ السلام، كما كان يَصنع. فقال رسول الله لخديجة : يا خديجة، هذا جبريلُ قد جاءني. قالت : قمْ يا ابنَ عمّ، فاجلس على فَخْذِي اليُسْرَى. فقامَ رسولُ اللهِ فجلسَ عليها. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم. قالت: فتحوّلْ فاجلِسْ على فخذي اليُمْنَى. فتحولَ رسولُ الله فجلسَ على فخذِها اليمنى. فقالت : هل تَراه ؟ قال : نعم. قالت : فتحوّلْ فاجلسْ في حِجْرِي. فتحولَ رسولُ الله فجلَسَ في حجرِها. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ... فَتَحَسَّرتْ (خديجة) وألْقتْ خمارَها ورسولُ اللهِ جالسٌ في حِجرها. ثم قالتْ له : هل تراه ؟ قال : لا. قالت : يا ابنَ عمّ. أثبتْ. وابشِرْ. فواللهِ، انّه لَمَلَك. وما هذا بشيطان » [١٧] .

أمّا عبد الله بن حسن فقد سمع أمَّه فاطمة تحدّثُه عن خديجة، تقول له : « إنّي سمعتُها (أي فاطمة سمعت خديجة) تقول : أدخلْت رسولَ الله بينها وبين درعها. فذهب عند ذلك جبريل. فقالت لرسول الله : ان هذا لَمَلَك. وما هو بشيطان » [١٨] .

هذه الحالاتُ الشديدة التي كان تنتابُ النبي كشفَ القرآنُ عنها في قوله : « انّا سَنُلْقِي عليكَ قَولاً ثَقيلاً » [١٩] . هي حقّا كانت عليه شديدةً حتى أنّه كان يَنوي القاءَ نفسهِ من على رأسِ الجبلِ لمعاناتِه مع رسولِ الوحي ...

(١٧) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٣.
(١٨) نفس المرجع ١ / ٢٢٣.
(١٩) سورة المدثر ٧٤ / ١ ـ ٥ ، سورة المزمّل ٧٣ / ١ ـ ٥.

رَابعاً ــ بدء الوحي

يجمع المسلمون على أنّ أوّلَ ما نزل من القرآن كانَ في غَــارِ حِــرَاء، فــي شــهرِ رمضان، في ليلةِ القَدْرِ المباركة. وأوَّلُ آية نزلتْ كانتْ من سورةِ العَلَق. وبيانُ المسلمين على ذلك لا يستقصيه عِلمٌ لكثرةِ الشهودِ والأحاديث النبويّة المنقولة إلينا بالطريق الصحيح.

١ ــ مكان النزول :

نقل إلينا ابنُ هشام عن ابنِ اسحق عن عبد الملك بنِ عبيد الله بن أبي ســفيان : « إن رسولَ الله، حينَ أراده الله بكرامتهِ، وابتدأه بالنبوّة، كان إذا خرجَ لحاجتهِ أَبْعَدَ حتى تَحَسَّرَ عنه البيوت، ويُفضِي إلى شِعابِ مكّة وبطونِ أوديتِها، فلا يمرُّ رسولُ الله بحَجَرٍ ولا شَجَرٍ، الا قالَ: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله. قال : فيلتفتُ رسولُ اللهِ حولَه وعن يمينهِ وشَمالِه وخَلْفَه فلا يَــرى الاّ الشجرَ والحجارة. فمكثَ رسول اللهِ كذلك يَرى ويسمع، ما شاءَ الله أن يمكثَ. ثــم جــاءَه جبريلُ عليه السلام، فما جاءَه من كرامةِ الله، وهو بِحِرَاء في شهرِ رمضان » [1].

وعن وهب بن كَيسان قال : سمعتُ من ابن الزّبير قال : « كان رسولُ الله يجاوِرُ في حِرَاء من كلِ سنةٍ شهراً ... حتى إذا كانَ الشهرُ

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٧ ، انظر الروح الانف ١ / ٢٦٦ ، صحيح مسلم، وصحيح البخاري، باب : بدء الوحي في الجزء الأوّل ...

شهرَ رمضان من السنةِ التي بعثَه الله فيها » [٢] , وتشهدُ عائشة على ذلك بقولها: « ... وكانَ يخلو بغَارِ حرَاء، فيتحنّثُ, والتحنّثُ هو التبرّر » [٣] ، « والتعبّد الليالي ذوات العدد » [٤] .

٢ ـــ أوّل ما نزل من القرآن :

استمرّ النبيّ يتردد على غار حِراء، طيلةَ خمس عشَرةَ سَنة، برفقةِ القسِ ورقة بن نوفل وعنايتهِ، وكان هناك يتعبّدُ ويصلّي ويرتاضُ ويصوم، إلى أن « جاءَه الحقّ، وهو في غارِ حِراء. فجاءَه المَلَك فقال : اقرأ. قال : ما أنا بقارئ. قال : فأخذَني فَغَطَّني حتى بَلغ منّي الجُهد. ثمّ أرسلني. فقال : اقرأ. قلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد. ثم أرسلني. فقال : اقرأ. فقلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة. ثم أرسلني. فقال: اقرأْ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَق، خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق، اقرأ وربّك الأكرم[٥] .

« فرجع بها رسول الله يرجفُ فؤادُه، فدخَل على خديجة بنتِ خُوَيْلِد، فقال : زمّلوني زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر. لقد خشيتُ على نفسي. فقالتْ خديجة : كلاّ. والله، ما يخزيكَ اللهُ أبداً. انّك لَتَصِلُ الرَحِمَ، وتحمِل الكَلَّ، وتُكسِبَ المعدومَ، وتُقرِي الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقّ.

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٧ ـ ٢١٩ وما بعد ...
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٨ وما يلي، انظر في مجمل كتب السير ...
(٤) صحيح البخاري، ١ / ٣، انظر صحيح مسلم، في بدء الوحي.
(٥) سورة العلق، رقم ٩٦ ، وهي باتّفاق المسلمين أوّل ما نزل من القرآن.

« فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ابن عمِّ خديجة وكان امرأ تنصَّرَ في الجاهليّة، وكان يكتبُ الكتابَ العبرانيّ فيكتبُ من الإنجيلِ بالعبرانية ما شاءَ الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة : يا ابنَ عمّ اسمعْ من ابنِ أخيك فقال له ورقة : يا ابنَ أخي ماذا تَرى ؟ فأخبرَه رسولُ الله خبرَ ما رأى. فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذي نزّلَه اللهُ على موسى، يا ليتَني فيها جذعاً ليتني أكون حَيَّاً إذ أخرجَك قومُك. فقال رَسول الله : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قال : نَعم. لم يأْتِ رجلٌ قطّ بمثلِ ما جئتَ به. ألا عودي. وانْ يُدركْني يومُك أنصُركَ نصرًا مؤزَّرًا. ثمّ يَنْشَبْ وَرَقَة أنْ تَوفِّيَ وفَتَرَ الوحيُ » [٦].

هكذا ابتدأ الوحي، وهكذا كان أوّلُ ما أوحِي به إلى محمّد. ولكنّ موتَ القسّ ورقة لم يكن الاّ بعد ثلاث سنين أو أربع من بدء الرسالة النبوية. والبخاري، الذي نقلنا عنه هذا النص، يتابع في كلامهِ ما أُنزلَ من وحي على النبي بعدَ انقطاعهِ عنه حوالَي ثلاثَ سنين. وبعد ذلك استمرّ الوحيُ ينزل على الرسولِ بحسب الظروفِ والمناسباتِ طيلةَ ما يقاربُ الثلاثَ والعشرينَ سنة.

٣ ـــ كيفيّة التنزيل :

من إيمان المسلمين أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماءِ الدنيا جُمْلةً واحدةً، ولكنَّ محمّداً لم يتلقّاه الاّ مُنَجَّمًا، أي أنّه أُنزلَ على محمّد آيةً آية، أو كلَ خمسِ آيات، أو عشرِ آيات، أو أكثر أو أقل[٧].

(٦) صحيح البخاري، ١ / ٣ ـ ٤.
(٧) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٣.

أمّا الحكمة من تَنْجميهِ فهي مُضاعفة : إنّها حكمةٌ بالنسبة إلى النبيّ، وذلك لكي « يظلَّ الوحيُ متجاوبًا مع الرسول، يعلّمُه كلَ يوم شيئًا جديداً، ويرشدَه ويهـــديه، ويثبّتُــه ويزيــدُه اطمئنانًا » [٨] . وفي ذلك شهادةُ من القرآن نفسه بقوله : « وقال الذين كفروا : لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدة! » ويجيب الله : أنزلناه « كذلك لنثبّتْ به فؤادَك. ورتّلناهُ تــرتيلاً » [٩] . ويقول أيضًا : « وقرآنا فرقناهُ لتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ. ونزّلناه تنزيلاً » [١٠] .

وهي أيضًا حكمةٌ بالنسبة إلى الصَحَابة، حتى يبقَى الوحيُ « متجاوِباً مــع الصــحابةِ يربّيهم ويُصلح عاداتِهم ويجيب عن وقائِعهم، ولا يفاجئُهم بتعاليمهِ وتشريعاتهِ » [١١] . والحكمةُ في ذلك كانت للصحابة « حتى يحفظوه في صدورِهم، ويكتبوه على الرقاع، ويتيسّر لهم العملُ بمضمونه شيئًا فشيئًا » [١٢] . والغاية من ذلك « تربيةُ الأمّة وترويضُها وهدايتُها، وتمكينُها من التطبيق والالتزام بالأحكام وما إليه ... » [١٣].

غير أنّ الخطر في الاسترسال بالقول بالتنجيم يكمن في جعلِ الآيــات مفكّكــةً غيــرَ مرتبطَةٍ بعضها ببعض. وقد لمسَ المسلمون ظاهرةَ التفككِ هذه، فأوجدوا « علم المناسَــبة » الــذي يضعُ لِرَبْطِ السُوَرِ والآيــاتِ قواعدَ وأصولاً[١٤] . وعند الامام فخر الــدين الرازي أنّ « أكثرَ لطائفَ القرآنِ مُودَعَةٌ في الترتيباتِ والروابط » [١٥] .

---

(٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٩.
(٩) سورة الفرقان ٢٥ / ٣٢.
(١٠) سورة الاسراء ١٧ / ١٠٦.
(١١) الشيخ الصالح، المرجع المذكور، ص ٤٩.
(١٢) انظر الدكتور النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٨١.
(١٣) الدكتور داود العطار، موجز علوم القرآن، ص ١٠٩ و ١١٤ ـ ١٢٤.
(١٤) انظر فصلاً في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١ / ٩٦ وما يلي.
(١٥) انظر كتاب تفسير القرآن للإمام الرازي.

٤ ـــ متى نزل القرآن ؟

يحدّد القرآن وقت نزوله في أمكنة ثلاثة منه :

في سورة البقرة قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » [١٦] .

وفي سورة الدخان : « انّا أنزلناه في ليلة مباركة » [١٧] .

وفي سورة القدْر : « انّا أنزلناه في ليلةِ القدْر » [١٨] .

لقد رأينا شهادةَ المحدِّثين بأنّ النبيَ جاءَه الحقّ في رمضان عندما كان يتحنّث ويرتاض في غار حِرَاء. وفي البخاري قوله : « وكان جبريلُ يَلقَاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارِسُه القرآن » [١٩] . وكانت الليلةُ الأولى ليلةَ السابعَ عشَر، المسمّاة بليلةِ القدْر، من السنة ١٣ قبل الهجرة الموافقة لشهر تمّوز سنة ٦١٠ م. وكان عمر النبي إذ ذاك أربعين سنة.

وممّا يرجّح هذا التاريخ ما نجده في مناسبة أخرى من قول القرآن، وهي مناسبة التقاء الجَمْعَين : أي المسلمين والمشركين في معركةِ بَدْر التي حدثتْ في السابع عشر من رمضان السنة الثانية للهجرة. قال : « ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » [٢٠] .

أمّا ليلة القدْر فهي أوّلُ ليلة أنزلَ فيها القرآن. جاء في أهمّيتها : « انّا أنزلناه في ليلة القدرِ، وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ، ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهر، تُنزِّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربّهم من كلِ أمر. سلامٌ حتى مطلع الفجر » [٢١] . ومعنى ذلك أن اللهَ أنزلَ « القرآنَ جملةً واحدةً منَ

---

(١٦) سورة البقرة ٢ / ١٨٥.
(١٧) سورة الدخان ٤٤ / ٣.
(١٨) سورة القدر ٩٧ / ١.
(١٩) صحيح البخاري ١ / ٣ و ٤.
(٢٠) سورة الانفال ٨ / ٤١.
(٢١) سورة القدر ٩٧ / ١ ـ ٥.

اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا » [٢٢] . ويشهد على ذلك ما ورد في سورة النجم بأنّ القرآنَ كان كلُّه منذ الأزل « بالأفقِ الأعلى » [٢٣] ، « عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عندها جَنَّةُ المأوى » [٢٤]. وبعد ذلك أنزله اللهُ مُنَجَّمًا على الرسولِ بحسبِ المناسبات، على ما جاء سابقًا.

الاّ أنّ « اللوحَ المحفوظ » قد لا يكون كتاباً موجوداً في « الأفق الأعلى » ؛ بل قد يكون كتاب موسى، من قول القرآن نفسه : « ومِن قَبلِهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمةً » [٢٥] وقوله : « ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبلِهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمة » [٢٦] . وما يرجّح ذلك هو أنّنا نجدُ في القرآن ما نجدُه في « إمام موسى » : « كلُ شيء أحصيناهُ في إمَامٍ مُبين » [٢٧] . وقد يكونُ كتابُ موسى الموصوفُ بـ « الإمام » هو نفسه « أمُّ الكتاب » [٢٨] ، ويصرّح: « وانّه (أي القرآن) في أمِّ الكتابِ لدينا » [٢٩] .

ولكنّنا نجد في القرآن ما لا نجدُه في كتاب موسى! فما هو مصدرُه ؟ لعلّه « الإنجيلُ العبراني » الذي كانَ بين يدي القس ورقة ينقلُه إلى العربية، ومحمّد يحضرُ نَقْلَهُ طيلةَ أربعٍ وأربعينَ سنة !! ولعلّ أيضًا خبرةَ محمّد خلال حياتِه وجهادِه وأسفارِهِ ومستجدّاتِ الحياة والمجتمع لَها أيضًا في القرآن يَد! وفي كل حال لنا عودة إلى مصادر القرآن فيما بعد ...[٣٠]

---

(٢٢) انظر تفسير الجلالين على ٩٧ / ١، والقرطبي ٢ / ٢٩٧، والزركشي في البرهان ١ / ٢٢٨ ، والاتقان في فصل « كيفية انزاله » ، الجزء الأول ...
(٢٣) سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ١٢.
(٢٤) سورة النجم ٥٣ / ١٣ ـ ١٨.
(٢٥) سورة الاحقاف ٤٦ / ١٢.
(٢٦) سورة هود ١١ / ١٧.
(٢٧) يس ٣٦ / ١٢ ، الحجر ١٥ / ٧٩.
(٢٨) سورة الرعد ١٣ / ٣٩.
(٢٩) سورة الزخرف ٤٣ / ٤.
(٣٠) انظر كتاب « قس ونبيّ » .

خَامساً ــ الوحي والإلهام والنبوّة

لئن كان في اليهودية والنصرانيّة فرق بين الوحي والإلهام والنبوّة، فانّ الإسلام لــن يميّزَ بينها. وسببُ ذلك هو أنَّ الله هو مصدرُ كل ما في القرآن من وحي ونبوّة وإلهام وعلــم وشريعةٍ وحقائق. فنبيُّ المسلمين ليس له في القرآن أيُّ تدخّل، فهو « لا يصوغُه بلفظــه، ولا يلقيه بكلامه » [١] بل هو « لا يملك حتى حقَّ استخدامِ ذاكرتهِ في حفظِ القرآن، بل الله يتكفّــل بتحفيظه ايّاه » [٢] .

ويبدو أيضًا من إيمان المسلمين بأنّ محمدًا كان يتلقَّى الوحي من الله بلفظِ الله وأسلوبهِ ولغتهِ وقراءتهِ وبيــانه، ولا يملك محمّد أيّةَ حريّةٍ شخصيةٍ أو إرادةٍ ذاتية أو علمٍ من عنــده. « انّه الوحيُ ينزل على محمد حين يشاءُ ربُّ محمّد، ويَفْتَرُ إذا شاءَ له ربُ محمد الانقطــاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والاسجاعُ، ولا تُقَدِّمُ عواطفُ محمّد ولا تؤخِّرُ في أمرِ السماء » [٣] .

ويحرصُ محمّد، والله يكلّمه تكليماً، أن يصرّحَ باستمرارٍ بأنّه بشَرٌ كسائرِ البشــر، لا يملكُ من علمِ السماءِ شيئًا، ولا يعرفْ ما في خزائنِ الله، ولا يعلمُ الغيبَ، ولا يــزعمُ لنفسِــه صفِةً ملائكيّة، ولا يمكنهُ أن يدفعَ عن نفسهِ، لا خيرًا ولا شرا، بل يخافُ أن يبدّلَ بما يُــوحى إليه[٤] .

---

(١) الشيخ الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٣.
(٣) نفس المرجع، ص ٣٨.
(٤) القرآن : ٧ / ١١٨ ، ٦ / ٥٠ ، ١٠ / ١٥ ـ ١٦ ...

هذا الوحي كان يفاجئ محمّداً في أيّة ساعة : في النهار كما في الليل، في البرد كما في القيظ، في يقظتهِ كما في منامه، في بيته كما في أسفاره، في ساعات الصلاة والعبادة كما في أحضان خديجة وسائر النساء, في عُروجهِ إلى السماوات كما في حروبِه وغَزَواتِه وجمْعِ المغانم ... انّها مشيئةُ الله لا مشيئة محمّد. وانّه عملُ الله في محمّد. فالله « ذاتٌ متكلِّمَةٌ آمِرَة مُعطِيَة، و (محمد) ذاتٌ مخاطَبَةٌ مأمورةٌ متلقِّيَة » [٥].

ومع هذا التجرّد النبوي عن كل ذاتِه وعن كل إرادتِه، لم يسلَمْ محمّد، رغم التدخّلِ الإلهي في كل شيء، من ألسنةِ المتّهمِين الذين حَسِبوه مجنونًا، فقالوا « معلّم مجنون » [٦]، وردّ اللهُ تهمتَهم بقوله : « ما أنت بنعمةِ ربّك بمجنون » [٧]، وحسبوه شاعرًا، وردَّ الله عنه بقوله : « وما هو بقول شاعر » [٨]، وحسِبوه حالِمًا ومحاكِياً الشياطين[٩]، و « ما هو بقول شيطان رجيم » [١٠]. وآخرون اتّهموه بأنّه يأتي بما في صُحُفِ موسى وابراهيم[١١] وأساطير الأوّلين[١٢]، وكان الله يتكفّل بالردّ العنيف.

*****

فانطلاقا من هذا المفهوم القرآني للوحي يستبعد المسلمون أن يكونَ فيما بين الوحي والإلهام وما يشبهه من تعابير أيّةُ علاقة. فلا الكشفُ

---

(٥) الشيخ الصالح، مباحث ...، ص ٢٧.
(٦) سورة الدخان ٤٤ / ١٤.
(٧) سورة ن والقلم ٦٨ / ١.
(٨) سورة الحاقة ٦٩ / ٤١.
(٩) سورة الأنبياء ٢١ / ٥.
(١٠) سورة التكوير ٨١ / ٢٥.
(١١) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩ ، النجم ٥٣ / ٣٧ ـ ٤٠ ، ٢٥ / ١٣٣ ...
(١٢) ٦ / ٢٥ ، ٨ / ٣١ ، ١٦ / ٢٤ ، ٢٣ / ٨٣ ، ٢٥ / ٥ ، ٢٧ / ٦٨ ، ٤٦ / ١٧ ، ٦٨ / ١٥ ، ٨٣ / ١٣ . وفيها ردّ التهمة.

ولا الحَدْسُ الباطني، ولا الشعور الداخلي، ولا العرفان، ولا الوَجْدُ، ولا الذَوقُ الصوفي، ولا العرفان، أو اللاوعي واللاشعور ... تستطيع أن تسموا بصاحبها إلى درجةِ الوحي والنبوّة.

وبكون الوحي كلّهِ من عندِ الله، فلا بدّ أن يُلِمَّ بكلِ العلومِ والحقائق التاريخيّة والكونيّة، الماضية منها والمستقبلة. لهذا فان القرآن قد « صحَّحَ بعضَ أخطاء وردتْ في الكتبِ السابقةِ تتناولُ عصمةَ الأنبياء، وفنّدَ بعضَ المغالطاتِ التاريخية، وصوَّر محمّدًا شاهِدًا الأحداثَ كلَّها، مراقبًا ايّاها، كأنّه يعيشُ في عصرِها بينَ أصحابِها » [١٣] .

وأمّا أمورُ المستقبل فلا حَصْرَ لها في القرآن، لقد تنبّأ بانتصار الرومِ على الفرس[١٤] ، وتنبّأ بانتصارهِ في معركة بَدْر الكبرى[١٥] ... وتنبّأ عن علومٍ توصّل إليها العلمُ الحديث مؤخَّرًا، كما عن علومٍ سيكتشفها في أجيال البشريّة اللاحقة[١٦] . ولو اطّلعَ البشرُ على جوانبِ القرآن « لأدركوا، مثلَ جميع المنصفِينَ عجزَ الزمان عن إبطالِ شيء منه، ولأيقنوا أنّ علومَ الكونِ ستظلُّ جميعًا في خدمتهِ للكشفِ عن آياتِ الله في الآفاق والأنفس، كما قاله الله : « سَنُرِيهم آياتِنَا في الآفاقِ وفي أنفسِهِم حتى يتبيّنَ لهم الحقُّ » [١٧] .

******

(١٣) الشيخ الصالح، مباحث ...، ص ٤١ وما يليها.
(١٤) سورة الروم ٣٠ / ١ ـ ٣.
(١٥) سورة القمر ٥٤ / ٤٤ ـ ٤٥.
(١٦) انظر كتاب : « القرآن والعلوم الطبيعية » ، « القرآن والعلم » « القرآن والطب » ، « القرآن ومحاولة لفهم عصري » الخ ... ذُكِرَتْ قَبلاً.
(١٧) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٧.

ان المعجزة الكبرى في الوحي المحمدي هو القرآن نفسه، فهو الوحي، وهو النبـوّة، وهو الإسلام، وهو كلامُ الله الذي لا يأتيه الباطل. لهذا تحدَّى محمّد المشركين والكفَّارَ وأهـلَ الكتاب والإنسَ والجنَّ والشعراءَ والعلماءَ والفصحاءَ والبلغاءَ والمقاتلين والمسالمين وأهلَ الحق واليقين وأصحابَ الروح والتصوّف والملائكة والقديسين وكلّ أصناف العالمين ... بأن يـأتوا بمثلِ سورةٍ واحدةٍ من سُوَرِ القرآن لما استطاعوا ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ومعيناً ...

وبكلمة : « القرآنُ هو نفسُ الوحي. وذلك تمامُ إعجازِه » [١٨]. ومـن ذلـك حـديث الرسول في شرف القرآن : « انه ستكون فِتَنٌ كقِطَعِ الليل المظلم. فقلت : ما النجاة منهـا يـا رسولَ الله ؟ قال : كتابُ الله تباركَ وتعالى. فيه نبأُ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بيـنكم. وهو فَصْلٌ ليسَ بالهزل. من تركه تجبّرًا قصَمه اللهُ، ومَن ابتغى الهدى في غيرهِ أضـلَّهُ الله، وهو حَبْلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، والذكرُ الحكيم، والصراطُ المستقيم. هو الذي لا تزيغُ بـه الأهواء، ولا تتشعبُ معه الآراء، ولا يَشبَعُ منه العلماء، ولا يَمَلُّه الأتقياء، مَن علِمَ عِلمَه سَبَق، ومن عَمِلَ به أُجر، ومَن حَكَم به عَدَل، ومن اعتصَم به فقد هُدِي إلى صراطٍ مستقيم » [١٩].

وبذلك لا شيء من كتبِ الأنبياءِ السابقين يضَاهِي القرآن. تلك الكتبُ كتبَهـا الأنبيـاءُ بإلهامٍ ربّاني، وهم يحتفظون بشخصيتِهم وإرادتِهم وأسلوبِهم ولغتِهم وحرّيتِهم، وفي القرآن ليس لمحمّد من ذلك شيء ...

(١٨) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن ...
(١٩) مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفرى، ص ٢٥٦.

سَادساً ــ بين النبيّ محمد والأنبياء السابقين

لقد لاحظنا، من خلال بحثنا، أنّ بين نبوّة محمّد ونبوّة الأنبياء السابقين علاقةً قريبـــةً وتشابهًا ظاهِرًا وتداخلاً صريحا. وذلك واضح في نشدان محمّد « تصديقَ » التوراة والإنجيل، وفي اعتبارِ نفسِه نبيًا من أنبياء العهد القديم. ويقوم هذا التقارب على نقاط عديدة. وكذلك أيضًا بين الوحي القديم والوحي الإسلامي خلاف في جملة أمور، نقف عندها.

١ ــ وجه المشابهة :

اعتبر محمّد نفسه نبياً من أنبياء الله[١] ، وصدّق أقوالهم[٢] ، واستشهد بهــم[٣] ، وعلّــم تعاليمهم[٤] ، واستعمل أسلوبهم[٥] ، وصنع المعجزات مثلهم[٦] . لقد بشّر بكلمة الله كمـــا هــم بشّروا[٧] ، ووضع الشرائع الإلهية والقوانين الاجتماعية كما هم وضـــعوا[٨] ، وقـــام بوجـــه الوثنيين والكفّار كما هم قاموا[٩] . وشدّ مثلهم على وحدانية الله[١٠] ،

(١) القرآن ٢ / ١٣٦ ، ٤ / ١٦٣ ، ٣٣ / ٧ ...
(٢) ٢ / ٤١ ، ٩١ ، ٣ / ٥٠ ، ٥ / ٦٥ و ٤٨ ، ٣٥ / ٣١ ...
(٣) ١٩ / ٥١ ، ٢٨ / ٣ ، ٤٨ ، ٤٨ / ٢٩ ...
(٤) ٥ / ١٢٠ ، ٣ / ٤٨ ...
(٥) ٤٢ / ٥١ ، ١٣ / ١٧ ، ١٤ / ٢٥ ، ٢٤ / ٣٥ ...
(٦) ٣ / ٨٦ ، ٤٠ / ٦٦ ، ٦١ / ٦ ، ٧٢ / ١ ...
(٧) ٧ / ١٥٧.
(٨) ٤٢ / ١٣ ، ٤٥ / ١٨ ...
(٩) ٩ / ٧٣ ، ٦٦ / ٩ ...
(١٠) ٢ / ١٦٣ ، ١٨ / ١١٠ ، ٢٢ / ٣٤ ، ٢١ / ١٠٨ ، ١٦ / ٥١ ...

وأبرز مثلهم اهتمام الله بالبشر وعنايته بهم وحاجتهم إليه[١١] . وأظهر صلة الإنسان بالله كمـــا هم فعلوا[١٢] ، وأبان كمالات الله كما هم أبانوا : فالله عندهم، خالق الإنسان والكون[١٣] ، معتن بالخلق أجمعين[١٤] ، عليم بالإنسان وبمصيره[١٥] ، سميع لتنهدات صدره[١٦] ، بصير بما يعمل في السرّ وفي العلانية[١٧] ، رحوم غفور لخطاياه[١٨] ...

وشأن الوحي، في الأنبياء كما عند محمّد، انّه اعلان الله ذاته بذاته بواسطة أنبيائـــه، لأنّ الله لا يكشف عن مقاصده الخفية الا لعبيده الأنبياء[١٩] ، لأنّه الهٌ محتجِبٌ عـــن بصـــائر البشر، فلا ينالُه انسانٌ مطلَقا، ويفوقُ مدارِكَ كلِ إنسان بما لا يُحدّ[٢٠] . فلولا الـــوحي لبقيـــتْ ذاتُه مستترةً، وأسرارُه خفيّةً، ومعرفتُه مستحيلةً، وصفاتُه غيرَ مدركَة، واسمُه محتجِبًا علـــى الجميع[٢١] . ولولا الوحي لعجزَ الإنسانُ عن تدبير خلاصِه، وتنظيمِ حياته الدنيا، وترتيبِ أمورِ نفسه، لذلك كانتِ الشريعةُ الإلهيةُ نظاماً للبشر وقاعدة لسلوكهم[٢٢] .

ثم انّ النبوّة، في الإسلام كانت أم في اليهودية، هي هبةٌ من الله مجّانيّة، تُعطى لبعض الناس فيتكلّمُ بما يمليه عليه الله، لا بما

---

(١١) ٤ / ٤٠ ، ١٠ / ٦١ ، ٣٤ / ٣ ، ٩٩ / ٧ ...
(١٢) ٢٦ / ١٧ ، ٣٠ / ٥ ، ٤٩ / ١٢ ...
(١٣) ٦ / ١٠١ ، ١٦ / ٣ ، ٤ ، ٥٥ / ٣ ...
(١٤) ٢ / ٢٩ ، ٦٤ / ٣ ، ٨٢ / ٧ ...
(١٥) ٥ / ٩٧ ، ١١ / ٥ ، ٣٩ / ٧ ...
(١٦) ٢٦ / ٢٢٠ ، ١٤ / ٣٩ ، ٣ / ٣٨ ، ٢ / ٧٧ ...
(١٧) ٢ / ٣٣ ، ١٤ / ٣٨ ، ٥ / ٩٩ ، ١٦ / ١٩ ...
(١٨) ٧ / ١٤٩ ، ١٥٥ ، ٣ / ١٢٩ ، ٥ / ٣٤ ، ٢٣ / ١١٨ ...
(١٩) النبي عاموس ٣ / ٦ قابله مع سورة طه ٢٠ / ١٣.
(٢٠) أيّوب ٤٢ / ٣ وأشعيا ٤٥ / ١٥ قابل الانعام ٦ / ١٠٣ و ٧٠ / ٥ ..
(٢١) تثنية الاشتراع ٢٩ / ٢٨ ، دانيال ٢ / ٧ قابل الشورى ٤٢ / ١١ ...

يمليه عليه عقله : جاء في رسالة القديس بطرس : « لم يأت نبوّة قط بـــإرادة بشـــر، ولكـــن الروح القدس حمل بعض الناس على أن يتكلّموا من قبل الله » [٢٣] ، وجـــاء في سورة طـــه: « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » [٢٤] ، وجاء أيضًا في سورة النحل : « قـــل نزّلـــه روح القدس من ربّك » [٢٥] ، وأيضًا في سورة الشعراء: « نزل به الروح الأمين على قلبك » [٢٦].

فمبدأ النبوّة، ومواضيعها، وطرقها متّفقة اذن فيما بين القرآن والنبوّات القديمة. ولهذا جاء كتاب محمّد « مصدقاً لما بين يديه من التوراة » [٢٧] أو هو « تصديق الذي بـــين يديـــه وتفصيل الكتاب » [٢٨] .

٢ ـــ أوجه التباين والخلاف :

انّ ما يجعلُ النبوّةَ في الإسلامِ تختلفُ عمّا هي في اليهودية أكثر ممّا يقـــارب بينهـــا. ونقاطُ التباينِ لأعمقُ من نقاطِ الوفاق. وأهمّ ما يقع عليه التباينُ يكمنُ فيما يلي : فـــي ســـيرةِ الأنبياءِ مع الله، وفي صراعِهم مع ما لا يستطيعون حَمْلَه، وفي ضغط كلمةِ الله علـــيهم وفـــي شعورِهم بثقلِ الرسالة الملقاة على عاتقهم، وفي تردّدِهم المستمرّ في اتّباعِ طـــرق الله حتـــى نهايتها، وفي غير ذلك ... كل هذه لم يتعرّضْ محمّدٌ لِمَتَاعِبِها في سيرتهِ مع الله. فلننظر :

(٢٢) خروج ٢٠ / ١ ـ ١٧ وتثنية الاشتراع ١٢ ـ ١٦ / ١٥ ـ معظم سور القرآن.
(٢٣) ٢ بطرس ١ / ١٩ ـ ٢١
(٢٤) طه ٢٠ / ١٣.
(٢٥) ١٦ / ١٠٢.
(٢٦) ٢٦ / ١٩٣.
(٢٧) ٥ / ٤٦ ، انظر ٢ / ٤٨ ، ٤١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٣ / ٣ و٣٩ و٥٠ ، ٤ / ٤٧ ، ٣٥ / ٣١ ، ٤٦ / ٣٠ ، ٦١ / ٦ ...
(٢٨) ٢ / ١٠١ ، انظر ٢ / ٨٩ ، ٣ / ٨١ ، ٦ / ٩٢ ، ٤٦ / ١٢ ...

* لقد تلقّى النبيّون الوحيَ من عند الله متردّدين، لأنّهم غيرُ جديرين بالقيــام بعــبءِ الوحي الثقيل، ولأنّ عيوبَهم البشريّة كثيرةٌ لا تخوّلهم الامتثالَ أمام الله، ولأنّ الخوفَ يعتريهم عندما يسمعون كلمةَ الله : لقد قال موسى انّه غيرُ جديرٍ بمثلِ هذا العمل : « لستُ أنا صاحبَ كلامٍ منذ أمس ولا أوّل من أمس ... بل أنا ثقيلُ الفم واللسان » [٢٩] . وشعَرَ أشعيا بأنّ عيوبَه أمامَ الرب كثيرةً : « ويلٌ لي انّي هلكتُ لأنّي إنسانٌ نَجِسُ الشفتين، وأنا ساكِنٌ بــين شــعبٍ نَجِسِ الشفتين، لأنّ عينيّ قد رأَتا الملِكَ ربَّ الجنود » [٣٠] . وأحسَّ أرمِيَا بخوفٍ كبيرٍ عنــدما دعــاه الله ، وكان لا يزالُ فتى، فقــال : « آه يا سيّد الــرب، أني لا أعرفُ أن أتكلَّم لأنــي ولد... » [٣١].

* وفوق ذلك، يظهر الوحيُّ وكأنّه محنةٌ ابتلَى اللهُ بها عبيدَه الأنبياء : فهــذا موســى الذي ابتلاه الله بشعبٍ قاسي الرقبة[٣٢] ، وايليّا الذي التمس لنفسِه الموت[٣٣] ، وأرميــا الــذي أمرَه الربّ أن يصنَع « رُبُطًا وأنيارًا ويجعلَها على عُنُقِه » [٣٤] ، ويُعلِنُ موقفَه بقولهِ : « قــد خَدَعْتَني يا ربّ فانخدعتُ، ألححتَ عليّ فَغُلِبْتُ » [٣٥] ، وأشعيا يُثيرُ النزاعَ بينَه وبين الله[٣٦] ، ويكلّمه اللهُ بإلقاءِ يدِه عليه وبإنذارهِ ايّاه[٣٧] ، وحزقيال يرضخُ ليدِ الرب القــديرةِ تدفعُــه إلــى الهربِ والاستنكار[٣٨] وغيرهم ... لكأنّ الوحيَ مصيبةٌ تثقّلُ كاهِلَهم وتجعلُ مــنهم « إنســانَ خصامٍ ونزاعٍ للأرض كلّها » [٣٩] .

---

(٢٩) سفر الخروج ٤ / ١٠.
(٣٠) نبوة أشعيا ٦ / ٥.
(٣١) نبوة ارميا ١ / ٦ ـ ٨.
(٣٢) سفر العدد ١١ / ١١.
(٣٣) سفر الملوك الثالث ١٩ / ٤.
(٣٤) ارميا ٢٧ / ١٨.
(٣٥) ارميا ٢٠ / ٣ ـ ٩.
(٣٦) اشعيا ٦ / ٨.
(٣٧) اشعيا ٨ / ١١.

* وفوق ذلك أيضًا، يدفع الوحي بالأنبياء أحيانًا إلى الاستشهاد والموت في سبيل الله. فلا الهرب، ولا الثورة، ولا الشكوى المريرة، ولا أيّ شيء آخر يستطيع أن ينجّي النبيَ من ضغطِ الله عليهِ. وبقدر ما يرفضُ النبيّ مهمّتَه ووحيَه بقدر ما يستحثُّه الوحيّ للخضوع : فغضبُ الله أجبرَ تعنّتَ موسى لقبولِ الرسالةِ، والعاصفةُ والتنّين أعادَا يونانَ بالقوّةِ إلى النبوّة، وايليا أعِدَّ مرغَمًا لرسالة جديدة، وأرميا بقي أسيرًا لكلمة الله ...

وليس من نبيّ استطاعَ التفلّتَ من يد الله. وقد عبّرَ النبي عاموس باسهابٍ عن هذه الملاحَقَةِ الإلهية، ومثّلَ نفسَه مع اللهِ بقول : « كالأسدِ وفريستِه، والعصفورِ وفخِّهِ، والبوق في الحرب. تكلّمَ الله فمَنْ لا يتنبّأ ؟ » [٤٠] . وشهد التاريخُ النبوي على استشهادِ الأنبياء شهادةَ واقعٍ : لقد أُعدِمَ الأنبياءُ في أيام آخاب[٤١] ، وفي أيّام منسّا[٤٢] ، وفي أيّام يواكيم[٤٣] . ولم يرَ أرميا ذلك أمرًا غريباً[٤٤] ، إذ أصبحَ الموت في سبيل الله أيّامَ نحميا شيئًا عادياً[٤٥] . وقد أشارَ المسيح إلى هذه الحالة النبويّة التعيسة بوضوح، فقال : « أورشليم قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها » [٤٦] .

---

(٣٨) حزقيال ٣ / ١٤.
(٣٩) ارميا ٥ / ١٠.
(٤٠) عاموس ٣ / ٣ ـ ٨.
(٤١) ٣ ملوك ١٨ / ٤ و ١٣ ، ١٩ / ١٠.
(٤٢) ٤ ملوك ٢١ / ١٦.
(٤٣) ارميا ٢٤ / ٢٠ ـ ٢٣.
(٤٤) ارميا ٢ / ٣٠.
(٤٥) نحميا ٩ / ٢٦.
(٤٦) متى ٢٣ / ٢٧.

* يجب أن نقرّ ونعترف : إنّ محمّداً كان مع الله مرتاحاً ومرتاحاً جدّاً. بل كان على « سكينة » واطمئنان تامّين. جـاء في القرآن : « أنزل الله سكينته علـى رسـوله وعلـى المؤمنين » [٤٧] ، و « أنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تَروها » [٤٨] . وليس في القـرآن صلاةٌ واحدة بها يتضرّع النبي إلى الله ليبعد عنه ثقل الرسالة والمهمّة. بل انّه آمِنٌ مـن كـل خوفٍ ورعدة أمام عظمة الله وجبروته. وجلّ من نرى من متاعبَ أنهكتْ قوى النبي كان يأتيه ذلك من الكفّار والمشركين. أمّا مع الله فهو يرى نفسَه أهلاً لذلك، وبمقدوره أن يقـومَ بهـذه الدعوة. وما نراهُ في كتب السيرة والأحاديث شيء لا يعتدّ به ولا يحسب له حساب.

* أمّا التباين الأشدّ عمقاً فهو في موضوع النبوّة. من المعروف أنّ موضوعَ النبـوّة انما يكون من طبيعةٍ دينية، إيمانيّة، خلاصيّة، لا بحث فيه عن المعضلات العلمية، والأمـور التاريخية، ولا معالجة في نظريّات ما ورائيّة أو فلسفيّة أو اجتماعيّة. موضوع النبوّة الأساسي هو إعلان الله عن مقاصده التي فيها يعلن عن عمله الخلاصي. الخلاص، خلاص الإنسان هو موضوع الوحي والنبوّة، وهو مقصود الله، وتدبيره، ومشيئته ... ولن نجد، في القرآن، شـيئاً من ذلك، بل لا ورود، في القرآن، لكلمة « خلاص » ... في حين أنّ موضوعَ نبوّاتِ العهـد القـديم الأساسي هـو الإعلانُ عن مجيء « المخلّص » ، الـذي تحقّقَ، في المسيحية ، بـ « المسيح » . لذلك، فبالنسبة إلى المسيحية، عندما جاء المخلّص، انتهت النبـوّة، أي عنـدما تحقّقت النبوّات في المسيح بطلتْ. وأَحداثُ النبوّات القديمةِ لم تَكنْ لِتدرَك

(٤٧) ٩ / ٢٦ ، ٤٨ / ٢٦.
(٤٨) ٩ / ٤٠ ... انظر المقدمة ص ٢١ ـ ٢٣.

معانيها لولا أحداثْ المسيح وتعاليمُه وأعمالُه التي فسّرتْها وأعطتْها المعاني الحقيقيــةَ لهــا : فالمسيح، بالرؤيةِ المسيحية، أظهرَ كلَ سرّ مكتوم منــذ الأزل[٤٩] ، وأوحــى معنــى الكتــب المحتجب[٥٠] ، وانتهى به الناموس وعَمَلُ الناموس[٥١] ، وانكشفَ به كلُ مستور : « لا شــيء يبقى مستوراً بعــد اليــوم، كلُ شيءٍ يجبُ أن يظهــر، ولا شيء يجــبُ أن يبقــى غيــــرَ معروف »[٥٢] . ولولا المسيح لما انكشف سرّ الله للناس[٥٣] ...

هذه الحقائق النبويّة، في اليهوديّة كما في المسيحية، لا نجد لها مثيلاً في الإسلام، لأنّ موضوعَ النبوّة المحمّدية وغايتَها يختلفان تماماً عن موضوع النبوّة وغايتِها عمّــا هــي فــي المسيحية. ولئن أعلنَ محمّد بأنّه « خاتَم النبيين » [٥٤] ، فلا شيء يشير إلى أنّه مــن طينــتِهم وجبلتِهم ورسالتِهم ومهامّهِم، كما لا شيء يشير إلى أنّه يُتِمُّهُم ويكمّلُهم.

* ومن حيث أساليب النبوّة فهناك أيضًا تباينٌ واضح في الإســلام عمّــا هــي فــي اليهوديّة. لقد أتى الوحيُ الأنبياءَ بطرقٍ شتى وأساليبَ مختلفة[٥٥] ، وذلك بحسب قدرةِ النــاس على فهمها، وبحسب مقاصدِ الله في إعلان الحقائق الموحاة. وأهمّ ما في التوراة من أســاليب الوحي هو كما يلي :

---

(٤٩) انجيل مرقس ٤ / ١١ ...
(٥٠) انجيل متى ١٦ / ٢١ ...
(٥١) انجيل يوحنا ١٩ / ٢٨ ، رسالة غلاطية ٤ / ٤ ..
(٥٢) انجيل مرقس ٤ / ٢٢.
(٥٣) انجيل متى ١١ / ٢٧.
(٥٤) سورة الأحزاب ٣٣ / ٤٠.
(٥٥) الرسالة إلى العبرانيين ١ /٢.

أ ــ الأحلام والرؤى. هي أولى أساليب الوحي التي أوحى بها الله إلى أنبيائه. وقد استعملها الأنبياء بعد أن أخذوها عن الشعوب الشرقيّة القديمة وجرّدوها من بقايا السحر والشرك والتنجيم[٥٦] ، وبعد أن أضافوا إليها بعض القيم الروحية الخاصّة بهم وبالشعب اليهودي. وقد رضي الله ذاته عن هذه الطرق التقليدية البدائية : فالكهنة كانوا يطلبون قضاء أوريم وتومّيم لمعرفة قصد الله[٥٧] ، ويوسف كان يملك قدحا للكهانة[٥٨] ، وهو خبير في تفسير الأحلام[٥٩] ؛ لكأنّ الأحلام هي، عند اليهود، علامات السماء[٦٠] . وبقي هذا حتى جيل متأخّر[٦١] . ولكن عرف بنو إسرائيل فيما بعد كيف يميّزون الأحلام الصادقة التي تأتي من الله[٦٢] من الأحلام الكاذبة التي يقوم بها الكهان المحترفون[٦٣] ، وقد نقضها الأنبياء واعتبروها غير صادقة[٦٤] .

أمّا بالنسبة إلى الإسلام، فلن تكون الأحلام من أساليب النبوّة الصحيحة : لقد اعتبر النبي محمّد الأحلام كوسوسة شيطانيّة يقوم بها الشيطان ليبعد النبي عن مهمّته، لذلك نرى القرآن يقول : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » [٦٥] ، وينسب الأحلام إلى الشعراء : « قالوا : أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر » [٦٦] . أمّا بالنسبة إلى الرؤيا فيختلف الحال. انها صادقة وحقّ : « قد صدقت الرؤيا » [٦٧] أو

---

(٥٦) أحبار ١٩ / ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ١٠ ، ١ ملوك ١٥ / ٢٣ ، ٢٨ / ٣ ..
(٥٧) سفر العدد ٢٧ / ٢١ ، تثنية الاشتراع ٣٣ / ٨.
(٥٨) سفر التكوين ٤٤ / ٢ و ٥.
(٥٩) سفر التكوين ٤٠ / ٤٠ و ٤١.
(٦٠) تكوين ٢٠ / ٣ ، ٢٨ / ١٢ ـ ١٥ ، ٣١ / ١١ ، ٣٧ / ٥ ـ ١٠.
(٦١) قضاة ٧ / ١٣ ، ٢ ملوك ٢٨ / ٦ ، ٣ ملوك ٣ / ٥ ـ ١٤.
(٦٢) عدد ١٢ / ٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ٢.
(٦٣) أحبار ١٩ / ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ٢.
(٦٤) اشعيا ٢٨ / ٧ ـ ١٣ ، ارميا ٢٣ / ٢٥ ، جامعة ٥ / ٢ ، سيراخ ٣٤ / ١ ...
(٦٥) سورة يوسف ١٢ / ٤٤.
(٦٦) سورة الأنبياء ٢١ / ٥.

« لقد صدق الله رسول الرؤيا بالحقّ » [٦٨] . لهذا فهي فتنة للناس لأنهم لا يدركون كنهها: « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » [٦٩].

ب ـــ ثم تخطّى الأنبياء هذه الطرق البدائية في تقبّل الوحي، وأصبحت النبوّة معهم في مرحلتها الثانية تعتمد على الرؤية والسماع[٧٠] . الاّ أنّ الرؤية بقيت لغزاً لا يكشف عن حقيقة النبوّة، لذلك استتر برموز من الأديان الشرقية القديمة وبإشارات غامضة لا يدركها عامّة الناس[٧١] ، ولذلك أيضًا استتر برموز وإشارات ابتكرها الأنبياء ليخفوا عن الناس كيفية رؤيتهم لله وحصول الوحي والنبوّة[٧٢] . ولكن بعض الأحيان يكون سماع ولا تكون رؤية، لأن رؤية وجه الله أخطر من سماع صوته، بل لا يستطيع إنسان أن يرى وجه الله ويبقى حيًّا[٧٣] .

أمّا بالنسبة إلى الإسلام فلم يذكر القرآن أنّ محمداً رأى الله أو سمع صوته. جل ما يذكره أن الله أعطى محمّداً أن يرى آياته فقط[٧٤] ، ولا يحقّ للنبي أو لأي إنسان آخر أن يرى وجه الله بحال من الأحوال[٧٥] ، كما لا يحقّ له أن يسمع صوته. وما يسمعه هو آيات من الله[٧٦] . فليست الرؤية إذن ولا السماع من طرق الوحي في القرآن. هناك فقط الملَك جبريل، ساعي البريد النبوي الأمين، والواسطة التي قامت بالمهمّة.

(٦٧) سورة الصافات ٣٧ / ١٠٥.
(٦٨) سورة الفتح ٤٨ / ٢٧.
(٦٩) سورة الاسراء ١٧ / ٦٠.
(٧٠) سفر العدد ٢٣ / ٣ و ١٥.
(٧١) ١ ملوك ٢٢ / ١٦ ، اشعيا ٦ /١ ، حزقيال ١ / بمجمله.
(٧٢) ارميا ١ / ١١ ، حزقيال ٩ بمجمله، عاموس ٧ / ١ ـ ٩.

ج ــ ثم هناك وحي بطرق أخرى : بإعمال الفكر، وميل القلب، والاعتماد على الفطنة[٧٧] ، والأخذ بالحكمة[٧٨] ، فهي كلّها من جوهر الله ومن طرقه في الوحي[٧٩] ... هذه الأساليب النبويّة، بمعناها الكتابي، لا يوجد منها شيء في الإسلام. ولئن رأينا بعضها في القرآن فذاك يكون تلميحاً، ومن باب التعليم الذي اتّخذه النبي محمّد ليفهم الناس مدى علاقتهم بالله.

* ثم انّ بين نبوّة العهد القديم ونبوّة الإسلام فرقاً آخر، وهو من صميم الحياة النبويّة. ويقوم على أنّ النبي لا يستفيد لنفسه من نبوّته، بقدر ما يفيد الآخرين. النبوّة عطاء وتضحية تتعدّى شخصيّة النبي. قد يجلب النبي على نفسه العذاب والآلام الكثيرة في سبيل الخدمة. وقد تقوم عليه قيامة البشر أجمعين، لأنّه لا يراعي أميالهم وأهواءَهم. انّه « إنسان خصام ونزاع للأرض كلّها » [٨٠] . انّه سائح في الأرض تائه من أمام وجه الله، لا يعرف راحة ولا لذّة ولا هدوء، مضطهَد لا عزاء له فيما بين البشر. يهمّه الخدمة حتى التضحية في سبيل شعب الله [٨١] ...

غير ذلك أمر النبيّ العربي : لقد خاض معارك كثيرة، وجاهد في سبيل « مغانم كثيرة » ، وأسّس حكماً ودولة، واضطهد الناس بالسيف

(٧٣) سفر الخروج ٣٣ / ٢٠ ، انظر : ١٩ / ٢١ ، أحبار ١٦ / ٢ ، عدد ٤ / ٢٠.
(٧٤) القرآن : ١٧ / ١ ، ٢٠ / ٢٣ ، ٥٦ ، ٧٩ / ٢٠ ...
(٧٥) القرآن : ٦ / ٧٦ ـ ٧٨.
(٧٦) القرآن : ٢٠ / ١٨.
(٧٧) سفر الأمثال ٢ / ١ ـ ٥ ، ٨ / ١٢ و ١٤.
(٧٨) سفر الحكمة ٢ / ٦.
(٧٩) سفر الحكمة ٧ : ١٥ ـ ٢١.
(٨٠) نبوة أرميا ٥ / ١٠.
(٨١) انظر : أيوب ٤٠ / ٤ ، اشعيا ٦ / ٨ ، حزقيال ٢ / ٢ ، ارميا ٢ / ٦ ...

والعنف. وهو يَعِدُ أصحابَه بـ « مغانم كثيرة يأخذونها » [٨٢] ، و « عند الله مغانم كثيرة » [٨٣] . و « أغناهم الله ورسوله من فضله » [٨٤] ... لقد كان محمّد، على الناس، حَكَمًا وقائدًا وقاضياً يقسّم الأرزاق والمغانم فيما بينهم، ويستفيد منها « الخمس » [٨٥] . في حين أن المسيح أجاب رجلاً يريد اقتسام الميراث مع أخيه : « يا رجل، من أقامني عليكم قاضياً أو قسّاماً ؟ » [٨٦] .

* وفرق آخر : لقد كان أمنيةُ الشعب اليهودي أن تكون النبوّة مشتركة وعامّة بين كل أفراده. لهذا صلّى موسى وتمنّى على الله : « ليت جميع أمّة الرب أنبياء، يجعل الرب روحه عليهم! » [٨٧] . ورغب إسرائيل أن يكون لله « مملكة أحبار وشعباً مقدّساً » [٨٨] . فلا يعود هناك تمييز في مملكة الله، أو تباين بين أفراد الأمّة اليهودية في علاقتهم بالله.

أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماماً : لن تكون النبوّة في المسلمين الاّ لمحمّد، ولن تعطى النبوّة بعد محمّد لأحد. لقد أُغلِقَ البابُ وأُحكِمَ غَلَقُه، وكان « خاتَم النبيين » [٨٩] . ولن تكونَ كلمة الله على الإنسان واحد بعد محمّد يستحقّ أن يكونَ وسيطاً أو شفيعاً أو قدّيساً غيره لدى الله. فالنبوّة، في الإسلام حَكَرٌ لمحمّد، رغم أن صفاتِ النبوّة تنطبقُ على

---

(٨٢) سورة الفتح ٤٨ / ١٩.
(٨٣) سورة النساء ٤ / ٩٤.
(٨٤) سورة التوبة ٩ / ٧٤.
(٨٥) سورة الأنفال ٨ / ٤١.
(٨٦) انجيل لوقا ١٢ / ١٣ ـ ١٤ ولكن موسى كان قائداً وقاضياً : خروج ٢ / ١٤.
(٨٧) سفر العدد ١١ / ٢٩.
(٨٨) سفر الخروج ١٩ / ٦.
(٨٩) سورة الأحزاب ٣٣ / ٤٠.

كثيرين من الناس المتفوّقين. ولهذا كثير منهم ادّعى، في الإسلام، النبوّة لنفسه : « فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذّاب ... وعبهلة بن كعب ... وطليحة بن خويلد الأسدي ... وسجاح بنت الحارث التميمية ... والنضر بن الحارث ... وابن المقفع الكاتب البليغ ... وابن الراوندي ... وشاعر الإسلام أبو الطيّب المتنبّي ... وأبو العلاء المعرّي ... » [٩٠].

* وأخيرًا، ان النبوّة في اليهوديّة لها قيمةُ ادراكِ المطلَق أكثرُ من كونها استباقَ معرفةِ المستقبل، أو تنظيمَ أحوال المجتمع، أو تأسيسَ دولةٍ إلهيّة على الأرض، أو سنَّ شرائعَ وقوانين، أو إدراكَ وقائعِ العلوم قبل اكتشافها، أو معرفةَ حلولِ عِقَدِ الإنسان ومشاكلِه، أو غيرَ ذلك ممّا نراه في الإسلام. ولئن كان للنبوّاتِ القديمة معنى اكتشافِ المستقبلات قَبْلَ حدوثها، فانّها تطمعُ بذلك من اكتشافِ المطلَق ومعرفتهِ. فالنبوّة كانتْ حَنِيْنًا إلى معرفةِ الله أكثرَ منها حنينٌ إلى معرفةِ الغد. وجوهرُ النبوّة يقوم على ادخال الله في تاريخ البشر، وعلى اعلان مقاصدَ الله الخلاصية، وفي النتيجة على تجسّدِ الله فيما بين البشر ليتمكّنوا من سعادتهم به. وهذه كلها أمور لا شأن لنبوّة محمّد ووحي القرآن فيها.

****

بعد هذا كلّه، يجب أن نعرف جملة أمور هامّة في مفهومِ الإسلام للوحي والنبوّة. هذه الأمور هي من خصائص المسلمين دون سواهم من الناس :

(٩٠) انظر الدكتور مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١٧٢ ـ ١٨٧ حيث يستعرض المتنبئين وسيرتهم وأعمالهم في منافسة القرآن ...

أوّلاً ــ إن الإسلام مؤسّس على القرآن، لا على محمّد. وقد يزول محمّد ويبقى القرآن فيبقى الإسلام ما بقي القرآن.

ثانياً ــ إن القرآن دليلٌ على رسالة محمّد وبرهان وحيد على نبوّته، وليس العكــس. ولو كان العكس صحيحاً لكان الرسول أسمى من الرسالة، ولكان محمّد أعظم مــن القــرآن. والحال إن الرسالة هي الأصل. ولم يكن محمّد الاّ بشيراً ونذيراً ومبلّغاً. قال القرآن : « ومــا على الرسول الاّ البلاغ المبين » (٩١) و « إن لم تفعل فما بلّغت رسالته » (٩٢).

ثالثاً ــ إن القرآن لا يُظهرُ شيئاً عن الرسول : عن سيرتِه وأعماله وأقواله، وإن فعلَ شيئاً من ذلك فبالعَرَض. ولا يُعْقَل أن يكونَ الأمرُ غيرَ ذلك، لأنّ القرآنَ، في معتقدِ المسلمين، كتابٌ أزليٌّ سابقٌ وجودُه على وجودِ محمّد.

رابعاً ــ إنّ العِلمَ في الإسلام هو « عِلمُ القرآن » ، لا « عِلمُ الله » أو ما يسمّى اليوم بـــ « اللاهوت » ، لأن الله، في الإسلام، لا يُدْرَك، ولا يُوْصَف. ولئن نــرى، اليــوم، عنــد المسلمين، بعضَ دراساتٍ عن مواضيعَ الهيّة، فتبــأثيرٍ مــن الآدابِ المســيحية واللاهــوتِ المسيحي. الأصلُ في علوم الإسلام هو « علومُ القرآن » ، إذ القرآنُ هــو « كــلامُ الله » ، وعليه تدور المباحثُ والأبحــاثُ والعلمُ والمعرفةُ والخلاصُ والأدلّــةُ والاطمئنــان ... وان صحَّ لدينــا إنشاءٌ كلمــةِ « كُورَانُولُوجِي » فتكــونَ متنــاسِبةً مــع مــا يُسَمَّى بالمســيحية بــ « الكريستولوجي » ، وليس لــ « علم الإنجيل » من مكان في اهتمام المسيحيين.

خامساً ــ إن الأحداثَ التي ألزمتْ نزولَ الآياتِ زالتْ. ولكنّ

---

(٩١) القرآن : ٢٩ / ١٨ ، ٢٤ / ٥٤ ، ٥ / ٩٢ ...
(٩٢) القرآن، سورة المائدة ٥ / ٦٧ ...

الآيات لا تزول. وكيف يكون ذلك : الأحداث تتغيّر والآياتُ الحاكيةُ عنها لا تتغيّـر!! كيـف يتغيّرُ المجتمعُ والعصرُ والعلم والناسُ، ونظمُ القرآنِ هي هي لكل مجتمعٍ وعصر وعلم!! لئن جازَ للنبي نَسْخُ آياتٍ بآياتٍ طيلةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، أفلنْ تكفي ألفٌ وأربعُمائةٍ وسنتان لِنَسْخِ آياتٍ، وتنزيلِ أخرى من لدن الرب الرحيم!!

ولكن، إذا عرفنا منطقَ القرآنِ والإسلام والمسلمين، نتأكّد أنّ العالَم القرآني يدورُ في زمن دائري، على طريقةِ الميتولوجيّة اليونانيّة، ويوحي من الصحراءِ المترامية الأطـراف، وبإلهامِ السماء اللامتناهية. كل ما في الإسلام على نَحْوٍ سَبَق. لهذا فتطـوّرُ الحيـاةِ وتغيّـرُ الاحداثِ لا قيمةَ لها البتة في نِظرةِ المترامي الأبعادِ واللامتناهي الحدود. فالكلُ فـي القـرآن يدور على نفسِه وعلى مثالٍ سابقٍ محتّم.

سادساً ـــ إنّ القرآن هو كتابُ عقيدةٍ وتشريعٍ ونُظُم حُدِّدَتْ وَثّبِتَتْ مـن لـدنِ العلـيّ العليم، ولا شأنَ فيه للوقائعِ الزمنيةِ المتبدلّة. هو كتابُ دينٍ فيه من الفرائضِ والواجباتِ المنزلَةِ ما لا يستطيعُ الإنسانُ، في ظروفهِ الراهنة، تبديلَ شيءٍ فيها. انه كتابٌ يُشِيدُ بـِ « تَعَالِيَـةِ » اللهِ، وَبُعْدِهِ عن الإنسان، ووحدانيتِه المطلقة، حتى لم يبقَ له بالإنسانِ الضعيفِ أيّةُ علاقة. ومن هنا كانت بعضُ الفِرَقِ التي نشأتْ في الإسلامِ وَنَمَتْ تَرَى نفسَها مضطرَّةً لبعضِ التجسّـداتِ الإلهيةِ، فكانتِ الدرزيةُ تقول بتجسّدِ اللهِ في الحاكِم، والنصيريةُ في عليٍّ، وغيرها ... حتـى المسلمونَ أنفسُهم اضطُرّوا إلى أن يُعطُوا لمحمّد دورًا إلهيًا وصفاتٍ كماليّةٍ حتى كادَ يلامـس التأليه ...

****

خاتمة الفصل

إذا أردنا استقصاءَ معجزاتِ الله مع نبيّه، في هذا الفصل، لعجزنــا عــن حصــرِها وتعدادها؛ بل إنّها فائقةُ الوصفِ والحدّ : فمِن معجزةِ اختيارِ الله لمحمّــد منــذ الأزل، إلــى معجزاتِ استقبالهِ الظافر قَبْل مجيئه، إلى معجزاتِ مولدِه، وطفولتهِ وزواجِه من خديجة، إلــى معجزاتِ جبريل ساعي البريد النبويّ الأمين، الذي استمرَّ على اتّصالٍ دائم مع النبــي طيلــةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، إلى معجزةِ اشتراكِ خديجة بتفسير الرؤى والأحلام وبتأكّدها من الوحي ينزلُ على زوجها، إلى معجزةِ تنقّلِ خديجة فيما بين بَعْلِها وابنِ عمّهــا القــسِّ ورقــة، إلــى معجزاتِ الوحيّ ينصبُّ على النبيّ فتتغيَّرُ الجنُّ والشياطينَ لِهَول ما يسمعون فإذا الواحِدُ منهم يتسمّع ويقول لأخيه : « انّا سَمِعْنَا قرآنا عجبا » (٧٢ / ١) ...

لقد تفتّحت أبوابُ السماء، ونشطتِ الملائكةُ تسعى فيما بــين الله ومكّــة، وجنــدُ الله يحرسون طريقَ جبريل على الصفّين، وهو يحملُ إلى محمّد أعظمَ هديّةٍ مــن الســماء إلــى الأرض، ألاَ وهي كلامُ الله. واستمرَّ جبريلُ محظوظًا بهذه الرسالة، ويتشوّفُ على خَلــق الله أجمعين. ومِن حظِ جبريل العظيم ألاَّ يُسَلِّمَ الهديةَ دفعةً واحدة، لئلا تنتهي مهمّتُه سريعاً، بــل راحَ يقسِّطُ الآياتِ، واحدةً فواحدة، لتطولَ مدّةُ تنقّلِه السعيدِ فيما بين اللهِ والنبيّ، أو لأنَّ جبريلَ استلذَّ دفـء بيتِ النبي، أو أيضًا لأنّه سَئِمَ من البطالةِ التي طالَتْ مدّتُها أكثر من ستّمائة سنة...

وبعد خمسة عشر جيلاً ما الذي حدثَ لجبريل! ألم يعد إلينا نحن المساكين! ألم يسئمْ من تسابيحَ رفاقِه الأطهار! ألا يعودُ ليرى ماذ صار برسالته النبويّة! ألا تلذُّ له العودةُ إلى الأرضِ، وقد أصبحَ كلُ شيء فيها جميلاً، منظَّماً، كاملاً، بتلك الآياتِ التي نزّلَها قديمًا إلينا! أليسَ عنده شيءٌ جديدٌ يريدُ إرسالَه إلينا! ألعلَّ الله لم يَعدْ يَثِقُ به! أو لعلّه خانَ اللهَ وحرّفَ فيما نزّلَه علينا منذ مدّة! لماذا اختفَى صديقُ الأرض القديم! ما معنى هذا الاختفاء السرّيّ، ونحنُ بأمسّ الحاجة إليه!

ألم يرَ جبريلُ في كتابِ الله فسادًا! وانّه يقعُ في أيدٍ غيرِ مطهَّرة، وهو قد حذَّرَنا منذ البدءِ بأن « لا يَمَسُّه الاّ المطهّرون » (٥٦ / ٧٩)! أليس من رسالةٍ جديدة تُزيلُ الفساد، أو تُعطينا من عندِ الله شيئًا جديداً! أم ليس عند الله، بعد القرآن، شيءٌ جديد! هل حصرَ الله كلَ ما عنده بين دفّتي الكتاب المجيد! أم عندَه أشياءُ ضَنَّ بها علينا! هل في القرآنِ كلُ ما يكفينا إلى الأجيالِ القادمة! أم أنَّ عند الله مفاجأةً قرآنيّةَ أخرى، قد تَنزلُ علينا غدًا أو بعدَ غد! ويعودُ جبريل إلى مَسعاهُ القديم في نقلِ الكلامِ والهروبِ من السماء إلى أحضانِ مَنْ في الأرض! علَّ جبريل يحظى بمحمّديّ آخر! فلماذا نوصد بوجهه الأبواب! ونمنع على الله القدير وحياً جديداً يستطيعه!

أقول لكم : لا تيأسوا! سيعود جبريل، ولكن بلا جناحَين، ليمكث بيننا، ويحلّ فينا، ويهتمّ بكل واحد منّا. وهكذا تعمّ رسالتُه، ويرفرف وحيه، فيكون كلُ شعب الله أنبياء، أيُّ حظّ يكونُ لنا إن كان هذا مطلبُنا! ألا فلينعم المؤمنون بحبّ لله جديد. ولتأخذ المعجزة مجراها في عالم المعجزات!

****

الفَصْل الثَاني

مُعْجزة « أمّيّة » محَمّد

أَولاً ــ القلم العربي

ثَانياً ــ القراءة والكتابة في مكة

ثَالثاً ــ وسائل الكتابة

رَابعاً ــ أمّيّة الرسول

مقدّمة الفصل

في إيمان المسلمين أنّ النبيّ محمّدًا كان « أمّيّاً » ، لا يعرف الكتابةَ ولا القراءَة، وانّ مكَّة كانت غارقةً في « جاهليةٍ » متمكّنةٍ بعقولِ أهليها. واستدلّوا على رأيهم في « أمّيّة » محمّد بما جاء في القرآن عن « الرسول النبيّ الأمّي » [١] ، واستدلّوا على « جاهليّةِ مكّة بحديثٍ نبويٍّ جاء فيه : « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكتُبُ ولا نَحْسُبُ » [٢] .

وتمسّك المسلمون مَذْهُولينَ بهذه الحقيقةِ، وذلك قَصْدَ الدلالة على معجزةِ النبوّة، وجدّيّةِ الإسلام. وفي ظنّهم أنّ اختيارَ اللهِ محمّداً « أمّيّا لا يقرأ ولا يكتب يُضيفُ إلى اذعانِ الناس له وإيمانِهم برسالته سببًا » [٣] ، علمًا بأنّ الله كان باستطاعتهِ اختيارَ نبيٍّ عالمٍ مثقّفٍ، إذ « لم يكن اختيارُ محمّدٍ قارئًا وكاتباً شيئًا يَعِزّ على السماء، ولكنّه كانَ شيئًا إنْ تَمَّ يُهوِّنُ من حجّةِ السماءِ في نفوسِ الناس » [٤] .

وبسبب الاعتقاد بـ « أمّيّة » محمّد، أصبحَ كلُ العرب فيما قَبل الإسلام أمّيين جاهليين. ولم يكن الأمرُ كذلك لولا « عاطفة دينية ــ عندهم ــ شدّدوا ــ بها ــ في أمّيّة العرب، فجعلوهم أمّيّين، لإظهارِ معجزة

---

(١) سورة الأعراف ٧ / ١٥٧ و ١٥٨.
(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ ، الصاحبي ٨ / ١١ ، تفسير القرطبي ٢ / ٥ ، لسان العرب ١٢ / ٣٤ (أمم)، تاج العروس ٨ / ١٩١ (أمم) ...
(٣) إبراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٥١.
(٤) نفس المرجع.

للرسول ... في انّه ظهر بالنبوّة في أمّة أمّيّة، وجاء من الله بأحسن بيان، وهي حجّة له على أهل الكتاب والمشركين » (٥) .

انّ « جاهليَّة » مكّة و « أمّيّةَ » محمّد هما أمران مستحكّمان في الدين : فكلّما كانَ في الدين معجزاتٌ وعجائبٌ، كان نموُّ الدينِ وانتشارُه أسرع. ومن جملةِ عجائبِ الله في خَلقِه أَنْ يُنْبِتَ « العِلَم » حيثُ « الأمّيّة » ، وأَنْ يُشيعَّ « المعـرفةَ » حيثُ « الجهلُ » ، وأنْ يُرَسِّخَ « الإيمانَ » حيثُ « الكفر » . وفي الإسلام كان ذلك : لقد قرّر المتديّنون تدخّلَ اللهِ المباشَر لصنع عَجائبَ في الدين. قرّروا « جهلَ مكّة، وكُفْرَ أهلِها، وشِركَهم، وعبادَتهم الأوثان؛ واخترعوا، اكرامًا لـ « فتحِ مكّة » ، ثلاثمائة وخمسة وستين صنماً، حطّمها محمد يوم النصر المبين تحطيماً. وقرّروا « أمّيّةَ » محمّد، اكرامًا لبلاغة القرآن وفصاحتهِ وبيانِه المعجز، وذلك ليقولوا بأنّ اللهَ سبحانه هو صاحبُ الكتاب ومؤلِّفُه وكاتبُه ومُنزِّلُه وضَامِنُه وقارِئُه وحامِيه ...

ونحن نسأل : هل ما قرّره المتديّنون هو الواقع والحقيقة ؟ لننظر فيما إذا كانت مكّة على « الجهل » أم « العلم » ، وفيما إذا كان محمّد على « الأمّيّة » أم بعض الثقافة! ولنبحث في الخطّ العربيّ الذي كتب به القرآن، وفي انتشار الكتابة والقراءة في مكّة، وفي أساليب الكتابة، وفي الأدلّة على معنى « الأمّيّة » المنسوبة إلى النبيّ.

******

(٥) جواد عليّ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨ / ١٤٢ ؛ إلا إنّ صاحب الكتاب لا يعتقد بأميّة محمّد، ولكنه ينقل هنا رأى معظم المسلمين في القديم والحديث. من جملة هؤلاء : الشيخ صبحي الصالح، في كتابه « مباحث علوم القرآن » ، ص ١٨٦، حاشية ٢، والابيارى، في « تاريخ القرآن »، ص ٤٧ ـ ٥٥ ، والزنجاني « تاريخ القرآن » ص ٣٥ ...

أولاً ــ القلم العربي

من « الثابتِ علميًا، وبصورةٍ لا تقبلُ المراء، أنّ الخطَّ العربي الذي كان مستعمَلاً في بيئة النبي وعصرِه، يمتدّ وجودُه إلى عشرات السنين قبل بعثتهِ، كما أنّه متطوِّرَ عن أشكال لخطوطٍ أخرى، كان يستعملِها عربُ الشام واليمن. وكذلك من الثابتِ علمياً أن ذلك الخطَ كان منتشِرًا بمقياسٍ غيرِ ضيّقٍ في بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق، حتى كان يشملُ بَدْوَ هذه البلاد، ولو بمقياسٍ ضيّق. وما جاء في بعضِ الكتبِ العربيةِ عن نشأةِ الخط العربي ووصولهِ إلى الحجازِ وضيقِ انتشارِه فيه ضيقًا شديداً، هو تخليطَ لا يتحمّل نقداً » (١).

ويتبيّن من نصوص جاهلية أن العربَ كانوا يُدَوِّنون، قبلَ الإسلام، بخطِ « المِسْنَد » ، أو بـ « قَلَمِ حِمْيَر » ، الذي جِيءَ به من ناحيةِ اليمن مع القوافلِ التجاريّة التي كانتْ تجـوبُ الجزيرةَ العربيّة، تبتدِئُ باليمن، وتمرُّ بمكة، وتتوزّعُ على بلادِ الشام وفلسطين والعراق والساحل الفينيقي. وكانت مكَّةُ محطَّ رحالِها، وبيتَ استراحتِها، وانتعاشِها لتكمّل اجتيازَها العنيد عبر الصحارى الملتهبة.

وبحركة التجارة هذه دخلَ مكَّةَ « قَلَمٌ » آخر، « أسهلُ وألينُ في الكتابة من القلم المِسنَد، أخذوه من القلمِ النبطي المتأخر، وذلك قبيل الإسلام » (٢).

---

(١) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ، وهو يعتمد على « كيتاني » .
(٢) الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ / ١٥٢ ...

وكذلك أيضًا انتشر القلم الآرمي بواسطة المبشّرين بالنصرانية الذين دخلوا جزيـرةَ العـرب وانتشروا في مختلفِ الأماكن، ونشروا معهم دينَهم ولغتَهم وقلمَهم.

فمن « القلم المسند » ومشتقاتِه، و « القلمِ النبطي » وتفرّعاتِه إلى « القلم الآرمي » ، و « الاسترانجيلي » ، تكوّن « القلمُ العربي » الذي كُتب به القرآن. ويبدو أن قبيلـةَ قـريش تعلّمتِ الكتابةَ من الحيرَةِ والأَنْبَار، حيثُ راجتْ تجارتُها، وعقدتْ مـع قبائِلهـا المعاهـداتِ الأمنيَة[٣] .

* * * * * * * *

ومهما كان الأمر من تفرّعِ الخطوط فانّ آثارًا كثيرةً تدلّنا على وجود الخطِ العربي في مكة والحجاز، في عصورِ ما قبلَ الإسلام. فهناك « أثرُ كتابةٍ عُثِرَ عليهـا مدوّنـةً باللهجـةِ العربيةِ الشمالية القريبة من لَهْجَةِ القرآن، وكتبتْ بالقلمِ النبطي المتـأخّر، وبأسـلوبٍ متـأثّرٍ بالآرمية » [٤] ، ونجدها في أُمِّ الجمال في الحرّةِ الشرقية من جَبَل الدروز، على قبـرِ امـرئِ القَيْس الأوّل ابنِ عمرو ملكِ العرب من سنة ٣٢٨ ميلادية.

ونصٌّ آخر في خرائب زبد بين قنّسرين ونهر الفرات جنوبي شرقي حلـب، كتبـت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تاريخها إلى سنة ٦١٢ للميلاد[٥] .

(٣) انظر : ابن رستة، الاعلاق، ص ١٩٢ ، لسان العرب ١٢ / ٣٤ (أمم)، جواد علي، المفصّل...، ٨ / ١٦٩ ، العقد الفريد ٣ / ٣٠٢ ...
(٤) جواد علي، المفصّل ... ، ٨ / ١٧٦ حيث تجد المراجع والنصّ.
(٥) جواد علي، نفس المرجع ٨ : ١٧٦ ، حيث النصّ والمراجع. انظر بلاشير، في « مدخل إلى القرآن » ، ص ٤ .

ونصّ آخر يسمّى بـ « نقش حرّان » في المنطقة الشمالية من جبل الدروز، فوق باب كنيسة، ويعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨ للميلاد. وهو باللغتين اليونانيّة والعربية[٦].

وهناك نصوص أخرى كثيرة ترى اثباتًا لها في « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » ، الجزء الثامن، ص ١٤٤ ــ ٢٢٠ ، والجزء الأول، ١٠٧ ــ ١٣٩ ، للدكتور جواد علي؛ وكتاب « عصر النبي وبيئته قبل البعثة » ، ص ٦٠ ــ ٧٠ ، ٣٨٨ ــ ٥٢٨ ، لمحمّد دروزة.

و « يُلاحظ ــ الدكتور جواد علي ــ ان الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أُخذ منه قلمُ مكة، هم مِنَ العَرَبِ النَصَارَى في الغالب، فأهل الأَنبار، والحِيرة، وعينِ الشمس، ودَومَةِ الجَنْدَل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى » [٧].

وفي رأي المستشرق « ويل » Weil أن نظرية اشتقاق الخطوط تشير « بكل جلاء إلى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرّع عن الخط الأرامي » [٨].

ولذلك فانّ ما ذكره المؤرّخون من « ان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثة النبوية ... هو قول جزاف لا يثبت على التمحيص والتدبّر » [٩].

---

(٦) جواد علي، المفصّل ... ، ٨ / ١٧٧ ، حيث النصّ والمراجع.
(٧) نفس المرجع، ٨ / ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٨) Weil, Encyclopédie de l'Islam / 68
(٩) محمد عزّة دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ، حيث يتوسّع في ذكر اكتشاف آلاف النقوش في أعالي والحجاز والمنطقة العربية، ويذكر جملة مؤرّخين عرب جهلوا الحقيقة وأضلّوا سواهم ...

والجدير بالذكر « انّ البيئة الحجازية ... وخاصّة مكّة والمدينة، كانت بيئةُ تجاريـــة، متّصلةً بالبلادِ المجاورة التي كانت تتمتّع بحظ غيرِ يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيهـــا جالياتٌ كتابيةٌ نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداولُ الكتب الدينيـــة وغيـــرَ الدينية قراءة وكتابة. فلا يعقلُ أن يظلَّ العربُ أهلُ هذه البيئة غافلين عن اقتباسِ وسيلةٍ مـــن أشدّ الوسائل ضرورة إلى الأشغال التجارية، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منهـــا من البلاد المجاورة الشيء الكثير » (١٠).

ولكن ممّا يؤسف له حقاً « إنّنا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيّام الرسول. ولا نملك أيّ نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدوّنة في أيامه. فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم، ولا نسخة عثمان بن عفّان، ولا النسخ التي دوّنت بأمره لتـــوزّع على الأمصار، ولا أيّة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم، ولا نملك النســـخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل إلى الملـــوك أو ســـادات القبائـــل والأمراء » (١١).

وقد تكون صرخة مدوّيّة، نطلقها، مع بلاشير(١٢)، بدعوة المسلمين والدول الإسلامية الغنيّة، بأن يبذلوا جهدهم في البحث عن آثار النبي وصحابتهِ وكتابه العزيز. لعـــلّ الله يمـــنّ علينا بنسخة من يد الرسول تتبارك بها رمال مكة والصحراء، والمسلمون بعجزهم يبـــاركون الجهل.

****

---

(١٠) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١١) جواد علي، المفصّل ... ، ٨ / ١٨٣.
(١٢) Régis Blachère, Introduction au Coran, 196.

ثانياً ــ القراءة والكتابة في مكة

إن حديثَ « إنَّا أمّةٌ أمّيّةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ » تعارضُه أحاديثٌ نبويّة أخرى مثل « قريشٌ أهلُ الله، وهُم الكَتَبَةُ الحَسَبَةُ » [١] ومثل « حقُ الوالدِ على وَلَدِهِ أن يعلّمَه الكتابةَ والسباحةَ والرماية ... » ، وشبيه به : « حقّ الوالد على ولده أن يحسّن اسمَه، ويزوّجَه إذا أدرك، ويعلّمَه الكتابَ » [٢] .

ومع هذا، لا نقفَ، لإثباتِ القراءةِ والكتابةِ في مكَّة، على مثل هذه الأحاديث المتضاربة، مهما كان انتسابُها إلى النبيّ صحيحاً. فانّ التاريخَ المَوثوقَ والحفرياتِ الأثريةَ والقرآنَ نفسَه هي لدينا خيرُ دليل. فلا الأحاديثُ النبوية ولا رواياتُ الصحابة تُمكنُ أن تضعَنا على خطِ العلم القويم، لأن ما كتَبه أصحابُ الرواياتِ والمُحَدِّثون كان في خدمة الدفاعِ عن الدينِ أكثرَ ممّا كان في خدمةِ العلمِ والحقيقةِ والواقعِ التاريخي.

ففي القرآنِ مَثَلاً آياتٌ كثيرةٌ « تدلُّ دلالةً صريحةً على أنّ القراءَة والكتابةَ كانتا منتشرتَين في الكتابِيينِ بوجهٍ عام ... بمقياسٍ يصحُّ أن يُقال عنه انّه كانَ واسِعا بعضَ الشيء. وأنتَ إذْ تقرأُ ما جاء في الآيات المكّيةِ التي هي في الذين كانوا في مكّة من الكتابيين ... يَحصلُ

---

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨ ، حكمة الإشراق ، ص ٦٧.
(٢) الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢ و ٣٧٤٣ ، حكمة الإشراق، ص ٦٦ وما بعدها، وهي عن أبي هريرة المحدّث الثقة.

عندك ترجيح بأن أكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون » [٣] .

ثمّ انّ القرآن قد « احتوى آياتٍ عديدةً ذُكِرَتْ فيها أدواتُ الكتابةِ والقراءة مِن كتبٍ وقرطاسٍ وورقٍ وصحفٍ وأقلامٍ ومِدادٍ وسجلات[٤] . وننبّه على أن هذه الآيات جميعَها مكّيّةً، ومن تحصيلِ الحاصلِ أن نقولَ أن أهلَ مكةَ الذين كانوا أوّلَ مَنْ سمِعوها كانوا يفهمون مدلولاتِها. ولقد وردتْ كلماتُ الكتابةِ ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرّة ونيّف، وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرّة ونيّف، وبأساليب متنوّعة » [٥] .

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة كغيرها، « تحتوي أسماء ورسائل وأدوات القراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على أنّ العرب في بيئة النبي وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات، واستعملوها، وعلى أن القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيّق. فكثرة الترديد تدلّ على الألفة، وهذه لا تكون إلا حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير » [٦] .

وبالإضافة إلى هذا التنويه بالقراءة والكتابة، نرى القرآن يحضّ التجّار على تدوين المعاملات التجاريّة نقداً وديناً وصغيرة وكبيرة ... ومن الأرجح أن محمّداً لم يوجدها بنفسه، بل كانت موجودة قبله في اللغة العربية. ومن المعروف أن المجتمع المكّي كان مجتمعاً تجارياً هامّاً، يتّصل اتّصالاً حميماً ومستديماً بالبلاد المجاورة كالشام وفلسطين والعراق ودولتي

---

(٣) انظر الآيات : ٦ / ٢٠ و ١١٤ ، ٧ / ١٥٧ ، ١٠ / ٩٤ ، ٢٦ / ١٩٧ ، ١٦ / ٧٦ و ١٠٣ ، ٢٨ / ٥١ - ٥٢ ، ٤٢ / ١٠ ، ٤٦ / ١٠، ٢٥ / ٤ ـ ٥ ...

(٤) انظر : ٦ / ٧ و ٩١ ، ١٧ / ١٣ ـ ١٤ و ٩٣ ، ١٨ / ١٠٩ ، ٢١ / ١٠٤ ، ٣١ / ٢٧ ، ٥٢ / ١ ـ ٣ ، ٦٨ / ١ ـ ٢ ، ٧٤ / ٥٢ ، ٨٧ / ١٨ ، ٩٦ / ١ ـ ٤ ...

(٥) انظر : ١٠ / ٩٤ ، ٢٥ / ٥ ، ٢٦ / ١٩٨ ـ ١٩٩ ، ٢٩ / ٤٨ ، ٣٤ / ٤٤ ...

الفرس والروم. وهذه كانت تنعم بحظ من الثقافة كبير[٧] .

وبالإضافة إلى ذلك أيضًا نرى في القرآن كلمات مستوردة يربو عددها على المئات، وهي مأخوذة عن اليونانية والسريانيّة والعبريّة والحبشيّة والفارسية والنبطية ... وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات وكتبوا فيها المجلّدات الطوال[٨] .

ثم إنّ القرآن احتوى الكثير من الألفاظ والأسماء المعرّبة، ممّا يدلّ على شيوعها واستعمالها عند أهل عصر النبي وبيئته. « هذه الأسماء جاءت في القرآن بصيغةٍ عربية فصحى، أي غير ما هي عليه في لغاتها الأصلية؛ وبعبارة أخرى انّها معرّبة » [٩] .

أضف إلى ذلك أيضًا « إن النبي كان يتّصل بمختلَف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تَفِدُ على مكّة، في المواسم والأسواق، ويتحدّثُ إليهم، ويتلو عليهم آياتِ القرآن، ويتفاهمُ معهم بلغتهِ التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال » [١٠] .

ثم ان الذين آمنوا في بدء الدعوة ، لم يؤمنوا لأجل فصاحة القرآن اللغوية ومعجزتِه البيانية وبلاغتهِ الإعجازية، بقدر ما آمنوا لسببٍ آخرَ من الأسباب. وذلك لأنّ المؤمنين الأوّلين في مكّة آمنوا بالنبي قبل أن ينزل من القرآن شيء يذكر ــ هذا إذا سلّمنا بنظرية التنجيم كالمسلمين!

---

(٦) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٤ ، انظر : ٤٣٦ ـ ٤٤٥ ...

(٧) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 120…; Torrey, The commercial Theological Terms in the Koran ; v. Nöldeke, GdG, II, 24…

(٨) انظر : الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، والسيوطي، الاتقان، فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب، وفي معرفة غريب القرآن، ١ / ١١٣ ـ ١٤١ .

وأيضًا لو كانت لغة القرآن هي سبب إيمان المؤمنين لأجل بلاغتها وفصاحتها فلماذا بقي أكثر المكيين والحجازيين جاحدين! ألعلّهم لم يفهموا مضمونها! أم لأنهم فهموا وأنكروا! والأرجح إنّهم أدركوا وفهموا وإلاّ ما معنى قول القرآن: « لقد بعثنا في كل أمّة رسولاً »[١١] ؟

******

لم يَخْفَ على أئمّةِ المفسرين كونُ لغةِ القرآن هي لغةُ أهلِ الحجاز كلِّهم، بكل ما فيها من بلاغةٍ وفصاحة : قال الطبرسي في مجمع البيان : « انّ الله خاطبَ قوماً عقلاء فصحاء، قد بلغوا الغايةَ القصوى من الفصاحة، وتسنّموا الذروةَ العليا من البلاغة » . وقال الزمخشري في الكشّافِ : « إنّهم كانوا من صحةِ التمييز بين الصحيح والفاسد، والمعرفةِ بدقائق الأمور وغوامضِ الأحوال والإصابةِ في التدبيرِ والدهاءِ والفطنةِ بمنزلِ لا يُدفَعُون عنه » . وقال النيسابوري في تفسير ٢ / ٢٢، القائلة : « فلا تجعلوا للهِ أندادًا وأنتم تعلمون » ، أي وأنتم أهلُ العلمِ والمعرفة بدقائق الأمور وغوامضِ الأحوال. وهكذا كانت العربُ خصوصاً قطانُ الحَرَمِ من قريشٍ وكَنَانَةٍ لا يشقُ غبارهم في الدهاءِ والفطنة » [١٢] .

وفي كتب السير خبرٌ مشهور عن أسرى قريش الفقراء الذين قبض المسلمون عليهم في معركة بَدْر، والذين لم يستطيعوا دفعَ الفدية عن أنفسهم، كُلِّفوا بتعليمِ بعضِ أطفالِ المسلمين القراءةَ والكتابة ...[١٣] . « فإذا كان فقراءُ أهلِ مكة يقرأون ويكتبون فأولى أن يكونَ كذلك أغنياؤُها

(٩) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢ و ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٤٦٥.
(١٠) نفس المرجع، ص ٦١.
(١١) سورة النحل ١٦ / ٣٦ ، انظر سورة يونس ١٠ / ٤٧ ...
(١٢) انظر هذه الأقوال في مراجعها، وفي عصر النبي ٤٣٢.
(١٣) طبقات ابن سعد ٢ / ١ ، وسائر كتب السير ...

وتجّارهـــا ونبهاؤُهـــا، وأن تكونَ القراءةُ والكتابةُ ممـــا هـــو مألوفٌ ومنتشرٌ بنطـــاقٍ غيـــرِ ضيّق » [١٤] .

وعند أهل الأخبار روايات عن جملة أسماء لَمَعُوا فـــي القـــراءة والكتابـــة والشـــعرِ والقَصَصِ والخطابةِ والوَعظِ والأمثال وغير ذلك من أنواع الأدب. وفي كتاب « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » سردٌ واسعٌ عن بعضهم، في الصفحات ١١٢ ــ ١٤٣ من الجزء الثامن. وفي ذلك ما يكفي للدلالة على العلم الكثير والمعارف الواسعة بالقراءة والكتابة في مكّة والحجاز.

******

بقي أن تكونَ آثارُ ما قبل الإسلام دليلاً على ما وَرَدَ في القرآن والأحاديـــث وكتـــب السِيَر. والحقيقة، كما قـــال دروزة : « لقـــد اكتُشِـــفَتْ آلافُ النقـــوشِ الســـبئية والمعينيـــة والحضرموتية والقتبانية والحِميرية في اليمن والثمودية واللحيانية في مناطق العـــلا ومـــدائن صَالح في أعالي الحجاز والصَفَوية في منطقة الصفا في جبل حوران، فضلاً عـــن النقـــوش النبطية والتدمرية المكتشَفة في البَلقاءِ وسيناء وتَدمر، وكثيرٌ منها يعودُ إلى القرون القريبة من عصرِ النبي، بل منها ما هو عائدٌ لهذا العصرِ وبخاصة من النقوش الصفوية. وحروف هـــذه النقوش خاصة مماثلةٌ للحروف العربية » [١٥] .

وفي « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » نموذجات عن آثار جاهليّة كثيـــرة، تشير كلّها إلى اتّساعِ نطاقِ المعرفة في مختلَفِ الأمكنة[١٦] .

---

(١٤) محمّد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١٥) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.
(١٦) انظر : جواد علي، ١ / ٤٢ ـ ٥٣ ، ٨ / ١٧٥ ـ ١٧٩.

من الواضح اذن، استناداً إلى انتشار الخط العربي فيما قبل الإسلام، وإلى كثرة الاثارات الجاهلية وتوزّعها في مختلف مناطق الحجاز والجزيرة العربية، وإلى شموليّة الكتابة والقراءة في مجتمع مكّة التجاري، وإلى نصوصِ القرآن التي تقرّر، بمفرداتها ومصطلحاتها وتراكيبها واستعاراتها وتشابيهها، إنّ اللغةَ العربيّةَ كانتْ مألوفةً ومفهومةً ومستَعمَلةً في بيئةِ النبيِ وعصرهِ بنطاقٍ واسع.

كل هذا الذي رأينا يقرّر بوضوح معرفةَ المكين الواسعة بالقراءة والكتابة، فيما المَذْهُولُونَ بجدّيّة النبوّةِ والدين يَرونَ مكّةَ على جهلٍ وغباوة، تغرقُ في « جاهليّة » دكناء. لهذا نقول، مع جواد علي : « لا نتمكّنُ من الاطمئنانِ إلى هذه الأخبار والروايات المدوّنة في الموارد الإسلاميّة عن الجاهلية » [١٧].

وعدمُ الاطمئنانِ إليهم أمرٌ يدعو إلى التساؤلِ عن الأسباب : هل يقصدُ المسلمون طمسَ أخبارِ الجاهليّة ؟ هل يريدون القولَ بأنّ الإسلامَ كان أوّل مَنْ دعا إلى العلمِ والمعرفةِ والكتابةِ والحسابةِ والقراءةِ والتدوينِ والتدريس!؟ هل يقصدون إظهارَ جدّيّةِ الإسلامِ فقالوا بجاهليّةِ ما قبله، كمنّ يُظهِرُ الضوءَ في ليلٍ بهيم ؟

في الحقيقةِ يُخشَى أن يكونَ في الإسلامِ رغبةٌ في استئصالِ كلِ ما يمتُّ إلى أيّامِ الجاهليّة بصلة. ويُخشى أن يكونَ الحديثُ القائلُ : بأنّ « الإسلامَ يهدمُ ما قبله » [١٨] حديثًا ثابتًا مُسنَدًا إلى النبي!؟ وهو على ما يبدو صحيحُ الإسنادِ لثبوتهِ عند « مُسْلِم » أحدِ المحدِّثين الثقاة !!!

(١٧) المفصّل ... ، ١ / ٧٣.
(١٨) صحيح مسلم ١ / ٧٧ ـ ٧٨.

ثَالثاً ــ وسائل الكتابة

من مسلّمات المسلمين أنّ النبيّ اتّخذوا كُتّــاباً للوحي، وأمرَهم بكتــابةِ كلِ ما ينــزلُ من القرآن على « الرِقَاعِ » [١] « واللِخَافِ » و « العُسُبِ » و « الأَكْتَافِ » و « الأَقْتَــابِ » و « قِطَع الأدِيم » [٢] . وقد جاء على لسان زَيْد بن ثَابت أشهرِ مَنْ كَتَبَ للنبي قولهُ : « كنّــا عند رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم نؤلّف القرآن من الرِقاع » [٣] .

قد تكون هذه الوسائل البدائيّة صحيحة، لندرةِ الورَق والشجَر في الجزيــرة العربيــة، ولبهاظَةِ ثَمَنِهِ في حال استيراده من البلاد المجاورة. ولكن، إذا كانتِ الكتابةُ والقراءةُ مألوفــةً في مكة والحجاز، كما رأينا، فلا بدّ أن تكونَ وسائلُ الكتابةِ هي الأخــرى مألوفــةً وســهلةَ الاستعمال. وخيرُ ما يرجّحِ هذا القولَ ما وَرَدَ في القرآنِ من إشاراتٍ إلى هذه الوسائل.

* يذكر القرآن أكثرَ من مرّة كلمةَ « قرطاس » و « قراطيس » ، ممّا يدلّ على أنّها كانت معروفةً ومألوفةً كوسيلةٍ للكتابة والتدوين. جاء في القرآن : « ولو نزّلنا عليك كتابًا في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم ... » [٤] ، و « قل من

---

(١) الرقاع، جمع رقعة، قد تكون من جلد أو ورق أو كاغد ...

(٢) اللخاف، لخفة وهي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة، والعسب، جمع عسيب وهو جريد النخل. والأكتاف، أي عظام أكتاف الجمال وغيرها من الحيوان. الاقتاب، جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركّب عليه. وقطع الأديم، أي الجلد. ...

أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا... » [٥]
هذان النصّان يلهمان « ان الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلّفة من قراطيس هو الشيء المألوف الذي لم يكن لِيُتَصَوَّرَ غيره » [٦].

وفي لسان العرب أن « القرطاسَ معروفٌ، يُتَّخذ من برديّ يكون بمصر ... وهو الصحيفة الثابتة التي يُكتب فيها » [٧]. وقد ورد ذكره على لسان كثير من شعراء ما قبل الإسلام وبالمعنى نفسه.

* ويحتوى القرآن على كلمة « الصُحُف » أكثرَ من مرّة (٨ مرّات) في معرض الإشارة إلى القرآن والكتبِ السماوية. جاء فيه : « في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة » [٨]، « انّ هذا لفي الصحف الأولى صُحُفِ ابراهيم وموسى[٩] ، « بل يريد كل امرئٍ منهم ان يُؤتَى صحفًا منشرة » [١٠] ... الخ.

« لم يذكر أحد أن كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائيّة، وانّما كانت تطلق على ما كان معروفاً من وسائل الكتابة التي تُحْمَلُ بسهولة، وتُطوَى بسهولة، ويُجْمَعُ بعضها إلى بعض بسهولة. ولعلّ في آية المدّثر قرينةً على أنّ الصحفَ كانت تُنْشَرُ وتُطوى، وهو ما لا يمكنُ أن يَتّصفَ به الا وسائلُ الكتابةِ الليِنةِ كالقماشِ وورقِ القماشِ وورقِ الحرير والرقوقِ الناعمةِ

(٣) انظر : الاتقان ١ / ٩٩ ، البرهان ١ / ٢٣٧. ومن المعاصرين من يأخذ بنظرية هذه الوسائل البدائية : صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٦٩ ، الزنجاني، تاريخ القرآن، ص ٤٤ ـ ٤٩ ، الابياري، تاريخ القرآن، ص ٨٦ ، شحاته، تاريخ القرآن والتفسير، ص ٢٥ و ٣٦ ، الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣٤ ـ ٣٧ وغيرهم الكثير ...
(٤) سورة الانعام ٦ / ٧.
(٥) سورة الانعام ٦ / ٩١.
(٦) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٧.
(٧) لسان العرب، ٦ / ١٧٢ (مادة : قرطاس).

المُسَوَّاة الخ » [١١] .

* وفي قولِ القرآن : « يومَ نَطوِي السماءَ كطَيِّ السِجِلِّ للكتبِ » [١٢] « دليل على أنّ طَيَّ الورَق، أو ما كان يقومُ مقامَه من وسائلِ الكتابة الليّنةِ ليكون سِجلاً للكتابة والتدوينِ كان مألوفًا شائعًا. وهــذا لن يكونَ الاّ حيثُ تكونُ الكتب والقراطيسُ والوســائل الكتابيــة اللينــة الأخرى ... » [١٣] .

* وحين يتكلّم القرآن على « القَلَم » [١٤] وعلى الله « الذي علّم بــالقلم » [١٥] والــذي يُقسِم بــ « القَلَم وما يسطرون » [١٦] ، وعلى « شجرةِ أقلام » [١٧] ... فانّه يشير إلى أنّ هذه الوسيلةَ للكتابة كانتْ موجودةً في المفردات الجاهلية؛ وهي، بحسب علوم اللغة، مأخوذةٌ عــن السريانية التي أخذتْها بدورها عن اليونانية.

* وفي القرآن أيضا ذكرٌ لــ « المَدَاد » [١٨] وهي المــادة المســتخرَجة مــن الفحــم المستعمَلة للكتابة؛ وذكرٌ لــ « الدواة » أو « المحبرة » ، الأداة التي تحفــظ الحبــر. ومــن المفسّرين من رأي في آية « ن والقلم » [١٩] معنى الدواة والقلم[٢٠] .

---

(٨) سورة عبس ٨٠ / ١٣ ـ ١٤ ، انظر ٢٠ / ١٣٣ ، ٩٨ / ٢ ...
(٩) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩.
(١٠) سورة المدّثر ٧٤ / ٥٢.
(١١) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٨.
(١٢) سورة الانعام ٦ / ١٠٤.
(١٣) محمد دروزة، نفس المرجع.
(١٤) ترد في القرآن ٤ مرّات، مفردة وجمعاً.
(١٥) سورة العلق ٩٦ / ٤.
(١٦) سورة القلم ٦٨ / ١.
(١٧) سورة لقمان ٣١ / ٢٧.
(١٨) سورة الكهف ١٨ / ١٠٩.

* وفي القرآن أيضًا ذكر للرقِّ في قوله : « والطور. وكتابٍ مسطور. في رقٍّ منشورٍ » [٢١]. والرقُّ هو جِلْدٌ رقيق، « وقد اشتهرتْ جملةُ مواضعَ في الحجاز وفي اليمن بترقيقِ الجلد ودباغته ... وأجودُه هو المعمول مِن جلد الغزال. وذُكِرَ أن الصحابةَ أجمعوا على كتابةِ القرآن في الرقّ، لِتَيَسُّرِهِ عندهم، ولطولِ بقاءِ الكتابة فيه » [٢٢]. ويبدو أن شعراءَ ما قبل الإسلام كانوا يكتبون عليه بكثرة[٢٣] ...

******

يتحصّل من كل هذا أن « بيئةً هذه صِلاتُها بالبيئات المجاورة المتمدّنة التي تتيسّرُ فيها وسائلُ الكتابة والقراءةِ المألوفةِ على تنوعها، وفيها كثيرون من أهلِ هذه البيئات يقرأون ويكتبون ويتداولون الكتب، وحركتها التجارية قويّة واسعة، وقد احتوى القرآن من أوصافِ حياتها، ومعايشها، وحضارتِها، ووسائِلها ما فيه الدلالةُ الوافيةُ على أنها هي أيضًا كانتْ على دَرَجةٍ غير يسيرة من الحضارةِ ووسائِلها، والكتابةِ والقراءة فيها منتشرتان بمقياس غير ضيق لا يعقل في حال أن لا يكون فيها وسائل مدنية للكتابة وأن لا يوجد ما يُدوَّن عليه القرآن الاّ ألواحُ العِظَامِ ورقائقِ الحجارة وأضلاعِ النخيل وقِطَعِ الخَشَب » [٢٤] ...

---

(١٩) سورة القلم ٦٨ / ١.
(٢٠) لسان العرب ١٣ / ٤٢٧ ، الفيروزبادى، تنوير المقياس ... ص ٤٥١.
(٢١) سورة الطور ٥٢ / ٢ ـ ٣.
(٢٢) جواد علي، المفصّل ... ٨ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٢٣) انظر صبح الأعشى ٢ / ٤٧٥.
(٢٤) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٦ ـ ٧٧.

وممّا يرجّح كتابة القرآن على وسائل حضاريّة ليّنة كالورق والقماش وما أشـبه مـا ذَكَرَه البخاري وأهلُ الأخبار عن إحراقِ عثمانَ للمصاحفِ أو تمزيقِها. والوسائل البدائيـة لا تُحرَق ولا تُمَزَّق بالسهولةِ التي أرادها عثمان.

ومن الأرجح أيضا ألاّ تكونَ هذه الوسائلُ البدائية يحمِلُها كَتَبَةُ الوحي، ويتبعون النبي أينما حلّ ورحل، ليسجّلوا ما ينزل عليهِ من آيات ... ومن المعروف أن النبي كان في بـدء بعثته يدعو الناس بِخَفَاءٍ وخفر وبعضِ السرّيّة ... وليس من الممكن أن يحمِلَ كتّابُ الـوحيِ أحمالاً من الألواحِ والعظامِ والحجارة ليكتبوا عليها، وهم مع النبيّ على سَـفَرٍ دائـمٍ وربّمـا مفاجئ!

وبالنتيجة، « انَّ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ القرآنَ كانَ يُدَوَّنُ على قِطَعٍ عَظِيمـةِ الحجـمِ ثقيلـةِ الوزن، صعبةِ الحملِ والحفظِ والترتيبِ، كأضلاعِ النخيلِ، وأكتافِ العظامِ، ورقـاقِ الحجـارةِ والخشب، لا يمكن أن يكونَ هو الواقع على اطلاقه ... » [٢٥] .

وإذا تمسَّكَ المسلمون المتديِّنون بهذه الوسائل البدائية لكتابةِ القرآنِ فانّ لهم عندَ مُحَمَّد صَبيح جوابًا فيه بعضُ خفّةِ الروح. يقول : « كتابةُ القرآن المكيِ على هذه الأدواتِ الخَشِـنَةِ كانَ مِصْحَفًا يحتاجُ إلى عشرينَ بَعِيرًا لِحَمْلهِ. ولمْ نعلمْ مِن أنباءِ الهجرةِ أَنَّ قافلةً من الأحجارِ فَرَّتْ قَبْلَ النبي، أو مَعَ النبي، ومعَها هذا الحِملُ الغريب » [٢٦] .

---

(٢٥) محمد دروزة، القرآن المجيدن ص ٧٥.
(٢٦) محمّد صبيح، بحث جديد عن القرآن، ص ٨٧ ـ ٨٨.

****

الذي يهمّنا من كل ما تقدّم قوله، هو إنّ مكَّة لم تكن في « جاهليّة » وغباوة، كما يطمئنُّ إليه المسلمون. فتلك المدينة المنفتحة على اليَمَنِ ذاتِ اليُمْنِ والخيرات جنوبًا، وعلى بلادِ الشام ودولَتَي الرومِ والفرس شمالاً، وعلى فلسطين مهدِ النبوّاتِ والأنبياءِ والتوحيدِ غربًا، وعلى بلادِ ما بين النهرين ومهدِ الحضارات القديمة شرقًا ... هذه المدينة التي يُحَاصِرُهَا العِلمُ والحضارةُ من كل جهة، لا يمكن أن تبقَى غريبةً عنه، تتخبّطُ في الجهل والغَباوَة.

ولئن كانَ مقصودُ المتدينينَ انذهالَهم أمام فصاحةِ القرآن وبلاغتهِ، فانَّ اللهَ لا يُعجِزْه خَلقَ مثلِ هذه الفصاحةِ في عالَمٍ فصيح. ولن يكونَ شأنُ النبي أعظمَ في حالِ إثباتِ الجهلِ والكفرِ والغباوةِ حواليه من أنْ نجعلَه ينعمُ في مجتمعٍ فيه من الوعيِ ما يكفي لمجادلته ومقارعته.

وما اتّهامُ الكافرين لمحمد بأنّه افترَى القرآنَ افتراءً إلاّ لأنّهم « رأوا أنَّ القرآنَ، في مادّتهِ وتراكيبهِ، وفنونهِ اللفظية، انما هو مِثْلُ تراكيبِهم ومادتِهم وفنونِهم اللفظية، وانّ هذا في متناوَلِهِم » [٢٧] . وما تحدّى النبيُ بأن يأتي الناسُ بمِثْلِ ما أتى إلاّ « اعترافٌ واضِحٌ بانَّ لغةَ القرآنِ في مادّتِه واسلوبهِ ونُظُمهِ وفنونهِ اللغوية، كان ممّا يدخلُ في متناوَلِ العربِ الاتيان بمثلهِ، لو لم يَصْرِفْهم اللهُ عن ذلك » [٢٨] .

****

(٢٧) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٠٠ ... انظر آيات الافتراء في القرآن.
(٢٨) نفس المرجع، ص ٤٠١ ... انظر آيات التحدّى في القرآن.

رَابعاً ــ أمّيّة الرسول

إِنْ لم تسلَمْ مكةُ من تهمةِ الجهلِ والغباوة، فمحمّدٌ، وهو منها، لم يسلَمْ من تهمةِ « الأمّيّةِ » وجهلهِ القراءةَ والكتابة. و « على ذلك أجمَعَ المسلمون » [١] . وهم، بما أجمعوا عليه، مذهولون؛ وقصدُهم، بذهولهم، واضح، وهو التثبّت من أنَّ القرآنَ « كله من عند ربّنا » [٢] ، وليس لمحمّد فيه صنعة. نزّله اللهُ على قلبهِ تنزيلاً، وأوحاه إليه وحيًا والهامًا، وبلّغه ايّاه منجّماً ...

وَمُعْتَمَدُ إجماعِ المسلمين آيتانِ في القرآن : كلتاهما تصفُ محمّدًا بـ « الرسول النبي الأمّيّ » [٣] . والأمّيّة، برأي المسلمين قاطبةً هي الجهل بالقراءة والكتابة، و « الأمّيّ هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب » [٤] ، وهو « العَيِيّ الجِلْفِ الجَافي القليلِ الكلام. قيل له أمّيّ لأنه على ما ولدتْه أمّه عليه من قلّةِ الكلام وعُجْمَةِ اللسان » [٥] . والأمّيّون، في أحسن حال، هم الذين كانتِ الكتابة فيهم عزيزةً عديمة [٦] . والرسول أمّيّ أيضًا لنسبته

(١) الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ / ٩٢.
(٢) سورة آل عمران ٣ / ٧.
(٣) سورة الأعراف ٧ / ١٥٧ ، و ١٥٨.
(٤) الراغب الاصبهاني، المفردات في غريب القرآن ٢٢ ، وجميع مفسّري القرآن لسورة الأعراف، أمثال : الزمخشري والبيضاوي والنسفي والقرطبي والطبري والخازن وابن عباس والنيسابوري والطبرسي والسيوطي ...
(٥) لسان العرب ١٢ / ٣٤ (مادة : أمم).
(٦) تاج العروس ٨ / ١٩١ (مادة : أمم).

إلى « أمّ القرى » ، أي مكّة، وذلك لجهله وجهلها على السواء[٧] .

لقد عالجنا في كتابِ « قسّ ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام » معنى الأمّيّـــة، وأعطينـــا الأدلّة على معرفة محمّد بالقراءة والكتابة من القرآن نفسه، ومن تربية محمّد الدينية على يـــد القسّ ورقة ابن عمّ زوجته خديجة، ومن اطلاع النبيّ على « الإنجيل العبراني » الذي كـــان القسّ ينقله إلى العربيّة بحضور محمّد[٨] . أمّا الآن فلا بدّ من اثبات ذلك بما ورد في الحديث النبوي وكتب السيرة :

جاء في صلح الحديبية أن الرسول « هو الذي كتبَ الكتاب بيده الشريفة، وهو ما وقع في البخاري » [٩] . وجاء في سيرة ابن هشام : « فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يَكْتُبُ الكتابَ هو وسُهَيْل » [١٠] . وجاء في البخاري : « وأخذَ رسولُ اللهِ (ص) الكتابَ لِيَكْتُـــبَ، فَكَتَبَ : هذا ما قاضى عليه محمّد » [١١] . وفي آخر حياته « لمّا اشتدّ وجعُه قـــال : ائتـــوني بالدواةِ والكتبِ، أَكْتُبُ لكم كتَابًا لا تضلّون معه بعدِي أبداً » [١٢] . وفي حديث أبـــي بكـــر أنّ رسول الله « دعا في مَرَضِهِ بدَوَاةٍ ومِزْبَرٍ (قلم) فَكَتَبَ اسمَ الخليفـــةِ بعـــدَه » [١٣] . وذكـــر الهمداني أن العرَب كانتْ « تُسمّي كلَّ مَنْ قَرَأَ الكتبَ أو كَتَبَ : صابِئًا؛ وكانتْ قريشٌ تســـمّي النبيَ (ص) أيّامَ يدعو الناسَ بمكة ويتلو القرآن : صابِئًا » [١٤] .

(٧) الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٢.
(٨) انظر كتابنا « قس ونبي » ص ٤٦ ـ ٥١.
(٩) الروض الانف ٢ / ٢٣٠ ، السيرة الحلبية ٣ / ٢٣ ...
(١٠) انظر ذلك نقلاً عن « نولدكه » في « تاريخ القرآن » جزء ١ ص ١٣.
(١١) الروض الانف ٢ / ٢٣٠، الطبري ٣ / ٨٠، الحلبية ١ / ٢٤.
(١٢) البلاذرى ١ / ٥٦٢، الطبري ٣ / ١٩٢ : بعض الخلاف في الرواية.
(١٣) تاج العروس ٣ / ٢٣١ (مادة : زبر).
(١٤) الهمداني، الاكليل ١ / ٤٤.

بسبب هذه الروايات المعارضة لموقف المسلمين واجماعهم على أمّيّـــة محمّــد، رأى بعض « الماهرين بالتفسير وصياغةِ الكَلِمِ أنّ النبيّ تعلَّم القراءةَ والكتابة بَعْدَ النبوّة. جاء على لسان الحافظ بن حجر أن النبي كان أمّيّاً وذلك « بسبب الاعجازِ؛ ولمّا اشتهرَ الإسلامُ وأَمِــنَ الارتيابَ عَرَفَ حينئذ الكتابَةَ » . وقال ابن أبي شيبه : « ما مات رســول الله (ص) حتــى كَتَبَ وقرأ » . وقال مجالد وابن دحية والنيسابوري والباجي والبغوى : « إن معرفةَ الكتابـــةَ بعد أمّيّتهِ لا تُنافِي المعجزة، بل هي معجزةٌ أخرى بعدَ معرفةِ أمّيّته وتحقق معجزته » .

وقال الطبرسي : « فأمّا بعد النبوّة فلا تعلق به بالريبة والتهمة، فيجوز أن يكون قــد تعلَّمها (أي الكتابة) من جبريل عليه السلام، بعد النبوّة » [١٥] .

وعند بعض المفسّرين إن رسولَ الله كتبَ مع عدم علمهِ بالكتابةِ وتمييزِ الحروف[١٦] . وهذا أيضًا معجزة[١٧] .

وفي شروح الباجي لهذا الخلط بالتفسير قوله : كل ما ورد في الحديث مــن قولـــه : كَتَبَ، فمعناه أَمَرَ بالكتابة.

ولكنّــنا لحسنِ الحظ نجــد بعضَ المسلمين المتقدِّمين يفسّرون كلــمةَ « الامّيّــين » بـــ « الذينَ لا كتابَ لهم من مشركي العرب » ، وذلك بمقابلِ « الذين أُوتُوا الكتابَ من اليهودِ والنصارى » [١٨] . وفي تفسيرِ القرطبي

---

(١٥) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٨ / ٢٨٩.
(١٦) هذا الرأي للقاضي أبي جعفر السماني.
(١٧) تاج العروس ٨ / ١٩١ (مادة : أمم).
(١٨) الطبري في تفسيره على آية ٣ / ٢٠، ص ١٤٣ من الجزء الثالث، انظر : روح المعاني ٢١ / ١٧.

الذي نقل عن ابن عبّاس رأيٌ جازمٌ حَسَنٌ قال : « الأمّيّون العربُ كلُّهم، مَن كَتَبَ منهم ومَـــنْ لم يكتبُ، لأنهم لم يكونوا أهلَ كتاب » [١٩] .

****

خاتمة الفصل

ان الإيمان بمعجزة أمّيّة الرسول فيه من الغرابة ما يجعل المسلم المؤمن في حيـــرة : لقد كان مقصودُ المسلمين في إثبات الأميّة لمحمّد سبيلاً واضِـــحًا لإثبـــات معجـــزةِ القـــرآن ومصدرهِ الإلهي. وهذه المعجزة جرّتْ معها ووراءَها تزويراً للتـــاريخ وتحـــويرًا صـــريحاً. بسببها سقطتْ مكّةُ في الجهلِ والغباوة، وبسببها عُمِّمَ الجهلُ والكفرُ علـــى عصـــر مـــا قبـــل الإسلام، وبسببها قَلَبَ الله نظام الكون، فوضَع الفصاحةَ على لسانِ جاهلٍ، ووضعَ العلمَ حيثُ الجهلُ، والإيمانَ حيثُ الكفرُ، والمعرفةَ حيثُ الغباوة ...

أمن حقِّ المسلمين، لإثباتِ بلاغة القرآن، تهمةُ الناسِ بالجهل! أهي معجزةٌ للـــدين أن يَعجزَ الناسُ عن الاتيان بفصاحته! أمنْ كِبَرِ اللهِ وعظمتهِ أن يأتي بنبيٍّ جاهل! هل من شـــأنِ الدين أن يُبنى على بدائيّةِ البشر، ويَفتخرَ بتعاليمه على بداوتهم! هذا، وان التاريخَ يثبتُ عكسَ ما يريدُه المتديّنون : فالقراءةُ والكتابةُ ووسائلُها كانتْ في مجتمع مكّة فـــي غايـــةِ الانتشـــار والمألوف. فلماذا التغاضي عن فخرٍ بالجدودِ هو حقّ لهم علينا!

ان الإيمان بمثلِ هذه المعجزة يُعجزُ البشرَ عن رؤيةِ وجهِ الحق.

---

(١٩) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٩١.

الفَصل الثَالث

مُعْجزَة حفظ مُحمَّد للقرآن

أَولاً ــ النسيان النبوي

ثَانياً ــ النسخ في القرآن

ثَالثاً ــ إجازة التبديل في القرآن

رَابعاً ــ دسّ الشيطان في الوحي

مقدّمة الفصل

في إيمـــان المسلمين أنّ الله تولّى ويتولّى بنفسِه شؤونَ كتـــابه الكريم. فهـــو الـــذي « أوحاه » ، وهو الذي « نزّله » من الأفقِ الأعلى، وهو الذي « أنزله » على محمّد منجّماً، وهو الذي « جَمَعَه » ، و « رتّبه » ، و « قرأه » لمحمّد، وهو الذي « يَحْفَظُه » ، ويعمـــل على « بَيَانه » ... وبالتالي، لا شأن فيه لمحمّد : فلا ذاكرةُ محمّد تفيدُ في حفظِه، ولا علمُـــه يزيدُ القرآنَ علماً ... لا اتّقادُ ذاكرةِ النبيّ حفظتِ الكتابَ، ولا ضَعفُها أثَّرَ على صيانتهِ ...

ولئن كان اللهُ يتدبّر أمرَ القرآن فأحرى به أن يتدبَّر محمّداً لكي يحفظَه ويبلِّغَه بأمانـــةٍ ودقّةٍ متناهية. وهكذا عَصَمَ اللهُ النبيّ من نقيصةِ « النسيان » ، وعَصَمَه من الأهواءِ والنَزَعَاتِ الشخصيةِ، وعَصَمَه من أن يُبدّلَ ويُحرّفَ في الكتاب، وعَصَمَه من أن يُنقِصَ منه أو يزيـــد، وعَصَمَه من دسائسِ الشيطانِ وحِيَلِه ... لقد أنعَم اللهُ على نبيّه بالعصمةِ لأنّه تعالى حَمَّلَه حِملاً ثقيلاً : « أنا سَنُلقي عليكَ قولاً ثقيلا » [١] .

ولكنَّ عصمةَ الله هذه لم تمنعِ الرسولَ من أن يَنعمَ بكل ما له مـــن عواطـــفِ الحـــبِّ والغضبِ، وأميالِ النفسِ والجسد، ونزعاتِ القلب والشهوات، ووهنِ الطبيعة ومتطلبّاتها : لقد عرفَ النبيّ الحبَّ والشهوةَ، واختارَ له نساء، وميّزَ بينهنَّ، فأحبَّ واحدة أكثرَ من واحدة، وكانَ له أولاد، وهَمُّ

---

(١) سورة المزمل ٧٣ / ٥.

تربية الأولاد، وكان له أصحاب أوفياء، وأَعداءُ نَزّلَ عليهم اللعنات. كان كسائرِ البشَرِ في كل شيء : في تَعَبِهِ ومَرَضِهِ وآلامِهِ وأَكْلِهِ وشربِهِ ومَشيهِ في الأسواق[٢] ... في هـذه كلِّهـا لـم يَعصمِ الله نبيَّه، ولم يقيِّدْ حرّيتَه ...

الاّ انّ الله عَصم نبيَّه من ارتكابِ الفواحشِ والأخطاءِ والأغلاط وكلِّ ما يمـتّ إلـى الأخلاقِ بصلة. وعصَمه أيضًا وخاصّةً فيما يتعلّق بتبليغ كتابهِ وكلامه. وهذه العصمة هي أمرٌ قديم جدّاً في تاريخِ الله مع الأنبياء : لقد كانَ النبيّون في إسرائيل معصومين؛ وفي المسـيحية عصمةٌ تمتدُّ بعيداً؛ بل كلُ صاحبِ عقيدةٍ أو نفوذٍ أو قيادةٍ يتمتّع، عندَ أتباعه، بعصمةٍ مـا ... ويبدو أنّ الإنسانَ، في ضياعِهِ في خضمِّ هذا العالم المضطرِب، يحتاجُ إلى بعـض العصـمة يجدُها في مكانٍ ما، ليطمئنّ. بل كل امرئٍ يَسعى لأن يكونَ في مسعاه معصوماً ...

وكم في التاريخِ عُصِمَتْ أنبياءُ وأولياءُ وقدّيسون وأئمّةٌ وأصـحابُ عقيـدةٍ وزعمـاءُ سياسيون وثوّارٌ ومنظّرون ومنظّمون... وكم عُصِمَتْ شـرائعُ وقـوانينُ وكتـبٌ ووسـائلُ ومبادئ... فَمَنْ يستطيعُ تغييرَ حرفٍ واحدٍ من كتبِ السـماءِ دونَ أن تنهـالَ عليـه ويـلاتُ الأرضِ وأوهالُ السماوات! ومَنْ يمكنُه ألاّ يرى حتى في كتابهِ كلَ عصمةٍ وكلَ حقّ! ومَـنْ يتمكّنُ من إزالةِ حرفٍ واحدٍ من الناموس، حتى ولو كانَ كلُ حرفٍ من الناموس مـن صـنعِ رجالٍ تعساء!

لكأنَّ العصمةَ هي، عندَ البشر، نزعةٌ نحوَ الأبديّة : والحقيقةُ هي أنَّ كلَّ شيء علـى الأرضِ يَمُوج؛ والأرضُ كلُّها تموج بكلِ شيء، والحياةُ غيرُ مستقرّة، وعواملُ الكـونِ فـي تغييرٍ مستمرّ، ومعالِمُ البشريّةِ تُمْحَى سريعاً، وعلومُ الإنسان تَنقلِبُ من عصـرٍ إلـى آخـر، والأمرُ الواحد حقيقةٌ هنا وضلالٌ

---

(٢) سورة الفرقان ٢٥ / ٧ ، وغيرها.

هناك، ودُوَلٌ تَدول، ومجتمعاتٌ تَزول، وعالَمٌ يبور، والكلُ في اضطراب. وليسَ على الأرضِ ثابتٌ الاّ ما لا يَثبت ... تجاهَ هذا الواقع المائج، خَلَقَ الإنسانُ له حَبْلاً متِينًا رَبَطَ بــهِ الأرضَ المائِجَةَ بِعُمُدِ السماءِ الثابتة، فكانتِ العصمةُ خيرَ ما أَوْجَد.

ملايينُ الكتبِ في المكتباتِ حاولَ أصحابُها وَضْعَ بعضِ العصمةِ فيهــا. ولــيسَ فــي الأرضِ مَن مفكِّرٍ أو صاحبِ رأيٍ أو مُنظِّرٍ الاّ ويَدمَغُ ما عندَه بالعصمة. بل ليسَ من ســاعٍ نحو عصمةٍ ما لديه الاّ ويريدُ دَفْعَ الآخَرينَ إلى عصمتهِ دفعًا. وبات الجميعُ ينوءُ تحت عبءِ ثقلِ العصمةِ وأصحابِها. وقد لا تكونُ مشاكلُ الأرضِ والإنسانيةِ الاّ من هذا القبيل. فلولا خَفَّفَ الإنسانُ عن أخيه ضَغْطَ عصمتهِ لَهَانَتْ بين الناسِ سُبُلُ المحبةِ والوِفاقِ والسلام. ولكنّ مــيلاً في عمقِ كل انسان يَجْمَعُ بهِ نحوَ العصمة. فلهذا كان في الأرض حروبٌ وثــوراتٌ وبغــضٌ وكفرٌ وبلبال. وأجلى صُوَرِ العصمةِ رُقِّمَتْ في الدين. فلا الدينُ يزول، ولا العصمةُ فيه تَخِفُّ حِدّتُها؛ لا المؤمنُ يتزحزحُ عن عصمةِ دينه، ولا لاعِنُ الأديان يستطيعُ النجاةَ مــن دغدغــةِ عصمته!

يهونُ الإيمانُ بالعصمة في ما يتعلّقُ بأمور السماء والأديان ... ولكن كيف يهونُ معَ رجالٍ عَصَمُوا أنفسَهم وعصَمَهم الناس ؟ وقد يهونُ الأمرُ أيضًا إذا تمتّــعَ هــؤلاءِ الرجــالُ بعصمةِ أهلِ زمانهم، ولكن كيف يهونُ متى انقلبَ ذاك الزمان، وتَبَــدَّلَتْ معــالمُ الحضــارة، وانقلبَ التاريخُ على نفسِه، وقَلَعَ مجتمعٌ حضاريٌّ مجتمعًا بــدائيًا بــدويًّا، وأطاحــتِ الأرضُ الخضراءُ بالصحراءِ المتلهبة، وأخذتِ الطائراتُ تملأُ آفاقَ البرِّ والبحرِ مكانَ الابلِ والحمير...

متى حدث كلُ هذا، نسأل : هل تبقى العِصمةُ في مجدِها ؟ وهل نبقى تحتَها رازحــين إلى الأبد ؟ هل يبقى الرجالُ أحياءَ بعصمتِنا لَهم،

وقد أماتَهمُ اللهُ رحمةً بنا ؟ هل يتسنّمُ كلُ معصومٍ بمجدِه على رؤوسِنا وفي عــرشِ قلوبنـــا، وعظامُه في الترابِ بُلِيَتْ وصيّرتْها الأرضُ الحنونةُ هَبَاءَ ؟ هل يحقُّ لنا تخليدُ رجالٍ أفنـــاهُمُ الله ؟ ... ليتَ الوثنيةَ تعودُ بوجهِها الصريح من أن تكونَ على مثلِ هذا الوجهِ الخبيث!!!

مَن هو الكافرُ بالله، أَعابدُ الأصنامِ الذي بها يَسعى نحوَ الله، أم الذي يســرقُ مــن اللهِ عصمتَه ليغرّزَها في رَجُلٍ مائتٍ كالرجال ؟ مَن هو المشرِكُ بالله، ذاكَ الذي أطلقَ سَرَاحَ الله، أم ذاكَ الذي حصَرَ اللهَ في هيكلٍ من حجارةٍ أو في كتابٍ من وَرَقٍ وحروف!؟

ومع هذا يجب أن يبقى عند بعضِ الناسِ لبعضِ الرجالِ بعضُ العصمة. لولاها لَضَاعَ الناسُ في ضَياعٍ محتوم. بعضُ العصمة يخلّصُ الإنسانَ من القلق، ولكنَّ العصمةَ كلَّها تُــرِيحُ العقلَ الذي خُلِقَ حرًّا باحثًا متحرّكًا ناشِطًا عامِلاً في كل أمرٍ من أمورِ الخَلق. بعضُ الاتّــزانِ يكفي لبعضِ الخلودِ على أرضِ الفناء. وبعضُ الحرّيّة من معصوميّ السماء يَكفلُ لنا أَجْرَين : أجرِ الباحثِ، وأجرِ مَنْ يحافِظ على كرامة الإنسان. فأطلِقوا الحرّيّةَ، وقيّــدوا اتســاعَ رقعـــةِ العصمةِ والمعصومين، ولكم منّي، بعد هذا، نشيدُ الظفر.

ونشيد الظفر هو هذا : أن تحرّرَ اللهَ، وأن تتحرّرَ بفضلِ الله. أن تسأل : كيف عَصَــم اللهُ نبيَّه محمّداً من النسيانِ ومن أهواءِ الطبيعة ومن دسِّ الشيطان ومن التحريفِ والتصحيفِ في الكتابِ الذي بين يديه. وكيف رُبِطَ هذا الكتابُ بعُمُدِ السماء، وكيف نزّلَه ملاكٌ من السماء، وكيف يتمتّع هذا الملاكُ بعصمةِ الله ؟ وأن تسأل: هل حَفَظَ محمّدٌ كلَ القرآن، أم نسيَ بَعضَه ؟ هل من حفظِ القرآن معجزةٌ إلهيّة، أم اللهُ تركَ التاريخ يَسعى بموجبِ نظامِه المتــأرجحِ بــين الحقِ والباطلِ ؟ فلننظر.

أَولاً ــ النسيان النبوي

يعترف القرآنُ نفسُه بأنّ كثيراً منه قد نُسِيَ. ولئن كان الأنبياء معصومين في رسالتِهم وأخلاقِهم، فإنّهم، على ما يبدو، لم يُعصَموا من الضعفِ والــوهَن الحاصِــلين فــي الطبيعــة البشريّة. ونجدُ القرآنُ والسنّةَ يُقرّان بهذا الضعفِ النبوي. ولا بدّ للمسلمين أن يُقــرّوا بهــذا الضعف في ذاكرةِ النبي الذي أساء في حفظ كل القرآن.

فمنذ مطلع الوحي حذّر الله محمّداً من نسيان شيء من القرآن، قال : « سَنُقْرِئُكَ فــلا تَنسى إلاَّ ما شَاءَ اللهُ. إنّه يعلَمُ الجهرَ وما يخفى. ونُيَسِّرُكَ لِليُسرى » [١] . وجاء فــي تفســيرِ الجلالين : سنقرئُك القرآنَ فلا تنسى ما تقرؤُه الاّ ما شاءَ الله أن تَنْسَاه، بِنَسْخِ تلاوتِه وحكمِــه. وكان الرسولُ يجهرُ بالقراءةِ مع قراءةِ جبريل خوفَ النسيان، فكأنّه قيل له : لا تعجلْ بهــا، انّك لا تَنْسى فلا تُتعِبْ نفسَك بالجهر بها، انّه تعالى يعلم الجهرَ من القولِ والفعلِ وما يخفــى منهما ... » [٢] .

فإذا كان « الجلالان » يُقرّان بإمكانيّةِ النسيان عند محمّد، فانّ محمّدَ الكلبــي يجيــزُه فيقول : « ان النسيانَ جائز على النبي (ص) فيما أرادَ الله أن يَرْفَعَهُ مِنَ القــرآن، أو فيمــا قضَى اللهُ أن يَنْسَاه، ثم يَذْكره. ومِن هذا قول النبي (ص) حين سَمع قراءةَ عباد بــن بشــير رحَمَهُ الله : لقد أذكرَني

(١) سورة الأعلى ٨٧ / ٦ ـ ٨.
(٢) تفسير الجلالين على سورة الأعلى، ص ٧٩٥.

كذا وكذا آيةً كنتُ قد نسيتُها » [٣] .

أمّا تفسير الزمخشري فيتوقّف على معجزة قراءةِ جبريل للنبي لئلا ينساه. « وقيــل : كان يعجلُ بالقراءة إذا لقّنهُ جبريلُ، وقيل : لا تعجل فانّ جبريلَ مأمورٌ بأن يقرأه عليكَ قراءةً مكرَّرَةً إلى أن تحفظَه ثم لا تَنساه الاّ ما شاءَ الله، ثم تذكّرَهُ بعد النسيان ... وروى انّه أَسْــقَطَ آيةً في قراءتهِ في الصلاةِ فَحَسِبَ أُبَيٌّ (بن كعب) انّها نُسِخَتْ، فسأله، فقال : نَسِيْتُهَا » [٤] .

وجاءَ في تفسير الطبري : « أخبر انّه يُنسِي (اللهُ) نبيَّه منه (من القرآن) ما شاء : فالذي ذَهَبَ منه هو الذي استثناه الله » [٥] . ونجد أيضا في « كتاب مجموعةٍ من التفاســير » للبيضاوي والنَسَفي والخازن وابن عبّاس اقرارا بالنسيانِ النبوي وبحدوثهِ مِرَارًا على ما روى المحدِّثون ومنهم الصحيحان[٦] .

****

وفي سورة الكهفِ قوله : « واذكر ربَّكَ إذا نَسِيْتَ. وقلْ : عَســى أَنْ يَهْــدِيَني رَبِّــي لأَقْرَبَ من هذا رشدا » [٧] . فسَّر البيضاوي ذلك بقوله : « إذا فرطَ منكَ نسيانُ ذلك ... اذكر ربَّك وعقابَه إذا تركتَ بعضَ ما أَمرَكَ بهِ، ليبعثَكَ على التداركِ. واذكره إذا اعتراكَ النســيانُ لِيُذْكِرَكَ المَنْسِيَّ » [٨] .

(٣) محمد الكلبي، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٤) الزمخشري، الكشاف ٤ / ٢٤٣.
(٥) تفسير الطبري ٢ / ٤٨.
(٦) انظر « كتاب مجموعة من التفاسير » ، ٦ / ٤٩٤.
(٧) سورة الكهف ١٨ / ٢٤.
(٨) تفسير البيضاوي للقرآن على سورة الكهف.

وفي تفسير الزمخشري اشارةٌ إلى منفعة النسيانِ وضرورتهِ. يقول : « واذكرْ ربَّك إذا تركتَ بعضَ ما أمركَ به ... واذكره إذا اعتراكَ النسيان لِيذكّرك المنسيَّ ... والظاهر أن يكونَ المعنى : إذا نسيتَ شيئاً فاذكرْ ربَّك. وذكرُ ربّك عند نسيانِه أن تقولَ : عَسَى ربّي أن يَهدِيَني لشيءٍ آخرَ بدلَ هذا المَنسيّ أقرب منه « رَشَدًا » وأدنى خيرًا، ولِعُلُو منفعةِ النسيانِ خيرة، كقوله ــ أو نُنْسِهَا نأتِ بِخَيرٍ مِنها » [٩] .

وهو أيضا تفسيرُ النسفي والخازن وابن عباس[١٠] .

****

وفي سورة البقرة قوله: « وما نَنْسَخُ من آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بخيرٍ مِنها أو مِثْلِها » [١١].
نتكلّمُ الآن على فعل « نُنْسِهَا » ونرجئُ الكلامَ على « النَسْخِ » إلى ما يلي. لقد اختلفتْ قراءاتُ فِعْلِ « نُنْسِهَا » ؛ فمِنَ المفسرين من قرأَها بمعنى « نؤخِّرُها فلا نُنزِلُ حكمَها ونَرْفَعُ تلاوتَها، أو نؤخِّرُها في اللوحِ المحفوظ » [١٢] . ومنهم من رأى « معناها: نُثْبِتُها على قلبِك... (فيكون) الإِنْسَاءُ نَسْخًا من غيرِ إقامةِ غيرهِ مقامِه (من أحكام).

أمّا الرأي المرجَّح فهو : « إنساؤُها : اذهابُها عن القلوبِ » أي نسيانِها، « أي نُنْسِكها: أي نُمْحِها من قلبك » [١٣] . ويعتبر الطبري أنّ « نسيانَ الوحيِ ظاهرةٌ نبويّةٌ إلهيّةٌ في القرآن » [١٤] .

---

(٩) الزمخشري، الكشاف ٢ / ٤٨٠.
(١٠) كتاب مجموعة من التفاسير، ١ / ١٠٠ على سورة الكهف.
(١١) سورة البقرة ٢ / ١٠٦.
(١٢) تفسير الجلالين على ٢ / ١٠٦، مجموعة من التفاسير، ص ١٧٤.
(١٣) تفسير الجلالين على ٢ / ١٠٦.
(١٤) تفسير الطبري، ٢ / ١٠٦.

بأيّ معنى جاءت لفظة « نُنْسِهَا » فلا اعتراضَ عليه. ولكنَّ كُتُبَ الحـديثِ والسـنّة تعترفُ بظاهرةِ النسيان المحمّدي بما لا يبقى لدينا أيُّ شكّ في ذلك :

لقد نَقَل الطبري عن قتادة قوله : « يَقرأُ نبيُّ اللهِ الآيةَ أو أكثرَ من ذلـك، ثـم تُنْسَـى وتُرْفَع » . وأيضًا : « كانَ الله يُنسِي نبيَّه ما شاء » . وعن مجاهِد : « كان عُبيدُ الله بن عَمير يقول : « نُنْسِهَا، نرفَعُها من عندكم » . وعن الحَسَنِ : « انّ نبيَّكم أُقرِئَ قرآنًا ثم نَسِـيَهُ » . وعن الربيع : « نُنْسِها، نرفَعُها. وكانَ الله أنزلَ أموراً من القرآن ثم رَفَعَهَا » [١٥] .

والحقيقة إنَّ ما ورد على لسان المفسّرين من معانٍ لفعل « نُنْسِهَا » تتقارب : فَرَفْـعُ أحكامِ آيةٍ ما من آياتِ القرآن، أو تأخيرُها، أو نسيانُها، أو محوُها من قلبِ النبي ... كلُّها تدلّ على طَعْنٍ في صميم العصمة. إنّ الله الذي عَصَمَ نبيّه لِيَعصِمَ بعصمتِه القرآنَ « يَرْفَعُ » الآنَ عصمَتَه، وذلك بسببِ تبدّلِ ظروفِ النبيِّ وأحوالهِ وأحداثِ التاريخ. ويثبتُ ذلك ما سيتّفقُ عليه عامّةُ المسلمين من جوازِ نَسْخِ آيةٍ بآية، كما سيأتي ...

وفي صلاةِ النبيّ لربّهِ خيرُ ما نختمُ به مقالَنا : « اللّهمّ! ذكّرني منهُ ما نَسِيْتُ، وعلّمني منه ما جَهلتْ » . ويعترفُ المحدّثون بأهمّيّةِ هذه الصلاة، فيفسّرون : « ربّما نزَل على النبيِ الوحيَ بالليلِ ونَسِيَهُ بالنهار » .

****

(١٥) انظر مقالة : الطبري، في دائرة المعارف بمصر، ٢ / ٤٧٤ ـ ٤٨٠، تخريج الأخوين شاكر ...

ثانياً ــ النسخ في القرآن

في إيمان المسلمين إنّه « لا يجوز لأحد أن يفسِّرَ كتابَ الله الاّ بعد أن يعــرِفَ منـــه الناسِخَ والمنسوخ. وقد قال عَلِيٌّ لِقَاضٍ : أتعرفُ الناسخَ من المنسوخ ؟ قال : لا. قال : هَلِكْتَ وأَهْلَكْتَ » [١].

وللنسخ معانٍ :

« منها معنى الإزالـــة، ومنه قـــوله : « فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلقِي الشيطانُ، ثـــم يُحكِـــمُ اللهُ آياتِه » [٢] .

ومنها معنى التبديل، ومنه : « إذا بدّلنا آيةً مكانَ آية » [٣] .

ومنها معنى التحويل، كتناسخِ المواريثِ بمعنى تحويلِ الميراثِ من واحدٍ إلى واحد[٣] .

ومنها معنى النقلِ من موضعٍ إلى موضعٍ، ومنه : « نَسَخْتُ الكتابَ » ، إذا نقلتَ مـــا فيه حاكِياً للفظِهِ وخطِّه. وهذا الوجهُ لا يصحّ أن يكونَ في القرآن » [٤] .

والنسخُ هو من خصائصِ الأمّةِ الإسلاميّة، وقد خصَّها اللهُ بهِ لِحِكَمٍ

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٠.
(٢) سورة الحج ٢٢ / ٥٢، نفس المرجع السابق.
(٣) سورة النمل ٢٧ / ١٠١، نفس المرجع.
(٤) الاتقان ٢ / ٢٠ ـ ٢١، البرهان ٢ / ٢٩.

منها التيسير، وقد أجمعَ المسلمون على جوازِه، ولكنّهم اختلفوا في وجـوهِه. وأحدُ وجـوهه « إن القرآنَ نَسَخَ جميعَ الشرائعِ والكتبِ القديمةِ كالتوراةِ والإنجيلِ وغيرهما. الوجه الثـاني : المرادُ من النسخ هو نَسْخُ القرآن ونَقْلُه من اللوحِ المحفوظ إلى سماءِ الدنيا. والوجهُ الثالـث، وهو الصحيح، الذي عليه جمهورُ العلماء، إن المرادَ من النسخِ هو رَفْعُ حكمٍ بعـضِ الآيـاتِ بدليلٍ آخرَ يأتي بعدَه. وهو المراد بقوله تعالى : « ما ننسخُ من آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منهـا أو مثلِها » [٥].

وبتعبير استساغَه الشيخْ صبحي الصالح : النسْخُ هو « رَفْعُ الحكم الشـرعي بـدليلٍ شرعي » ، وهو، بنظرِه، « أدقّ تحديدٍ اصطلاحيٍ لهذه اللفظة » [٦]. وهـو، كغيـرهِ مـن المسلمين المتأخّرين، يعتمد على أئمّة المفسّرين[٧].

ثم اختلفَ المسلمون في تعيينِ الآياتِ الناسِخَة والمنسـوخَةِ، وفـي تعيـينِ الأحكـام الناسِخَة، فإذا ببعضِهم يغلو فيقول بأنّ معظمَ سُوَرِ القرآن يَجْتَمعُ فيهـا الناسِـخ والمنسـوخ؛ وبعضِهم الآخر يفرّ من النسخِ ويقول بأن ليسَ في القرآن ناسِخ ومنسوخ، وذلك خوفًا مـن أن يقعَ هؤلاء بالقول بـ « البداء » ، وهو القول بأنَّ الله يغيُّرُ أحكامَه ويبدّلُها بحسَبِ الظـروفِ والمناسبات، وحاشاه من ذلك؛ إلاّ أن المعتدِلين أجمعوا على القول بأنّ الأصلَ في القرآن هو « الأحكام » ، ولكن يوجَد فيه بعضُ « النَسْخ » ، ولكنّه قليل. وقد عـدّ السـيوطي إحـدَى وعشرين آية ناسَخة ومنسوخة[٨] والشيخ صبحي لا يرى أكثر من عشرِ آياتٍ فقط[٩].

---

(٥) سورة البقرة ٢ / ١٠٦، كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.
(٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦١.
(٧) انظر فصل في حكم النسخ في كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.

ثمّ إن النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب : أحدها ما نُسِخَ تلاوتُه وحكمُه معاً، أي أنّ آياتٍ، بحسب تعبيرِ أبي موسى الأشعري، « نزلتْ ثمّ رُفعت » [١٠] . الثاني : ما نُسِخَ حكمُه دونَ تلاوتهِ. وهو قليل جداً، لأنّ من « حقِّ الناسخ والمنسوخ أن تكونَ آيةٌ نَسَخَتْ آيةً » [١١] . والضرب الثالث : ما نُسِخَ تلاوتُه دون حكمه، أي إنّ كثيرًا من القرآن قد ذهبَ وَسَقَط وبقي حكمه[١٢] .

****

أمّا الحكمة، برأي المسلمين، في معرفة الناسِخ والمنسوخ « تظهرنا على جانب من حكمة الله في تربيةِ الخلق، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي : وهو الله ربّ العالمين، لأنه يمحو ما يشاء ويثبتُ، ويرفع حكماً ويبدّلُ آخر، من غير أن يكونَ لأحدٍ من خلقِه عملٌ في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتَمُ النبيين نفسه » [١٣] .

وحكمة ذلك من وجهين : أحدهما إنّ القرآن يُتلى، ولو كانتْ بعضُ أحكامِه منسوخةً، لكونهِ كلامَ الله فيثابُ الإنسان على هذه التلاوة؛ والثاني : إن النسخَ، غالباً، يكون للتخفيفِ، فأُبقِيتِ التلاوةُ تذكيراً للنعمةِ وَرَفْعَ المشقّة » [١٤] .

---

(٨) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٣، وقد نظمها في أبيات شعر.
(٩) الشيخ صبحي، مباحث ...، ص ٢٧٤.
(١٠) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢.
(١١) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢.
(١٢) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢ ـ ٢٥.
(١٣) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ...، ص ٢٥٩.
(١٤) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٣.

انّ المهمّ بالنسبة إلينا الآن هو الاعتراف بأنّ الله، نظرًا لاختلاف الحال ووضع الناس وتبدّل المجتمع من مكّي إلى مدني، ومن بدوي إلى حضري، ومن دعوة بالسلمِ إلـــى دعـــوة بالجهاد، ومن وعظٍ وتبليغٍ إلى سنِّ شرائع وقوانين ....، إن الله أجازَ لمحمّد تبديلَ مواقِفه، كما أجازَ له، تبريراً لهذا التبديل، أن يَرْفَعَ الأحكامَ ويبدّلَها بغيرها. فيكون معنى ذلك :

إنّ « اللهَ سبحانه وتعالى يعلّمنا أنّ تغيَّر الزمن والظروف يقتضـــي تغيَّـــر الأحكـــام. فليستِ المسألةُ متعلّقةً بعلمِ الله شيئاً الآن لم يكنْ يعلمُه من قبل. حاشا الله. ولكـــنَّ المســـألةَ أنَ الحِكمَ يتّفقُ مع الظروفِ في فترة من الفترات فيقضي الله به، ثم تتغيّرُ الظروفُ أو يريـــدُ الله التخفيفَ عن عبادهِ فيتغيّرُ الحكم. فالمسألةُ لا علاقةَ لها بعلمِ اللهِ الواسعِ الشاملِ، ولكن علاقتُها بحاجةِ الناسِ من جهة، وبتعليمهِم التطوّرَ حسبَ الظروفِ من جهة أخرى ... » [١٥] .

****

ولكنّنا نسأل : إذا كان الله أجازَ لمحمّد نسخَ بعضِ الأحكام في مدّة ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبويّة، نظراً لتبدّلِ الظروفِ وحال الناسِ وللتخفيفِ عن المؤمنين ... أفلا يُجَوِّزُ لنا الدكتورَانِ أحمد الشلبي وصبحي الصالح وصاحبا الاتقان والبرهان وكلُّ المسلمين نَسْخًا آخر! وكل شيء يدعو إلى ذلك! إنّ تبدّلَ ظروفِ البشر، وتطوّرَ العلمِ، وتغييرَ وجهِ الكون، وانقلابَ نظريّاتٍ كثيرة في العالَم رأسًا على عقب ... تستحقّ نسخاً آخر قد يكون أوسعَ وأشملَ مـــن النسخِ الأوّل!

(١٥) الدكتور أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ ؟ في كتاب « القرآن نظرة عصرية جديدة » ، لجملة مؤلّفين، ص ١٥٠.

إذا كان أهل مكّة والمدينة استحقّوا خلالَ ثلاث وعشرين سنة أحكامًا تَنسخ أحكامًا، وآياتٍ تُبدِّلُ آيات، بسببِ أوضاعٍ جديدة وأحوالٍ مستجدّة، ألا نستحقُّ نحن، في مدةٍ تزيدُ على الثلاثِ وعشرينَ سنةٍ بأكثر من ألفٍ وأربع مائةِ سنة وسنتين، رحمةً من اللهِ تَرْفَعُ عنّا أحكامًا وسنَنًا بُلِيَتْ كما بُليَ المجتمعُ الصحراوي!

إذا كانت أحكامُ القرآن وسننُه في متناولِ بَدْوِ الحجازِ، وقد آمنَ بها مَن فهِمَها منهم، وأنكرَها من فهمها منهم أيضاً، وقد نُسِخَتْ وتَغَيَّرَتْ بالنسبةِ إلى تبدّلِ أحوالِهم، ألا يستحقُ متحضِّرو العصرِ الخامسَ عَشر أن يكونَ لهم أحكامٌ وسننٌ هي في متناولِ حضارتِهم!! أيعقلُ ألاّ يكونَ متحضِّرو هذا الجيلِ أكثرَ وعيًا وعلمًا ومعرفةً من بدائيي الصحراء!! وكيف كان لهؤلاءِ أحكامٌ تُنْسَخُ ولأولئك أحكامٌ تبقَى مدى الدهر!!

أيحكمُ القرآن على الناس بأنّهم مهما علا كعبُهم في العلمِ والمعرفة يظلّون بمستوى ما فهِمَه البدوي منه! إذا كان الفرقُ بين المدني والمكّي من القرآن واسعاً إلى هذا الحدّ الذي يقرُّه المسلمون، ألا يكون هناك فرقٌ أوسع بين المدنيّ اليثربي والحضريّ الرياضي أو النَجَدي!!

لقد كان النبيُّ أرحمَ بالنسبةِ إلى أهلِ زمانه منه بالنسبةِ إلينا اليوم! لقد أنزلَ إليهم أحكامًا، ثم رفَعَهَا، ثم أنزلَ أحكامًا أخرى، ثمّ نَسَخَهَا ... على أن استقرّتِ الأحكامُ وجُمّدتْ ووَصلتْ إلينا وستصِلُ مِن بعدنا إلى أبنائنا في الجيلِ الألف للبشريّة ... فلا نبيَّ يأتي بعد خاتم النبيين، ولا حكمٌ يصدر من جبريل يوقِفُ به حكمًا آخر ... وسنظلُّ مع أهل مكّة والحجاز بمستوى واحد من العلم والمعرفة، وهم أخواننا في كلّ حال!!

لقد أقرّ المسلمون النسخَ في القرآن، وأجازوا لمحمّد أن يبدّلَ في أحكامِ الله. وفي هـذا معجزةٌ لا مثيلَ لها : إنّ اللهَ يسايرُ نبيَّه المختارَ ليكون على مستوى الرسالةِ التي دعاهُ إليهـا. وبَدَلَ أن يُقال إنّ هناكَ تناقضًا في الأحكام والشرائع قيل : هناك آياتٌ تَنْسَخُ آيات. وأقول مع الدكتور أحمد شلبي : « لا أفهم معنى لآيةٍ أنزلَها اللهُ تُفيدُ حكمًا، ثم يرفَعُها مع بقاءِ حكمهـا، لأنَّ القرآن يقصد افادةَ الحكمِ والاعجازَ بنُظُمِه. فما هي المصحة في رَفْعِ آيةٍ منه مـع بقـاءِ حكمها! إن ذلك غير مفهوم. وفي رأيي إنّه ليس هناكَ ما يلجئني إلى القول به » (١٦).

ومن غير المفهوم أيضًا رفعُ الحكمِ معَ بَقاءِ آياته! ولا رفعُ الحكم والآياتِ معاً. كمـا قالت عائشة وكما قال المكّي : « فيه المنسوخ غيرُ متلوٍّ والناسخُ أيضًا غيرُ متلـوّ » (١٧) ... واختلط علينا بهذا المعتقد كل شيء. ولكن يبقى ــ الإيمانُ بالله الذي أرادَ الإنسـانَ حـرّاً، لا تقيّدهُ شريعة، ولا ينحصِرُ في عصمةِ الأنبياء.

****

---

(١٦) أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ ؟ ص ١٥٤.
(١٧) السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٢.

ثَالثاً ــ إجازة التبديل في القرآن

يتأرجح المسلمون في إيمانهم بين وجود تعديل في القرآن وعدم وجوده. فمن جهة يؤمن المسلم بأن « لا تبديل لكلمات الله » (١)، « ولن تجد لسنّة الله تبديلاً » (٢). ومن جهة ثانية يعترف القرآن بإمكانيّة تبديل آية مكان آية، ويقول : « إذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ. والله أعلم بما ينزِّل ... » (٣).

والأرجح عند المسلمين عامّة ألاّ يكونَ في القرآن شيءٌ من التبديل أو التحريف أو التناقض. ولذلك أجمعَ المفسّرون على أنّ التبديلَ في الآية السابقة يُفَادُ منه النَسْخ، فيكون معناها إذاً : « إذا بدّلنا آية ناسِخَة بآيةٍ منسوخة » .

ولكنّ الآية بكاملها : « وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آية ــ والله أعلم بما ينزّل ــ قالوا : انّما أنتَ مُفْتَرٍ ــ بل أكثرُهم لا يعلمون ــ. قل : نزّلَه روحُ القدس من ربّك بالحقّ، لِيُثَبِّتَ الذين آمنوا، وهُدَى وبُشْرى للمسلمين » . إنّها تعني، بحسب أهل التفسير : « بأنّ المشركينَ مِن أهل مكّة قالوا إنّ محمّداً يَسْخَر بأصحابه، يأمرُهم اليومَ بأمرٍ، وينهاهُم عنه غدًا، ما هو الاّ مفترٍ يتقوّلُه من تلقاءِ نفسه. فأنزلَ الله هذه الآية » (٤).

---

(١) سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر أيضًا : ٦ / ٣٤ و ١١٥ ، ١٨ / ٢٧.
(٢) سورة الأحزاب ٣٣ / ٦٢، وأيضًا : ٣٥ / ٤٣ ، ٤٨ / ٢٣ وغيرها.
(٣) سورة النحل ١٦ / ١٠١ ـ ١٠٢.

ولكنّ يبدو أنّ هذه التهمة في التبديل والتحريف قد لاحقت محمّداً طيلةَ رسالته. ونحن مع القرآن حَيارى بين تهمةٍ وَرَدِّ تهمةٍ، وبين طعنٍ وطعنٍ مضاد. واننّا لنجدُ آياتٍ كثيرةً يجهدُ محمّدٌ بها في رفعِ التهمة والطعنِ عنه. منها قوله :

« قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا، أو بدّلْه ... قل : ما يكونُ لي أن أبدّلَهُ من تلقاءِ نفسي...» [٥]. وقال أيضًا: « لا تبديلَ لكلماتِ الله. ذلك هو الفوز العظيم » [٦]. وقال : « سنّةُ الله في الذين خَلَوا من قبل. ولن تجدَ لسنّةِ الله تبديلاً » [٧] . وقال : « فلن تجدَ لسنّةِ الله تبديلاً، ولن تجدَ لسنةِ الله تحويلاً » [٨] ... الخ.

وممّا يرجّح صحّةَ تهمةِ التبديلِ أيضًا ما قرّره القرآنُ نفسُه في تخفيفِ سنّة اللهِ التي أصبحتْ فيه مبدأً قرآنيّاً وعقيدةً اسلاميّة في يُسْرِ الشريعةِ وخفّتِها على الناس. واننّا نجدُ آيات كثيرة تشير إلى ذلك. قال :

« الآنَ خفّف اللهُ عنكم، وعَلِمَ أنَّ فيكم ضعفًا » [٩] . وقال : « ويُريدُ اللهُ أن يخفّفَ عنكم، وخَلَقَ الإنسانَ ضعيفاً » [١٠] . وقال أيضًا : « ويريدُ الله بكم اليُسْرَ، ولا يُريدُ بكم العسرَ » [١١] الخ ...

---

(٤) كتاب مجموعة من التفاسير، ٣ / ٦٤١.
(٥) سورة يونس ١٠ / ١٥.
(٦) سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر : ٦ / ٣٤ و ١١٥ ، ١٨ / ٢٧.
(٧) سورة الأحزاب ٣٣ / ٦٢.
(٨) سورة فاطر ٣٥ / ٤٣، انظر أيضًا : الفتح ٤٨ / ١٥ و ٢٣، البقرة ٢ / ٥٩ و ١٨١.
(٩) سورة الأنفال ٨ / ٦٦.
(١٠) سورة النساء ٤ / ٢٨.
(١١) سورة البقرة ٢ / ١٨٥.

وحجّة ذلك انّ محمّداً هو رسول لأمّة معيّنة، لها ظروفها وأوضاعها الخاصّة : « لقد بعثنا في كل أمّة رسولاً » [١٢] ، ورسول العرب الأميّين يجب ألاّ يكونَ كرسولِ أهلِ الكتاب الراسخينَ في العلم ... وليستْ قصّةُ الإسراء والمعراج الاّ سعيَ محمّد إلى اللهِ يطلبُ منه تخفيفَ الصلاة عن أمّته، لتكون ثلاثَ مرّات في النهار، لا خمسينَ مرّة كما هي حال أمّة موسى... سأل موسى محمّداً، بعد رجوعه من عند الله : « ما فَرَضَ ربُّكَ على أمّتِك ؟ فقلتُ: خمسينَ صلاة في كل يوم وليلة. قال موسى : ارجِعْ إلى ربّك، فاسألْه التخفيفَ. فانّ أمّتَك لا تطيق ذلك ... فرجعتُ إلى ربّي فقلتُ : أي ربِّ خفّفْ عن أمّتي. فحطَّ عنّي خمسًا. فرجعتُ إلى موسى. قال : ما فعلتَ ؟ فقلتُ : قد حَطَّ عني خمسًا ... الخ » [١٣] . ولم يزل محمّد يرجعُ إلى الله ويلتقي بموسى حتى حَطَّ اللهُ عنه كلَ الصلاةِ ما عدا ثلاثاً ...

وهكذا جَرى بين الله والأمّةِ الإسلامية نوعٌ من التعاطفِ والرحمةِ بسبب ضَعفِ الإنسان ... والمسلمون، اليوم، يفتخرون ويتباهون أمام شعوبِ الأرض وأديانهم، عندما يعلنون باستمرارٍ سهولةَ الشريعةِ الإسلاميةِ وخفَّتها ويُسرَها ومسايَرتها الطبيعةَ البشريةَ وأميالَها، حتى غدا « الإسلامُ بنظرهم دينَ الفطرة، والفطرةُ دينَ الإسلام » [١٤] . وهذا من قول الله : « فطرةُ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها » [١٥].

*****

(١٢) سورة النحل ١٦ / ٣٦، انظر أيضا : يونس ١٠ / ٤٧.
(١٣) انظر قصة الاسراء والمعراج في تفسير الجلالين على سورة ١٧.
(١٤) محمد جواد مغنّية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٥١.
(١٥) سورة الروم ٣٠ / ٣٠.

ومن مسايرة أميال الطبيعة وأهوائها ما نجده في الإسلام من تحريمه للرهبانيّة، اذ هي بدعة نكراء[(١٦)] . وفي الحديث : « لا رهبانيّة في الإسلام » ، ومن حبٍّ شهيٍّ للطعام والشرب ولكن دونَ الاسراف[(١٧)] ، ومن حبِّ الشهوات من النساء والبنين[(١٨)] ، إذ هي زينة الحياة الدنيا.

وفي الأحاديث ما روى عن النبي : « ليس خيرُكم من تَرَك الدنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكن خيرُكم من أخذَ من هذه وهذه » . وأيضاً « انّما حبّبَ إليَّ من دنياكم النساءَ والطيب، وجعلتُ قرّةَ عيني في الصلاة » . وقال لرجل ابتغى العزوبة : « فأنتَ اذن من أخوانِ الشياطين. إن كنتُ من رهبانِ النصارى فألحقْ بهم. وإن كنتَ منّا فمن سنّتِنَا النِكاح » ... الخ.

*****

مهما حاول المسلمون من إبعادِ شبهة التبديلِ والتحويلِ في القرآن، فانّ شريعةَ الإسلام بَدَّلَتْ وحَوَّلتْ في شرائعِ الأنبياءِ السابقين. ولئن كانَ محمّدٌ يفتخرُ بالانتماءِ إليهم فانّه أعجزَه الأخذُ بشريعتِهم التي حرَّفَ فيها وبدّل. وأيضًا : لم يبدِّلْ محمّد في شرائع الأنبياءِ وحَسبُ، بل بدّلَ فيما أُنزِلَ عليه بين مكّة والمدينة. ولذلك اتّهمَه المتّهمون بالغشِّ والافتراءِ على الله. وكان، بالطبعِ، يردّ كلَ تهمة، وحجّتُه إنّه رسولُ أمّةٍ أمّيّةٍ بدائيّةٍ، يعجزُها اللحاقُ بأهلِ الكتاب وشرائعهم.

****

(١٦) انظر سورة الحديد ٥٧ / ٢٧.
(١٧) سورة الأعراف ٧ / ٣١.
(١٨) سورة آل عمران ٣ / ١٤.

رَابعاً ــ دسّ الشيطان في الوحي

هناك في القرآن ظاهرةٌ عجيبةٌ غريبةٌ مثيرةٌ فريدةٌ من نوعها من الكتب السماوية، وهي إمكانيّة تُدخّلِ الشيطانِ في إِلْقَاءِ التحريفِ والفسادِ على لسانِ النبي بغيرِ علمهِ. يقول :

« وما أرسلنَا من قبلِك (يا محمّد) من رسولٍ ولا نبيٍّ الاّ إذا تمنّى (قرأ) ألقى الشيطانُ في أمنيّته (قراءته ما ليس من القرآن) ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِه. والله عليم حكيم. ليَجعَلَ ما يُلقي الشيطانُ فِتنَةً (محنة) للذين في قلوبِهم مَرَضٌ (شقاق ونفاق) والقاسيةِ قلوبُهم. وإن الظالمينَ لَفِي شِقَاق بعيد. وليعلمِ الذينَ أُوتُوا العلمَ أنّه (القرآن) الحقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم (تطمئنّ) » [١] .

في تفسير الجلالين لهذه الآيات ما يثبت دسَّ الشيطان هذا : « قرأ النبي في سورةِ النجمِ بمجلسٍ من قريش بعد « أفرأيتمُ اللاتَ والعزّى ومناة الثالثة الأخرى » [٢] بالقاء الشيطانِ على لسانِه من غيرِ علمه به : تلكَ الغرانيق العُلا، وان شفاعتَهنّ لَتُرتجى، ففرحوا بذلك، ثم أخبرَه جبريلُ بما ألقاهُ الشيطانُ على لسانِه من ذلك، فَحزِنَ، فَسُلِّيَ بهذه الآية (من سورة الحجّ) » [٣] .

---

(١) سورة الحج ٢٢ / ٥٢ ـ ٥٤.
(٢) سورة النجم ٥٣ / ٢٠.
(٣) انظر الزمخشري ٣ / ١٩، وكتاب مجموعة من التفاسير ٤ / ٣١٥ ـ ٣١٩.

وفي القرآن أيضًا قوله : « ... وامّا يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ، فلا تَقْعُدْ بعدَ الــذِكرى » [٤] . معنى ذلك : وان أنساكَ الشيطانُ بعضَ ما أُنزِلَ عليك، فلا تَقْعُدْ حتى يذكّركَ الله بهِ ... ويفسّر الزمخشري بقوله : « إن شغَلَكَ يا محمد بوسوسةِ الشيطانِ حتى تَنْسَى النهيَ عــن مُجالَســةِ المستهزئين من قريش، فلا تَقْعُدْ معهم بعد أن تذكر النهي » [٥] .

إلاَّ أنّ بعضَ المسلمين المعاصرين لا يقبلون بحالٍ من الأحوال أن يكــونَ للشــيطانِ سلطانٌ أو تدخّلٌ في حياةِ النبي وفي وحيِ اللهِ إليه. لهذا يعلِّقُ خالد الحمصي الجوجا على مثلِ هذه التفاسير لأئمّةِ المفسرين بقوله : « وهذا الحديث، من ناحيةِ موضوعهِ، يصادِمُ أصلاً من أصولِ العقيدةِ الإسلاميّة، وهــو عصمةُ النبي من أن يَدِسَّ عليه الشيطانُ شــيئًا فــي تبليــغِ رسالته » [٦] . وهو يحيلنا إلى تفسيرٍ معاصر لسيدِ قطب في « ظلالَ القرآن » حيث يعصــم النبي من دسائس الشيطان وحِيَلِهِ.

ولكنّ محمّدًا كان يَعي تدخّلَ الشيطانِ في ضميرهِ ووجدانِه، فكان يلجَأ مراراً وتكراراً إلى خديجة لتفسّرَ له عمّا إذا كانَ ما يحدثُ له من الله أم من الشيطان[٧] . وقد تعجزُ خديجــةُ عن تفسيرِ كل شيء، أو قد لا تطمئنُّ كثيرًا إلى تفاسيرها، فكانتْ تذهبُ بابنِ عمّها إلى القــسِّ ورقة[٨] ، وكان القسُّ ورقة يتدبّرُ بعلمهِ ومعرفتهِ النبيَّ وما يحدُثُ له. وكم مرةً رجَعَ النبيُ إلى منزلهِ مطمئنّا » [٩] .

---

(٤) سورة الانعام ٦ / ٦٨.
(٥) الزمخشري، الكشاف ٢ / ٢٦ ـ ٢٨.
(٦) تعليق الجوجا على تفسير الجلالين، ص ٤٤٧.
(٧) انظر كتاب قس ونبي والمراجع على ذلك، ص ٥٢ ـ ٦١.
(٨) نفس المرجع، وانظر ص ٥٢ من هذا البحث.
(٩) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٢، تفسير الطبري ٢ / ٤٩ ...

تجاه هذا الواقع المحزن الذي كان يتعرّضُ النبي له، أمرَ اللهُ رسولَه بالاستعاذة، قبل كلِ عملٍ وكلِ صلاة. ولقد يَفْتُكُ الشيطانُ بالنبيّ فَتْكاً، ويطعنُه طعنًا، وينَخَسُه، ويُفسِدُ عليه الوحيَ والتنزيل، ويستحثُّه على صنعِ الشرّ والمفاسد، ويحملُه على المعاصي ... وقل مع القرآن وبأسلوبه : ينزغنّه نزغاً، أي يلقى الفسادَ فيه ... قال : « وامّا (ان ما) يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ انه هو السميعُ العليم » [١٠] .

وعلى النبي، حيالَ أمرِ الشيطان معه، أن يصلّي إلى الله لينجّيَه من تجاربِ الشيطان : « قلْ : ربِّ، أعوذُ بكَ من همزاتِ الشياطين » [١١] . وعند قراءة القرآن لا بدّ من الاستعاذة من الشيطان : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم » [١٢] . والأمر بالاستعاذة جاء قبلَ الأمرِ بالاستفتاحِ باسمِ الله الرحمن الرحيم. وحتى اليوم يستهلُّ القارئ قراءَته بـ « أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيم » ، ثم يكمِّلُ البسملة ...

وخشيةُ تدخّلِ الشيطانِ في الوحيِ لم تكنْ عندَ النبي وَهْمًا، فمحمّد يردُّ التهمةَ عنه باستمرارٍ، ويَدْفَعُ عن القرآنِ تهمةَ دسائسِ الشيطان فيه. يقول : « وما تنزلّتْ به الشياطينُ، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون. إنّهم عن السمْعِ لَمَعْزولون » [١٣] . ويقول أيضًا : « وما هو بقولِ شيطانٍ رجيم » [١٤] ، وأيضًا : « وكذلك جَعَلنا لكلِّ نبيّ عدوًا شياطينَ الإنسِ والجنّ، يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غروراً. ولو شاءَ ربّك ما فَعَلُوه » [١٥] .

(١٠) سورة فصّلت ٤١ / ٣٦.
(١١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٩٧.
(١٢) سورة النحل ١٦ / ٩٨.
(١٣) سورة الشعراء ٢٦ / ٢١٠ ـ ٢١٢.
(١٤) سورة التكوير ٨١ / ٢٥.
(١٥) سورة الانعام ٦ / ١١٢.

*****

لو أنّ للشيطان سلطانًا على النبي وَحَسْبُ، لَهَانَ الأمرُ، فالنبيّ إنسانٌ كسائرِ الناس، له أميالُه وشهواتُه ورَغَباتُه وأهواؤُه الطبيعيّةُ كلُّها كاملةٌ. إنّه أيضًا كسائرِ الأنبياء والرسل، يتعرّضُ لمفاسدِ الشيطان وحِيَلِهِ، فالملائكة في الجنّةِ نَزَغَ الشيطانُ بينهم، وآدمُ أسقطَه الشيطان في حبائِله، وداوودُ وسليمانُ وأيّوبُ ومعظمُ النبيين حثَّهم الشيطانُ إلى المعاصي ... والمسيحُ، فيما هو بنظر المسيحيين إلهٌ كلّيُ الكمال، جَرَّبَهُ الشيطانُ في البرّيّة ... ومحمّد لن يكونَ أحسنَ حالاً منهم ... إنّه أمر واقعٌ لا محالة.

الاّ أنّ للشيطانِ تدخّلاً في القرآن! له كلامٌ مدسوس في كلام الله! أو أقلَّه يُخْشَى أن يكونَ له ذلك، لأنّ النبيَّ نفسَه خشيَ ذلك ... وخشيتُنا اليومَ أكبر. أهيَ محنةٌ لنا منَ الله لكي نعملَ باستمرارٍ على تمييزِ الحقِّ من الباطلِ! أهيَ رِفعَةٌ للإنسانِ لكي يكونَ متأهِّبًا حَذِرًا! أهيَ فضيلةٌ للإنسان بأنْ يَسعى إلى طردِ الشيطانِ كلَّ مرّة قامَ للصلاة!

ما رأيُ المسلمين اليوم إذا كانَ هذا الشيطانُ المسكينُ هو نفسُه الإنسانُ المتشيطِن! أليسَ الإنسانُ بحِيَلِهِ أمهرَ من أمهرِ شيطان! الحقيقةُ إن ذكاءَ الإنسانِ أوجَدَ الشيطانَ ليريحَ صاحِبَه. بهذا رفعَ عنه مسؤوليّةَ كلِ شرٍّ وفساد. ولعلَّ الشيطانَ الرجيم أسودَّ وجهُهُ لكثرةِ مَا حَمَّلَهُ الإنسانُ من شرورِه! مَنْ يَدرِي إذا لم يكنِ الشيطانُ قابعًا في نفس كلّ إنسانٍ يُدغدِغُه ليتحمَّلَ عنهُ مسؤوليّةَ شرّهِ! في ظنّي أنَّ أجملَ ما خلقَ الله هو الإنسان، وأجملَ ما خلقَ الإنسانُ هو الشيطان. وقد يتحمّلُ محمّدٌ نفسُه ما دسَّهُ الشيطانُ في كتابِ الله.

خاتمة الفصل

إنّ مَن يستعرضُ حياةَ النبيّ محمّد في صَخَبِها ونشاطِها وكثرةِ التحرّكِ فيها لَيَعجَبُ تمامَ العجَب من رجلٍ « أمّيٍّ » يجهلُ الكتابة والقراءة ــ على ما يقوله المسلمون ــ كيفَ استطاع حِفْظَ ٦٦٣٦ آية مؤلّفة من ٧٧٩٣٤ كلمة ومن ٣٢٣٦٧١ حرفًا ... لو لم يكن هناك معجزةٌ من السماءِ لما استطعنَا فهمَ حَدَثٍ هو بهذه الأهمّيّة في التاريخِ البشري!

لقد تمّتِ المعجزةُ رغمَ صعوباتٍ عديدة. ولكثرةِ الصعوبات كانت المعجزة. فبعد الذي رأيناه من ضَعفٍ في ذاكرةِ النبي وعقلهِ، ومِن نَسخِه بعضَ الآيات ليأتي بغيرها، ومن تدخّلِ الشيطانِ ودسِّه في الوحي الإلهي، ومن إجازةِ محمّد للتبديلِ في الوحي بحسبِ ضَعفِ الإنسانِ العربي ووهنِ طبيعتهِ وكثرةِ أهوائها وأميالها ... كلّ هذه جعلتِ المعجزةَ جائزةً بل واجبةً على اللهِ، لكي يتمكّنَ محمّدَ من حفظِ كل الوحي.

وبعد حياة كانت مليئةً بالحروبِ والغزوات والجهادِ والمغانم والأسرى والسبايا... وبعد حياة بيتيّة فقيرةٍ تعيسة، تتعدّد فيها الزوجاتُ والنساءُ فتتعدّدْ طبعًا المشاكلُ والخصومات... وبعد هجراتِ إلى الحَبَشة مرّتين وإلى الطائفِ ثم إلى المدينة، والهربِ ليلاً بخدعة ماكرةٍ لكفّار قريش... بعد كلَ هذا الصَخَب لا بدّ من معجزة لكي يتمكّن النبيّ من حفظ ما يوحي الله إليه...

إنّ مثل هذه المعجزة اقتضت من الله أن يُفَرِّغَ جبريلَ من كلِ عملٍ أو رسالةٍ أو مهمّة ليتفرّغَ لمحمّد. وقد اقتضَى لجبريل ثلاثٌ وعشرون سنة ينزّلُ القرآن فيها منجّماً، آيــةً آيــةً، ليتمكّنَ محمّدٌ من حفظها. وكم نَحْسدُ صَبْرَ جبريل وتَصَبُّرَه على رجلٍ أمّيّ يُلَقّــنُ كــلامَ الله ويَتعلّم كلَّ ما عند الله من علوم وقوانين ...

ليس منَّا مَن ينكر قولَ الله تعالى : « إنّا نحنّ نزّلنا الذكرَ وانّا له لحافظون » (١٥ / ٩)، ولكن هل هذا يعني أنّ محمّدًا حفظَ الذكَر كلَّه بقــوّةِ عقلــهِ واتّقــادِ ذاكرتــه، أم إنّ اللهَ استحفظَه ايّاه، فكان محمّدٌ وفيّاً لما استحفظَه من جبريل، ولم يبدّلْ فيه، بمعجزةٍ لا مثيلَ لهــا، أمرًا من أمور الوحي! إنّ المعجزةَ تمّت ولكن لا نعرف كيف وأين!

هناك معجزة وهي ذاك « اللوح المحفوظ » . ولكن هذا اللوح يحفظ الوحي حفظاً تامّاً كاملاً. وكل مرّة كانتِ الذاكرة تخونُ محمّداً كان محمّد يرجع إلى ذلك اللوح، فيقرأ وينزّل منه ما يناسب ... ومن السهل على المسلمين القول بأن هذا اللوح موجود في « الأفق الأعلى » ، ولكن ليس من السهل علينا الوصول إلى « الأفق الأعلى » قبل البحث في هذا الأفق التاريخي الأدنى لنرى حقيقةَ معجزةِ حفظ القرآن!

وبتعبير أوضح : إن المسلمين المؤمنين يستطيعون رؤيةَ المعجزة أينما أرادوا : أكانَ الله هو الذي حفظَ القرآن! أم جبريل! أم محمّد! أم استحفظَ اللهُ وجبريلُ محمّداً وسهَرا عليــه! كلّ هذه معجزة. والمعجزة الكبرى أن يكونَ القرآنُ محفوظاً، لا في ذاكرةِ النبيّ وعقلهِ، بل في كتابٍ سابقٍ وُجِدَ في مكّة بينَ يدي القس ورقة بن نوفل وهو « الإنجيل العبراني » . فالثقــة بالكتاب في مجال حفظِ الوحي هي أفضل من الثقة بذاكرة إنسانٍ ضعيفٍ ...

الفَصْل الرَّابع

مُعْجزَة حفظ الصَحَابَة للقرآن

أَولاً ــ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

ثَانياً ــ حديث الأحرف السبعة

ثَالثاً ــ حفّاظ القرآن

مقدّمة الفصل

في اعتقاد المسلمين أنّ القرآنَ الذي أُنزلَ بمعجزة، وحُفظ بمعجــزة، سيَســتمرّ فـــي التاريخ بمعجزة : فالصحابةُ حَفِظوا القرآنَ، كلَّ القرآن، لم يُضيّعوا منه آية، ولم يَنسوا منـــه كلمة، ولم يُبدِّلوا فيه حرفاً، ولم يَتَدخّلِ الشيطانُ بحِيَلهِ ليَدسَّ عليهم شرَّه، كما تدخّلَ في النبيّ؛ لأنّ الشياطينَ أخذتْ نصيبَها من النبيّ، واستطاعَ النبيُّ عليها الغلَبَة، وهو لها؛ فيما الصحابةُ قد نَجَوا من مداخلةِ الشيطانِ خشيةَ سقوطِهم بتجاربه وحِيَلِهِ، وليستْ لهم عليـــه قـــدرة ... لهـــذا استحقَّ الصحابةُ والتلاميذُ مِن اللهِ عصمةً قد توازي عصمةَ النبي نفسِه. وبهذه العصمةِ حَفظُوا القرآنَ من كل تبديلٍ وتصحيف ...

إنّ معجزةَ حفظِ الصحابة للقرآنِ توازي معجزةَ التنزيلِ وحفظِ النبي نفسه. ولا فضلَ للنبي إن كانَ على الوحي أميناً وفيّاً صادِقاً، انّما كل الفضل يعودُ لناسٍ ضعفاء، لهم أميـــالُهم وخلافاتُهم السياسية، ويَحفظون كتابَ الله من غيرِ تحريفٍ أو تزييف ... ومع هـــذا فـــانّ اللهَ يضمن عصمةَ هؤلاء ويصطفيهم من خيرةِ العبادِ ويورِثُهم كلمتَه ليؤدّوها بأمانة. جـــاءَ فـــي الآية: « ثم أورثْنَا الكتابَ الذي اصطفَينا من عبادِنا » [1]. هؤلاءِ الوَرَثـــة يحـــافظون علـــى القرآنِ حفاظَهم على أولادِهم ومقدّساتِهم. وكلّما سمِعوا منه آيةً

(١) سورة غافر ٤٠ / ٢ ـ ٣.

انحنوا أمامها ساجدين : « انّما يؤمن بآياتِنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرّوا سُجَّدَاً، وسَبّحوا بحمــدِ ربّهم » [٢] .

هذه القدسية لن تبرحَ، في نفوسِ المسلمين، نشيطةً وقّادةً مدى الدهر، لأنّ « القــرآنَ سرُّ السماء، فهو نورُ الله في أفقِ الدنيا حتى تَزول، ومعنَى الخلودِ في دولةِ الأرضِ إلـــى أن تَدول » [٣] . ولئن كانتْ معجزةُ القرآن الأولى في بَيَانِه وسحرِهِ، فمعجزتُه الثانية هي بخلودِه واستمراريّتهِ[٤] .

ولكنّنا، إذا تخطّينا هذا السحرَ الخالدِ، وتوقّفنا على سرِّ حفظِ القرآن وكيفيته، لا بدّ لنا أن نسأل : هل حفظَ الصحابةُ كلَ القرآن ؟ أم نَسوا منه شيئاً! هل أجمَعوا على ما حفظوا، أم انّهم اختَلفوا فيما جَمَعُوا! وبمعنى آخر : هل عَصَمَ اللهُ الصحابةَ من التحريفِ والتبديلِ والزيادةِ والنقصان، كما عَصَمَ الرسول، أم انّ الأهواءَ البشريّةَ والمصالحَ السياسيّةَ والأميالَ الشخصيةَ استبدَّتْ بهم وساهمتْ في عمليةِ حفظِ القرآن ؟

إنّ جوابَ الإيمانِ والوحي والأتقياء من المسلمين لا مشكلَة فيه : اللهُ عملَ ويعملُ على حفظِ كتابهِ. ولكنَّ جواب التاريخِ يَضَعُنَا أمامَ عصمةِ أكثرِ مِن أربعين رجلاً متّعهم المســلمونَ بالعصمة. هؤلاء، رغم خلافاتِهم المعروفة، وانتماءاتِهم القَبَلِيَّةِ المتنافِسة، واتّقادِ العصبيّاتِ فيما بينهم ... يَنعَمون بعصمةِ الله، ويُجري اللهُ على ألسنتهِم وأيديهم معجزةً لا مثيلَ لها في تاريخ العالم ... كلُّ شيء في الإسلام معدٌّ لأن يحفظَ اللهُ كتابَه، مهما كلّفَه الــثمن مــن المعجــزات والعجائب ... فالأمرُ في غاية الأهمّيّة. ولننظر :

---

(٢) السجدة ٣٢ / ١٥ ، انظر : ١٩ / ٥٨ ، ٢٥ / ٧٣ ، ١٧ / ١٠٧.
(٣) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣١.
(٤) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

أَولاً ــ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

في إيمان المسلمين أنّ الله حفظَ القرآنَ من كل نقصٍ أو زيــادة، ومــن كــل عِــوج واختلاف ... ولكنّ في تاريخِ المسلمين إشاراتٍ واضحةً صريحةً إلى ما في القرآن من نقصٍ وزيادة ونسيان وتصحيف وتغيير ... واحتكمَ المسلمون، لحلِّ هذا الخلاف، إلى معجزةٍ أجراها اللهُ في الصحابة فعصَمَهم من كل ما يَتّهِمُهم به التاريخُ من نواقصَ في كتابِ الله العزيــز ... وليس لنا، أمامَ مشكلةٍ عويصةٍ ودقيقةٍ كهذه، أيُّ حلٍّ يُرضي الإيمانَ والتاريخَ معاً. جلّ ما لدينا استعراضُ المسألة، من وجهتِها التاريخيّة، التي يجهلُها معظمُ المسلمين، والتي يُخفِيها علمــاءُ الشريعةِ ببراعةٍ لا مثيلَ لها، وقد يفسّرون ما فيها بحنكةٍ ترى معها وفاقًا تامًّا بــين مــا فــي الإيمان ومعطياتِ التاريخ ... ولن يُعجزنَا الرجوعُ إلى النصوصِ كما هي، فهي الحَكَم، وإليها الاحتكام. ومَن يقرأْ ويفهمْ يُدرِكْ بُعْدَ المعجزة.

*****

عن نافع عن ابن عمر قال : « لا يقولنَّ أحدْكم قد أخذتُ القرآنَ كُلَّهْ. وما يدريه مــا كُلُّهْ! قد ذَهَبَ منْهُ قُرآنٌ كَثِيْر. ولكنْ لِيَقُلْ قد أَخَذْتُ منهُ مَا ظَهَر » [٥] .

(٥) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٥.

* قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : « ألم تجدْ في ما أُنزِلَ علينا : أن جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة! فانّا لا نجدُها! قال : أُسْقِطَتْ فيما أُسْقِطَ مِنَ القُرآن » [٦] .

* وعن ابن سفيان الكلاعي أن مسلمة بن مخلد الانصاري قال لهم ذاتَ يوم: « أخبروني بآيَتَينِ في القرآنِ لَمْ يُكْتَبَا في المصحف. فلم يُخْبِرُوه » [٧] .

* وروي عن أُبَيّ بن كعب، باخراجِ الحاكم، أن رسولَ اللهِ قالَ لي : ان اللهَ أمرني أن أقرأ عليكَ القرآن، فَقَرأَ ... ومن جملةِ ما قرأ ـ مَا لا نجدُه في المصحفِ اليوم ـ : « لو أنَّ ابن آدم سألَ واديًا من مالٍ فأعطيه. سأله ثانياً. وإن سألَ ثانيًا فأُعطيه. سأله ثالثاً. ولا يملأُ جَوفَ ابنِ آدم الاّ التراب. ويتوبُ الله على مَن تاب ... » [٨] .

* وروي عن أبي موسى الأشعري، قال : « كنّا نقرأُ سورةً نشبّهها بإحدى المُسبحَات ممّا نَسَيْنَاهَا. غير أنّي حفظتُ منها : يا أيّها الذين آمنوا! لا تقولوا ما لا تفعلون، فتكتب لكم شهادةٌ في أعناقِكم، فتُسألون عنها يوم القيامة » [٩] .

* وجاء عن مسلم « إنّ أبا موسى الأشعري قال مرّة لخمسمائة من القراء بالبصرة : انّا كنّا نقرأُ سورةً بطولِ السَهم وحدَها. أمّا الآن فَقَدْ نَسِيْتُهَا ما عدا بعضَ آياتٍ منها... » [١٠].

(٦) الاتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٥.
(٧) نفس المرجع.
(٨) نفس المرجع.
(٩) نفس المرجع.
(١٠) أوردها الأستاذ الحداد في القرآن والكتاب ٢ / ٢٠٥.

* عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : « كانتْ سورةُ الأحزابِ تُقْرَأُ في زمن النبيّ مائَتَي آية. فلمّا كتَبَ عثمانُ المصاحفَ لم نقدر منها الاَّ مَا هو الآن » (أي ٧٣ آية فقط)[١١] .

* وعن أُبيَّ بن كعب أنّه سأل درَّ بن حُبيش : « كم تَعُدُّ سورةَ الأحزاب ؟ قال : اثنتين وسبعين آية، أو ثلاثة وسبعين آية. قال : ان كانتْ لَتَعدِلَ سورةَ البقرة (أي ٢٨٦ آية). وانّا كنّا لنقرأ فيها آيةَ الرجم. قال : وما آيةُ الرجم ؟ قال : « إذا زَنَى الشيخُ والشيخةُ فارجموهما البتة نكالاً من الله. والله عزيز حكيم ... » [١٢] .

* وعن حميدة بنت أبي يونس قالت : « قرأَ عَلَيَّ أبِي وهو ابنُ ثمانين في مصحفِ عائشة : « إن الله وملائكَتَه يُصلّونَ على النبي : يا أيّها الذين آمَنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً وعلى الذين يُصلّون في الصفوفِ الأولى » ... قالت: وذلكَ قَبْل أَنْ يُغيِّرَ عثمانُ المَصَاحِف » [١٣] .

* أمّا مجموعُ سُوَرِ القرآن، فهي الآن ١١٤ سورة؛ ولكنّها كانت في مصحف ابن مسعود مائة واثنتي عشرة سورة، « لأنّه لم يكتبِ المعوذَتَين » ، وفي مصحف أُبَي بن كعب مائة وستّ عشرة سورة، « لأنه كتبَ في آخره سورتَي الحَفْدِ والخَلْع » [١٤] ، وفي مصحفِ عليّ بن أبي طالب زيادة سورة « النُورَين » وتغييرٌ في موضعِ السُوَرِ والآياتِ ... الخ[١٥] .

(١١) الاتقان ٢ / ٢٥.
(١٢) انظر ما جمعه محمد دروزة عن نصوص آية الرجم المختلفة، في كتابه القرآن المجيد، ص ٥٨.
(١٣) الاتقان ٢ / ٢٥.
(١٤) الاتقان ١ / ٦٥ ، انظر فيها نصّي سورتي الحفد والخلع.
(١٥) انظر نص سورة النورين في دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٠ ـ ٦١. وانظر أيضًا فصلي الاتقان ١ / ٦٤ ـ ٧٠ و ٢ / ٢٢ ـ ٢٦.

* وهكذا أيضًا نجد اختلافًا واسعًا في قراءة كثيرٍ من الآياتِ التي نعجزُ عن حصرِها. ومن أرادَ اثباتًا وتبيانًا فليرجع إلى السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن. ومن أراد مثلاً بسيطًا عليها سهلَ المنالِ فليقرأ محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦١ ــ ٦٢ ... الخ.

*****

لم يُعجز المسلمين وجودُ حجّةٍ إلهيّةٍ لتفسير هذا الخلاف الكبير في كتاب الله! لقد فسّروا ذلك بقولهم : بالنسْخِ، وقد أشرنا إليه، وبأنّ الله تدخّلَ في ذاكرةِ الصحابة فأنساهم ما يجب أن يَنسوا. ومن ذلك قول أبي بكر الرازي الذي أكّد بأنّ الله يُنسِي الصحابةَ ما يُريد أنْ يُنسيَهم إيّاه، ويَرْفَعَهُ من أوهامِهم، ويأمُرَهم بالإعراضِ عن تلاوتِه، وكَتْبِهِ في المصاحف، فيندَرس على الأيامِ كسائرِ كتبِ اللهِ القديمةِ التي ذكرَها في كتابه في قوله : « إن هذا لَفِي الصحفِ الأولى صحفِ ابراهيم وموسى » (١٦)، ولا يُعْرَفُ اليومَ منها شيءٌ » (١٧).

لئن كان النسيان نقصًا في ذاكرة البشر، فانّه، لدى الصحابةِ، نعمةٌ الهيّةٌ ومعجزةٌ من السماء. يتدخّلُ اللهُ ليُنسيَهم ما يجبُ أن يَنسوه، ويَرْفَعُ من أوهامِهم ما يجب أن يُرْفَع! إنّ ذلك أمرٌ لا يُدركُ بعقلٍ بشريٍّ محدود الآفاق! وحدَه الله يجعلُ من النقصِ فضيلةً، ومن النسيانِ معجزةً، ومن التخلّفُ رقِيًّا، ومن النسخِ والتحريفِ حِكْمةً، ومن الضعفِ قوّةً ... وليس علينا، نحنُ المساكين العاجزين، الاّ التمسّكُ بالإيمانِ والخضوع!!!

******

(١٦) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩.
(١٧) الاتقان ٢ / ٢٦.

ثانياً ــ حديث الأحرف السبعة

بسبب نسيان صحابة النبي بعضِ آيات القرآن، وبسببِ ضعفِ ذاكرتهم، وبسببِ تخلّفهم عن كثيرٍ ممّا نُسِخَ وبُدِّلَ، وبسببِ بعضِ التحريف والتصحيف ... أَوْجَدَ المفسّرون للقرآنِ والمحدِّثون بأحاديثِ النبيّ حديثًا طريفًا وخطيراً على لسانِ محمّد، وأجمعوا على صحّته. جاء فيه قوله : « أُنْزِلَ القرآنُ على سبعةِ أَحْرُف » . وهو حديثٌ شائعٌ متواتر، نقلته جميعُ كتبِ الحديثِ والتفسيرِ والتاريخ، وأجمعَ عليه أحدُ وعشرون صحابياً ثقة[١] .

وأُضيفَ على هذا الحديثِ توضيحاتٍ متعددةً ومختلفة. فمنهم مَن زادَ عليه: « ... فاقرأوا ما تيسَّر منها » . ومنهم : « ... كلُّها شافٍ كافٍ ... أيّها قَرَأْتَ أَصَبْتَ. فمن قرأ منها حرفًا فهو كما قرأ. فأيّما حرفٍ قرأوا فقَد أصابوا ... كلّها شافٍ كافٍ ما لم يختمْ آيةَ عذابٍ برحمةٍ، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب ... » الخ[٢] .

---

(١) يعدد السيوطي أسماء من أجمعوا على صحة الحديث : أبيّ بن كعب، أنس، حذيفة بن اليمان، زيد بن أرقم، سمرة بن جندب، سلمان بن صرد، ابن عباس، ابن مسعود، عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان، عمر بن الخطاب، عمرو بن أبي سلمة، عمرو بن العاص، معاذ بن جبل، هشام بن حكيم، أبي بكرة، أبي جهم، أبي سعيد الخدرى، أبي طلحة الانصاري، أبي هريرة، أبي أيوب. (الاتقان ١ / ٤٥).

(٢) انظر الطبري في تفسير ١ / ٢٠ ـ ٤٥، والشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٢، والحواشي في الصفحات ... وغير كتب حديثة.

ويبدو أنّ جميعَ العلماءِ المسلمين يأخذون بحديثِ الأحرفِ السبعة، ويعتمدون عليه في شرحٍ ما تعسَّر تفسيرُه، وفي تفسيرِ ما اختُلِفَ فيه. وقال القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني في ذلك : « الصحيحَ أن هذه الأحرفَ السبعةَ ظهرتْ واستفاضتْ عــن رســولِ الله (ص) وطبطَها عنه الأئمّة، وأثبتَها عثمانُ والصحابةُ في المِصحَف، وأَخبَروا بصحتِها، وانّما حَذَفوا منها ما لم يَثْبُتْ متواتِراً » [٣] .

*****

لكنّ اتّفاق الصحابة على صحّة حديثِ الأحرف السبعة لم يُظْهِر، من حيث معناه، الاّ خلافًا واسعًا وتناقضًا بيّنًا في تفسيرهِ وشرحه. وقد رفَعَ السيوطي نحوًا من أربعين قولاً متبايناً في معنى الأحرفِ السبعة. فيقول مثلاً : إن الحرفَ هو « من المشكلِ الذي لا يُدرى معنــاه، لأنّ الحرفَ يصدقُ، لغةً، على حرفِ الهجاء، وعلى الكلمةِ، وعلى المعنى، وعلى الجهة » . ثمّ انّه « ليسَ المراد بالسبعةِ حقيقةَ العدد، بل المرادُ التيسير والتسهيلُ والسَعَة. ولفظُ الســبعة يُطلق على إرادةِ الكثرة ... ولا يُراد العدد المعيّن » . وهكذا ...[٤] .

*****

ومع اختلاف الصحابةِ في معنى الأحرفِ السبعة نرى المسلمين مُجِدّين فــي البحــثِ عمّا جعلَهم يختلفون في فهمِ القرآن وقراءتهِ على أوجهٍ عديدة، وكلّها صحيحة. وبذلك فسّروا تعدّدَ القراءاتِ وأجازوها، رغم تصريحِ القرآن بأنّه نزلَ بلسانٍ عربيّ مبين، وباعجازٍ لا مثيل له. وعندنا،

(٣) الزركشي، البرهان ١ / ٢٢٤.
(٤) السيوطي، الاتقان ١ / ٤٥ ـ ٤٩.

في كتب التفاسير والأحاديث، أمثلةٌ واضحةٌ كثيرةٌ عن اختلافِ القرّاء بحضرة النبيّ نفسِه في مختلف طرقِ القراءة وقد أجازها النبيّ كلَّها.

* ويعطينا البخاري ومسلم صورةً عن هذا الخلاف، فيقول البخاري : « إن عمر بن الخطاب (ر) قال: « سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأُ سورةَ الفرقانِ في حياةِ رسول الله (ص)، فاستمعتَ لقراءته، فإذا هو يقرؤَها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئْنِيْهَا رسول الله (ص)، فكــدتُ أساورُه في الصلاة، فانتظرتُه حتى سلّم، ثم لَببتُه بردائه أو بردائي، فقلتُ : من أَقْــرَأَكَ هــذهِ السورةَ ؟ قال : أَقرأَنيها رسول الله (ص). قلتُ له : كَذِبْتَ، فــوالله ان رســولَ الله (ص) أقرأني هذه السورةَ التي سمعتُك تقرؤُها، فانطلقتُ أقودُه إلى رسولِ الله (ص)، فقلــتُ : يــا رسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يَقرأُ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقْرِئْنِيَها، وأنت أقرأْتَني سورةَ الفرقان! فقالَ رسولُ الله (ص) : أَرسِلْهُ يا عمر، إقرأْ يا هشام. فقرأَ هذهِ القراءةَ التي سمعتُه يقرؤُها. قال رسولُ الله (ص) : هكَذا أُنزِلَتْ. ثم قالِ رسول الله (ص) : إنّ هــذا القــرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ. فاقرؤوا ما تَيسَّر منه » [٥] .

يعلّقُ الأستاذُ الحداد على هذا الحديث بقولهِ : « هذا الحديثُ يُشعِرُ بأنَّ الاختلافَ فــي النصِّ بلغَ مبلغًا كادَ منه عمر أن يقتلَ صاحبَه، ويشهدُ بأن الاختلافَ في القراءة، ليسَ فقط من القرّاءِ، بل هو أيضًا من النبيّ نفسِه الذي يثبت قراءَتَين ونصَّين معًا. وهذه القصةُ تجري مــع عمر نفسِه الذي سوفَ يُشيرُ بتوحيدِ النصِ عند استفحالِ الأمرِ في زمنِ أبي بكر. فــالاختلافُ في النص يعودُ إلى النبي وأركانِ صحابته » [٦] .

---

(٥) صحيح البخاري ٦ / ١٨٥، انظر تفسير الطبري ١ / ١٠، ومسند أحمد ١ / ٢٤، والبرهان١ / ٢١١، والاتقان ١ / ٤٩ ...
(٦) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ٢ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

* وينقل إلينا الطبري عن زيد بن أرقم هذه الرواية : « جاءَ رجلَ إلى رسول الله (ص)، فقال : أقرأني عبدُ الله بن مسعود سورةً، أقرأنيها زيدٌ، وأقرأنيها أُبيَّ بن كعب، فاختلفتْ قراءتهم. فبقراءةِ أيِّهم آخذ ؟ قال : فسكتَ رسولُ الله (ص)، وعَلِيٌّ إلى جنبهِ، فقالَ عَلِيٌّ : لِيَقْرأْ كلُ انسانٍ كما عُلِّمَ. كلٌّ حَسَنٌ جَمِيْل » (٧) .

* وروي عن أُبيّ بن كعب قال : « دخلتُ المسجدُ فصلّيتُ فقرأتُ (سورةَ) النحلِ. ثم جاءَ رجلانِ فقرآهَا خِلافَ قراءتِنا، فدخلَ نفسي مِن الشكِّ والتكذيبِ أشدُّ ممّا كنتُ في الجاهلية. فأخذتُ بأيديهما، فأتيتُ بهما النبيّ (ص)، فقلتُ : يا رسولَ الله، استقرِئ هذين. فقرأ أحدّهما فقال : أَصبتَ. ثم استقرأ الآخر، فقال : أَصَبْتَ. فدخلَ قلبي أشدُّ ممّا كان في الجاهليّة من الشكِّ والتكذيب. فضربَ رسولُ الله (ص) صدري، وقال أعاذَك الله من الشكِ وأَخْسَأَ عنكَ الشيطان » (٨) .

* * * * *

هذا قليل جدّاً ممّا رواه مسلم والبخاري والطبري والسيوطي وأحمد في مسنده والزركشي وغيرهم في اختلاف الصحابة في قراءة القرآن. وقد كرّسَ حديثُ « الأحرف السبعة » ، الذي أوجدوه على لسانِ النبيّ، هذا الخلافُ بينهم. كما اعتمدوا، على النبيِّ نفسِه، لتكريس هذا الخلاف. فمحمّد نفسُه أجازه، وسمحَ لصحابتهِ بتعدّدِ القراءات.

فجاء على لسان أَبي العالية حديثٌ قال فيه : « قرأَ على رسول الله (ص) من كلِ خمسةٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللغةِ، فرضيَ قراءَتهم كلِّهم » (٩) .

---

(٧) تفسير الطبري ١ / ٢٥.
(٨) نفس المرجع ١ / ٢٥.

ويبدو أن بعضَ الصحابة قرّروا هذا الخلافَ ورضوا به وحَرّضوا على البقاء عليه. روي عن ابن مسعود قوله : « مَنْ قَرَأَ منكم على حرفٍ فلا يتحوّلنَّ منه إلى غيره » [١٠] . ويبدو أيضًا أن رسولَ الله توسّعَ في تغييرِ بعض كلماتٍ وتبديلِها عندما سأله سائل ماذا يكتب : « أعزيــزٌ حكيم ؟ أو سميعٌ عليم ؟ » ، فقال الرسول : « أيّ ذلك كتبتَ فهو كذلك » [١١] .

كل هذا « يفيد أنّ القرآنَ لم يكنْ في كتابتهِ ومصاحفِه وصُحُفهِ المتداوَلةِ، وفي قراءتِه، محَرّرًا، بحيثُ يؤمن معه ذلك الخلاف » [١٢] . ويفيد أيضاً أنّ الاحتكامَ إلى النبــيّ لــم يُجْــدِ الصحابةَ المختلفين نفعًا، لأن الرسولَ « أمَرَ كلَ امرئٍ منهم أن يقرأَ كما عُلِّــمَ حتــى خــالَط بعضُهم الشكَّ في الإسلام لما رأى من تصويبِ الرسولِ قراءةَ كلِ قارئٍ علــى خِلافِهــا مــع غيرِها » [١٣] .

وتفيدُ أيضاً، على ما علّقَ الطبري على الآية : « أفلا يتدبّرون القرآن » [١٤] ، بــأنّ الخلافَ كانَ بين الصحابة لا على الألفاظِ والمباني بل على المعاني والأحكامِ. قال : إن هــذه الآية إنّما « تقصد اختلافَ المعاني والأحكام، لا اختلافَ الألفاظِ والتعابير، بــدليلِ اخــتلافِ الصحابة، كلٌّ في قراءتِه، وتصويبِ النبي لهم جميعًا » [١٥] . ولو كان الاختلافُ في الألفــاظِ وحسب، لِمــَا « خالَط بعضُهم الشكَّ في الإسلام » [١٦] ، ولِمــَا اقتتلوا فيما بينهم [١٧] ، ولِمَا « اختُلِفَ في معنى هذا الحديثِ على نحو أربعين قولاً » [١٨] ...

(٩) تفسير الطبري ١ / ٥٤.
(١٠) نفس المرجع ١ / ٥١ و ٥٢.
(١١) نفس المرجع ١ / ٥٤.
(١٢) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٢.
(١٣) تفسير الطبري، ١ / ٤٨ ـ ٤٩.
(١٤) سورة النساء ٤ / ٨٢.
(١٥) تفسير الطبري ١ / ٤٨.

ومع هذا الاختلاف الواضح والخطير، لا بدّ من التنبيهِ إلى موقــف بعــضِ العلمــاء المسلمين الذين يصرّون على أن الاختلافَ هو في الألفاظِ والتعابير، لا في المعاني والأحكام. وعبّروا عن ذلك بقولهم : إن اختلافَ اللفظِ لا يحدّه سوى تناقض المعنـــى، مثــل أن تجعــلَ المغفرةَ عَذَابًا، والعذابَ مغفرةً. فيكونُ المقصودُ، عندهم، المحافظةَ على سلامةِ المعنى ولــو اختلفتِ الألفاظ ...

*****

ولكنّنا نسأل : كيف يتفق حديثُ الأحرف السبعة، بمعانيه المختلفة، مع معجزةِ إعجاز القرآن، ومعجزة حفظهِ ؟ ثم، لئن سلّمْنا بصحّةِ الأحرفِ السبعة ونسبتِها إلى النبـــيّ، فلمـــاذا، اذن، أسقَطَها عثمان بن عفّان، ومنع تلاوتَها ؟ ويؤكّدُ الطبري بقوله : « إن الأحرفَ الســـتة الأُخَر أسقَطَهَا عثمان، ومنعَ تلاوتَهَا، ولا حاجةَ بنا إلى معرفتِها » ، « لأنّ الحكمة في جميع الناس على حرفٍ واحد، والصوابَ ما فَعَلَ عثمان » (١٩) .

ولو كانتِ الأحرفُ السبعةُ رُخْصةً نبويّة، فلماذا اقتتلَ الناسُ بسببها ؟ ونحن نسمعُ عن أنسِ بن مالك هذه الرواية، قال : « اختلفوا في القرآن على عهدِ عثمان حتى اقتتــلَ الغلمـــان والمعلّمون. فبلغ ذلك عثمانَ بن عفّان فقال : « عندي تَكذِبون به، وتَلحنون فيه ؟! فَمَنْ نـــأى عنّي كانَ أشدَ تكذيباً، وأكثرَ لَحْنًا. يا أصحابِ محمّد اجتمعوا، فاكتبُوا للناسِ إمَامًا. فاجتمعوا

(١٦) تفسير الطبري، ١ / ٤٧ و ٥٣.
(١٧) الاتقان ١ / ٥٩.
(١٨) الاتقان ١ / ٤٥.
(١٩) تفسير الطبري، ١ / ٦٦، و ٦٣.

فكتبوا. فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أيّ آية قالوا : هذه أقرأها رسـولُ الله (ص) فلانًـا، فيُرْسَلُ إليه، وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينة، فيُقال له : كيف أقرأك رسولُ الله (ص) آيةَ كذا وكذا، فيقولُ : كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكانًا » [٢٠] .

ثم أيضًا لو كانتِ الأحرفُ السبعةُ مرخّصةً من النبي، فلماذا تخوّفَ حُذَيفَة و « قـال لعثمان أَدْرِكِ الأمّةَ قبلَ أن يختلِفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى » [٢١] .

*****

وبالنتيجة، لا بدّ من التسليمِ بصحة هذا الحديث، لإجماعِ المسلمين عليه؛ ولا بدّ أيضًا من إيجاد معنىً له يَتّفقُ فيه جميعُ المسلمين؛ لأنّ مثلَ هذا الحديث هو « بـلا ريـبٍ أخطـرُ نظريةٍ في الحياة الإسلاميّة، لأنها أسلمتِ النصَّ القرآني إلى هوى كلِ شخصٍ يثبتُه على مـا يهواه » [٢٢] .

وفي رأي المسلمين اليوم، إن الرسول « وسعَ على المسلمين في أوّلِ الأمر، وراعَى التخفيفَ على العجوزِ والشيخِ الكبير، وأَذِنَ لكلٍ منهم أن يقرأَ على حرفهِ، أي على طريقتهِ في اللغةِ، لِمَا يجدُه من المشقةِ في النطق بغيرِ لغته ... فالمرادُ من هذه الأحرف السـبعة ـــ واللهُ أعلم ـــ الأوجهَ السبعة التي وسع بها على الأمّة. فبأي وجهٍ قرأ القارئُ منها أصاب. ولقد كادَ النبي يصرّحُ بهذا كلَ التصريح حينَ قال : « أقرأَني جبريلُ على حرفٍ، فراجعتُه فلـم أَزَلْ أستعيدُه حتى انتهى إلى سبعةِ

(٢٠) الاتقان ١ / ٥٩.
(٢١) نفس المرجع، ١ / ٥٩.
(٢٢) Régis Blachère, Introduction au Coran, p. 69.

أحرف » [٢٣] .

وهكذا يرى الشيخ صبحي الصالح أنّ هذا الحديث « يبرز الحكمةَ الكبرى ... ففيه تخفيفٌ وتيسيرٌ على هذه الأمّة التي تعدّدتْ قبائلُها، فاختلفتْ بذلك لهجاتُها، وتباينَ أداؤُها لبعضِ هذه الألفاظ، فكان لا بدّ أن تُراعى لهجاتُها وطريقة نطقِها. أمّا لغاتُها نفسُها فلا موجب لمراعاتِها، لأن القرآنَ اصطفَى ما شاءَ بعد أن صهرَه في لغة قريش التي تمثّلتْ فيها لغاتُ العربِ قاطبةً لا لغاتُ قبائلَ معيّنة ... » [٢٤] .

وفي رأي ابن الخطيب أن الله « أرادَ بلطفهِ ورحمتهِ أن يجعلَ لهم متّسَعًا في اللغاتِ ومتصرّفًا في الحركاتِ كتيسيرهِ عليهم في الدين » ... وقال أيضًا : « والقراءاتُ انّما جُعِلَتْ على ألسنةِ القبائل ولهجاتِها تلطّفًا بالناسِ وتسهيلاً عليهم وتقريبًا لأذهانهم » [٢٥] .

ولكنّنا نسألُ الشيخَ وابنَ الخطيب : كيف توحّدتِ اللغاتُ في لغةِ قريش ؟ وكيف يكونُ اختلافُ اللهجات ؟ ولماذا وحَّد عثمانُ الأحرفَ على حرفٍ واحد ؟ وكيف يكونُ الاعجازُ في رخصةِ تبديلِ الألفاظِ في النصّ ؟ وكيف نزلَ القرآنُ « بلسانٍ عربي مُبين » ؟ وكيفَ نفهمُ تحدّي القرآنَ للإنسِ والجنِّ بأنْ يأتوا بسورةٍ مثل سوره ؟ وبسؤالٍ واحدٍ بسيط : كيف يكونُ الاعجازُ في القرآن وهو على هذا الاقرارِ الصريح بالاختلافِ والتباين ؟!

انّ جوابَ الشيخ الوحيد هو : إن لطفَ اللهِ ورحمتَه خفّفا على هذه الأمّةِ الأمّيّةِ الضعيفةِ المفككةِ المختلِفةِ في لغتها ولهجاتها ... وهو جوابٌ،

(٢٣) صحيح البخاري ٦ / ١٨٥، الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٢٤) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١١٣.
(٢٥) ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٣١، ٩٨.

فيه من مداراةِ أحوالِ البشر أكثرُ ممّا فيه من فهمِ حقيقةِ الوحي والنبوّة. والحقُ يقال : إن مثلَ هذا الحديثِ النبوي « يبعثُ إشكالاً ضخمًا على وَحْدَةِ القرآن مع تعدّدِ نصوصِهِ إلى سبعة، وعلى صحّةِ النصِّ العثماني بعدَ إسقاطِ الحروفِ الستة، وعلى أفضليةِ إعجازِ الحرفِ العثماني دون سواه. وهذا الاشكالُ الضخمُ تنبّهَ له أدباءُ العصر، فكانَ أهونُ ما عندهم انّهم نفوه أو كادوا » [٢٦] .

لذلك قال محمّد صَبَيح : إن « التوفيقَ بين هذه الأحاديث الكثيرةِ التي تكادُ تتفقُ في معناها، وما ذكرنا من تفسيرٍ للأحرفِ السبعة عسير. ولكنّ لِتُفْهَمِ الأحاديثُ على أيِ وجهٍ شاء الناس؛ امّا الذي نعتقدُ انّ مِنَ الخيرِ فهمَه هو عدمُ جَوازِ هذا التبديلِ والتعديلِ في القرآن : فاختلافُ الناسِ في شأنِ أحاديثٍ جمعَها المتأخّرون من المسلمين أهونُ بكثيرٍ من اختلافِهم في شأنِ نصوصِ القرآن » [٢٧] .

*****

هذا الموقف الأخير هو أيضًا خطيرٌ جدا : إنّ مثلَ اجماعِ المسلمين على حديثِ الأحرف السبعةِ لم يَحْدُثْ في الإسلام. على مثلِ هذا الحديث بُنِيَتْ في الإسلام نظريّاتٌ مرتبطةٌ بعضُها ببعض، إن ألغَيْتَه أو شَككتَ بصحتهِ، لم تعدْ تعرفِ كيفَ تفسِّرُ آياتٍ كثيرةً في القرآن، ولم تَعدْ تعرف كيف تفسّرُ « العقيدةَ والتاريخَ واللغة ... وحقيقةَ القرآن العظيم » [٢٨] ...

---

(٢٦) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢١٥.
(٢٧) محمد صبيح، بحث جديد في القرآن، ١٢٦.
(٢٨) الدكتور بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص ٧٧.

لئن « لم تُثِرْ مشكلةً من مشكلاتِ البحثِ في تاريخِ القرآن ما أثارتْه الأحرفُ السبعة، ولم يختلفِ العلماءُ في موضوعٍ مثلما اختلفوا في تفسيرِ هذه الأحرف السبعة » (٢٩)، فانّ قبولَ هذا الحديثِ، مثلُ رفضِه، فيهما خطرٌ جسيمٌ على معجزةٍ الهيّةٍ أقرَّها المسلمون قاطبة، ألا وهي معجزةُ حفظِ القرآن واعجازِه. ومهما تفادى العلماءُ المشكلةَ واستهانوا أمرَها فانّهم لواقعون في فخِّ التاريخِ الذي لا يَرحمُ لا النبيَّ ولا جبريله ...

وأيّ موقفٍ نتّخذُه من هذا الحديث، في قَبولِه أم في رَفضِه، فإنَّ معجزةَ الصحابةِ في حفظِ القرآن لن تسلمَ. في قبولهِ تسليمٌ باختلافِ النص، وفي رفضهِ رفضٌ لما أجمعَ عليه المسلمون. ولن نبقى، بين هذين الموقفين، حَيارى. والذي يقرّر موقفَنا النظرُ في حفّاظِ القرآن وجمّاعِه، هؤلاء الذين استعانَ بهم عثمانُ بن عفّان، ليحلَّ مشكلةَ الأحرفِ السبعة، مَن هم، وما هي كفاءاتهم، وما علاقته بهم ؟

فان كانَ الدافع عند عثمان حصرَ الخلاف فهو اقرارٌ بالخلاف، وان كان الدافعُ استباقَ ما يمكن ان يحدثَ من خلاف، فعثمان نبيٌّ آخر يستحقّ منّا التقديرَ والاعجاب. وبهذا لا يزال جبريلُ مستمرّاً في عملهِ ونشاطِهِ وسهرهِ على كتابِ الله العزيز.

******

---

(٢٩) نفس المرجع.

ثالثاً ــ حفّاظ القرآن

في معتقد المسلمين أنّ النبيّ « كان عليه السلام سيّدَ الحفّاظ وأوّلَ الجمّاع، وتيسّرَ ذلك لنخبةٍ من صحابتهِ على عهدِه » [١] . هؤلاء النخبة اختُلِفَ في أسمائِهم وعددِهم وأهليتِهم. وعند البخاري نفسِه « سيّدِ المحدّثين وطبيبِ الحديثِ في عَالَمِه » [٢] ثلاثُ رواياتٍ مختلِفَة :

ففي روايةٍ أولى قال البخاري نقلاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « سمعتُ النبي (ص) يقول : خذوا القرآنَ من أربعة : من عبدِ الله بن مسعود، وسالمٍ، ومَعَاذ، وأُبَـيّ بـن كَعْب » [٣] .

وفي روايةٍ ثانية نَقل البخاري عن قتادة قال : « سألتُ أنسَ بن مالـك : مَـن جَمَـعَ القرآنَ على عهدِ رسولِ الله (ص) ؟ فقالَ : أربعةٌ كلّهم من الانصارِ : أُبيّ بن كعب، ومَعاذ بن جبَل، وزَيد بن ثَابت، وأبو زيد. قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي » [٤] .

وفي روايةٍ ثالثة روى البخاري من طريقِ ثابت عن أنسٍ قال : « مات النبي (ص) ولم يَجْمَعِ القرآنَ غيرُ أربعة : أبو الدرداء، ومَعاذ بن جبل، وزَيد بن ثابت, وأبو زيد » [٥] .

---

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٥.
(٢) مقدمة صحيح البخاري، جزء ١، القول لمسلم صاحب الصحيح.
(٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٠.
(٤) نفس المرجع. انظر صحيح البخاري، الباب ١٧ من مناقب الانصار.

فالأسماء الواردة في هذه الروايات الثلاث سبعة، هم : عبد الله بن مسعود، وسالم بن مَعقل، ومَعاذ بن جبل، وأُبَيّ بن كعب، وزيدَ بن ثابت، وأبو زيد بن السَكن، وأبــو الــدرداء. والظاهر أن هذا العدد يعود إلى حديث نبوي يقول : « لا يعرِفُ القرآن الاّ سبعة » [٦] . ولكنّ بعضَ العلماء يرون لعددِ سبعة معانٍ غير محصورة. فالسيوطي، مثلاً، يذكر من المهاجرين. الخلفاءَ الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة وعبد الله بــن الســائب والعبادلة[٧] وعائشة وحفصة وأم سلمة. ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ومعاذ الذي يكنّــى أبا حليمة ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد ... » [٨] .

ويذكر القرطبي انّه « قد قُتِلَ منهم يومَ بئرِ مَعونة سبعون، وقتل في عهدِ رســول الله صلّى الله عليه وسلّم مثلُ هذا العدد » [٩] ... وفي كتب الحديثِ والسِيَر أسماءٌ عديدة يختلــفُ عدُّها باختلافِ الراوين[١٠] .

*****

هذا الخلاف يدعو إلى التحفّظ والريبة أكثر ممّا يدعو إلى الارتياح بكثرتهم. وعلــى كثرتهم نسأل : إلى أيّ مدى يمكننا الثقة بهم ؟ وإذا كنّا نمحضُ ثقتَنا بعضَهم فهل بالثقةِ نفسِها يمكننا أن نأخذَ بما حفِظَه عبدُ الله بنُ أبي سرح ؟ وهو الذي بدّلَ وحرّف! وابنُ داوود يخبرنا عن كاتبٍ

(٥) السيوطي، الاتقان ١ / ٧٠.
(٦) عن الماوردي المتوفّي سنة ٤٥٠ هـ.
(٧) هم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.
(٨) السيوطي، الاتقان ١ / ٧٢ ـ ٧٣.
(٩) انظر في الاتقان ١ / ٧١.
(١٠) انظر تذكرة الحفاظ ٢ / ٥، وتهذيب التهذيب ٧ / ٣١٥ وغيرهما.

آخر، دون ذكر اسمه، وقد بدّل في الوحي وحرّف[١١] .

ورغم كل ضعف أو نقيصة فإنّ حفظَ القرآن كانَ فضيلةَ المسلمين منذ بدء الــدعوة. وقام الحفظُ على أساسين : حفظ القلوب، والتدوين في الرقاع. ويؤكّــد ابــن الجــزري « إنّ الاعتمادَ في نقلِ القرآن كان على حفظِ القلوب والصدور، أكثر ممّا كان على خَطِّ المصاحِف والكُتبِ. وحفظُ القلوب هو أشرفُ خصيصة من الله تعالى لهذه الأمّة » [١٢] .

ويبدو أنّه، في زمن النبي، كانتِ الذاكرةُ هي المعتمَدَ الأساسي، لأنّ صاحبَها لا يحتاجُ « إلى النظرِ في صحيفةٍ كُتبتْ بالمدادِ الذي ينطمسُ ويزول إذا غُسِلَ بالمــاء » [١٣] ، وهــذا معنى الحديث المرويّ عن مسلم قال : « قال النبي إنّ ربّي قال لي إنّي منزلٌ عليكَ كتابًــا لا يغسلُه الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائمًا ويقظانَ » [١٤] ... ولكننّا نعلم ما للذاكرةِ من أوهان.

لهذا نسأل : هل الذين حفظوا القرآنَ قد حفظوهُ كلَّه ؟ إن أمثلةً عديدةً في كتبِ الحديث تشيرُ إلى وَهَنِ الاعتمادِ على الذاكرةِ. فالنبيُّ نفسه، عندما كان مارّاً بالقربِ من مجتمعٍ، سمع واحدًا يتلو مقطعًا من القرآنِ فذُهِلَ وعَرَفَ أنه كان قد نَسِيَه، وعادَ إلى ذهنـــهِ بفضـــلِ تلــك المناسبة. وهناك خبرٌ عن ابن مسعود يقول : في زمن النبي كنّا نتلو ســورةً تُشَــابِهُ ســورةَ التوبة، وإنني لا أعرفُ منها غَيبًا الاّ آيةً واحدة. تأمّل آيةً واحدة ممّا يقرب من ١٣٠ آيـــة!! ونعرف أيضا قصةَ آيةِ الرجمِ التي كانَ عمر وحدَه يعرفُها ... وغير ذلك[١٥] .

---

(١١) سنن ابن أبي داوود ٣.
(١٢) هو صاحب كتاب « النشر في القراءات العشر » ، انظر الاعلام ٣ / ٩٧٨.
(١٣) الزرقاني، منافع العرفان ١ / ٢٣٥.
(١٤) خرّجه أبو مسلم في صحيحه.
(١٥) انظر ما سبق في « النسيان النبوي » وفي « تخلّف الصحابة عن القرآن » .

وممّا يقطع بسوء الاعتماد على الذاكرة الشعورُ بضرورةِ كتابةِ القرآنِ وتدوينهِ. فلولا مفاسدُ الحفّاظِ لِمَا ألحَّ عمرُ بن الخطابِ على أَبي بكر الصديق في الإسراعِ على جمعِ القــرآن وتدوينهِ، ولِمَا تجرّأ عثمانُ على تأليفِ اللجانِ لوضعِ مصحفٍ واحدٍ واحراقِ سائر المصاحف رغم انتسابِها إلى خيرةٍ من الصحابة! فلولا اختلافُ الحفّاظِ، وموتُ الكثيــرِ مــنهم، وتعــدّدْ المصاحفِ، وكثرةُ الأحرفِ والقراءات ... لما أقدَم أبو بكر الصديق وعمــر بــن الخطــاب وعثمانُ بن عفّان على صنعِ ما لم يصنعْه رسولُ الله!!!

******

خاتمة الفصل

ما زالت معجزةُ الله وملاكِه الأمين جبريل مستمرّة : فمِن معجزةِ تنزيلِ القرآن، إلــى معجزةِ حفظِ النبيّ رغم نسيانهِ لبعض الآياتِ أحياناً وتدخّلِ الشيطان مراراً، إلى معجزةِ حفظِ الصحابةِ رغم كثرتهِم واختلافِهم السياسي والطبقِي والاجتماعي والثقافي ... نحــنُ مــع الله القديرِ الذي لن تُعجِزَه الحِيْلةُ في الحفاظِ على كتابه العزيز. ونحنُ مع جبريــل روحِ القــدس الأمين، صاحبِ البعثةِ النبويّة وساعي البريد النبويّ الطاهِر، الذي لن يتخلّى عن النبيّ لحظةً واحدةً، ولن يتركَ كتابَ الله عرضةً لأهواءِ صحابةٍ قد تتحكّمُ بهم فضائِلُ أعــرابٍ يُحرِقــون مدينةً بأمِّها وأبيها في سبيلِ كلمةِ حقٍّ صدفتْ على اللسان؛ فكيفَ بهم وهم في سبيلِ الدفاعِ عن كلامِ الله!!!

لو كانتْ مهمّةُ جبريل محدّدةً في زمنٍ معيّنٍ لَهَانَ الأمرُ عليه، ولكنّه مُلزَمٌ مــن قِبَــلِ وجدانِه الملَكي ولقدسيّةِ الكتابِ أن يبقى معنا حتى النهاية ...

الفَصْل الخَامس

مُعجزَة تَدوين القرآن وجَمْعَه

أَولاً ــ جمع الرسول للقرآن

ثَانياً ــ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

ثَالثاً ــ مصحف عثمان بن عفّان

مقدّمة الفصل

يجمع المسلمون على أنّ « القرآنَ كُتِبَ كلُّه في عهدِ رسول الله، ولكن غيرُ مجمـــوعٍ في موضعٍ واحد، ولا مرتّبُ السور » [١]. ويُجمعون أيضًا على القولِ بأنّ القرآنَ جُمِعَ ثلاثَ مرّات : إحداها بحضرةِ النبيّ، والثانية بحضرةِ أبي بكر الصديق، والثالثة في زمنِ عثمان بن عفّان[٢].

ولكن، كم من الأسئلة تُطرح علينا في هذا المجال! وكم من علاماتِ استفهامٍ يَرْسِمُها المتبصّرُ بأمور الكتابِ العزيز ونشأتِه أمامَ وجهه! وكم من صعوباتٍ باتتْ مسلّماتُ الإيمـــانِ عنها غبيّة!

هل كُتِبَ القرآنُ كلُّه في عهدِ النبيّ، أم بعضُه ؟ وما هو هذا البعض، ومَـــن كتبـــه ؟ ومتى كُتِبْ ؟ وإذا كان النبيّ « أمّيّاً » لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ، فهل الذين سمِعوا القـــرآنَ مِن فمِ الرسولِ كانوا يكتبونه حرفيّاً، أم إنّ خلافـــاً بين كاتبٍ وآخر حدثَ بعلـــمِ الرســـولِ أو بجهلهِ ؟ ثم هلْ رُتِّبتْ سُوَرُ القرآنِ وآياتُه أيّامَ محمّد، أم أنّها من عملِ الصحابةِ؛ والمســـلمون يقرّون بترتيبٍ زمنيٍ للقرآن يَختلفُ عن ترتيبه الحالي ؟

وهناك سؤال آخر يمكننا افتراضُه، وقد يكونُ مناسباً أكثر من سواه، وهو : هل يُعقَل أن يكونَ القرآنُ، أو بعضُه، سابِقًا لمحمد ؟

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٧.
(٢) نفس المرجع، ١ / ٥٧ و ٥٩.

وإذا كان قسمٌ من القرآنِ سابقاً على النبي فما هو هذا القِسمَ ؟ ومَن كَتبه ؟ وهل من دليلٍ عليه ومرجع ؟ وإذا ثبتَ ذلك، أيكونُ قرآنُ محمّد نقلاً أو ترجمةً له ؟ وما هو مَدى مطابقةِ هذه الترجمة للأصل ؟ وهل يتعيّنُ لدينا هذا الأصل ؟ وبأيّةِ لغةٍ كان ؟ ومَن وَضعَه بلسانٍ عربي مبين، في حالِ كان بلغةٍ أعجميّة ؟

كلّها أسئلة خطيرة، لا يجابُ عليها الاّ بمعجزةٍ أخرى يكمّلها لنا جبريل. واللهَ لا يعجزه مثل هذه المعجزة، وهو الذي تولّى ويتولّى أمرَ كتابه. ولا نحنُ غيرُ أهلٍ لمثلِ هذه المعجزة، لأنَّ الدين يجبُ أن يقوم مهما كلّف الأمر، إن لم يَكنْ بالإقناعِ واللينِ فبالسيفِ والجهاد المقدس.

يبقى عندنا سؤال أخير : ما هي نيّات الذين استجمعوا قِواهُم، وألَّفوا اللجان، واختاروا الرجال، ومَوّلوا المشروع، وتجرّأوا على إحراق الكتب والمصاحف ... ما هي نيّاتهم الأخيرة في جَمْعِ القرآن في مصحفٍ واحد ؟ هل في البالِ وضعُ حدٍّ للاختلاف، أم محاولةٌ لصدٍّ خلاف ؟ وما وراءَ ذلك ؟ هل توحيدُ العقيدةِ والشريعة، ومِن ثمّ توحيدُ الشِيَع والأحزاب والقبائل والعصبيات ؟؟؟

إن ثبتَ ذلك يكونُ المسلمون الأوّلون قاموا بمشروعٍ عظيم يستحقّون عليه تهنئةَ الأجيالِ ومجدَ التاريخ والنصرَ المظفّر ... ولكن، هل بهكذا جرأةٍ على تمزيقِ مصاحفِ الصحابةِ يُقضى على التشيّعِ والتحزّب والعصبية ؟ وهل، فعلاً، قُضِيَ على الشرّ ؟ يقول لنا المخبرون : ما إن توفّي رسولُ الله حتى اختلفَ المسلمون فيما بينهم : « وأوّل خلافٍ وقع منهم اختلافُهم في موتِ النبي (ص)، فزعَم قومٌ منهم انّه لم يمتْ ... ثم اختلفوا بعدَ ذلك في موضعِ دفنهِ، فأرادَ أهلُ مكةَ ردَّه إلى مكّة، وأرادَ أهلُ المدينة دفنَه

بها ... ثم اختلفوا بعد ذلك في الإمامة ... ثم في مَن يَرِثُ الأنبياءَ ... ثمّ وجوبُ مقاتَلَةِ مانِعِي الزكاة ... الخ[٣] ثمّ بعد ذلك افترقَ المسلمون ثلاثاً وسبعين فرقة، وبعد ذلك تقسّموا دُوَلاً ودويلاتٍ وأحزابًا وأشتاتاً ... ولم يزلِ الخلافُ قائماً إلى اليوم. لكأنّ الجهادَ الذي وصّى به النبيُّ على المشركين والكفارِ أصبح جهادًا فيما بين المسلمين، وقتالَ بعضهم لبعض!

فلئن كانَ مشروعُ تمزيقِ المصاحفِ و « توحيدِ الكتاب » قد تمّ، فانّ مشروعَ وَحدةِ الأمّة ما يزالُ في البال. فما هو سببُ الفشلِ إذن ؟ ونحن نعلم أن السعيَ نحو الوَحدةِ، بأيِّ شكلٍ كان، هو مطلوبُ المسلمين إلى دهر الدهور!!! إنّ شرَّ عثمان في تمزيقِ المصاحف باتَ عبئاً على ضمير هذه الأمّة. فلا المصاحفُ التي كانتْ تشيرُ إلى صورةِ المعلّمِ المحبوب تعود، ولا الوحدةُ المشتهاةُ يمكنها أن تتحقّق! لقد حدَثَ في التاريخ تزويرٌ وشرّ لن تتخطّاهما الأمّةُ لتعودَ إلى حقيقتِها المرجوّة كما كانتْ أيّامَ النبيّ العظيم ...

هذه أسئلةٌ وأمورٌ يجب أن تعالَجَ في الأساس، أي منذُ أن شرَعَ النبيُّ والخلفاءُ الراشدون في القيامِ بجَمْعِ القرآنِ وتوحيدِ الكتاب وتدوينِ المصحف. فلننظر :

******

---

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٤، « في بيان كيفيّة اختلاف الأمّة وتحصيل عدد فرقها الثلاث والسبعين » ، وأيضًا : مقالات الإسلاميين للأشعري، ص ٣٤ وما بعدها، ثم التبصير لأبي المظفر الاسفرائيني، ص ١٢وما بعدها، والبدء والتاريخ للمطهر المقدسي ٥ / ١٢١ وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢١ وما بعدها ... الخ.

أولاً ــ جمع الرسول للقرآن

في إيمان المسلمين إنّ « القرآن كان يُدَوّن، وتُرتَّب آياتُه وسُوَرُه فـي حيـاةِ محمّـد وبأمرهِ » [١] . وذلك عندما « اتّخذَ النبيُّ (ص) كتَّابًا للوحي ... وكان يأمرُهم بكتابةِ كلِ ما يُنزلُ في القرآن، حتى تُظاهِرَ الكتابةُ جَمْعَ القرآنِ في الصدور » [٢] . وكان يأمرُهم بترتيـبِ السُوَرِ بعضِها أثر بعض، ويوضعِ الآياتِ في مكانِهـا من السورِ. وبذلك يكونُ ترتيبُ القرآن « تَوقِيفِيّاً » ، أي وَقْفًا على النبيّ، لا « تَوفِيقِيّاً » ، أي بتوفيقِ الصحابة.

وعلى هذا المعتقد الإسلامي رواياتٌ ورواياتٌ في كتبِ الأخبار والحديث : لقد أخرجَ الحاكِم بسَنَدِ شرط الشيخينِ عن زيد بن ثابت قال : « كنّا عندَ رسولِ الله (ص) نُؤلّفُ القرآنَ من الرِقَاع » . وقد علّقَ البَيْهَقي على ذلك بقوله : « يُشْبِهُ أن يكونَ المُرادُ به تأليفَ ما نَـزلَ منَ الآياتِ المفرَّقَةِ في سُوَرِها، وجَمْعَهَا فيها، بإشارةِ النبيّ وبحضرتهِ » [٣] .

وروى البخاري حديثاً عن فاطمة أنّ النبيَّ أَسَرَّ إليها بأنّ جبريلَ يُعَارِضُه بالقرآنِ كلَ سنة، وأنّه عَارَضَه في العامِ الذي تُوفيٍّ فيه مَرّتين. وقال لها : ولا أراهُ إلاّ حَضَرَ أَجلِي[٤] .

(١) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٤.
(٢) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٩.
(٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٧.
(٤) نفس المرجع ١ / ٥٠، وقد أخرجه أيضاً ابن اشتة عن ابن سيرين.

وقال البغوى في شرح السنّة : « يُقال إن زيد بن ثابت شهد العُرْضَةَ الأخيرة التي بيّنَ فيها ما نُسِخَ وما بَقي، وكتبَها لرسولِ الله، وقرأها عليه، وكان يُقرئُ الناسَ بها حتـــى مـــات. ولذلك اعتمدَه أبو بكر وعمر في جَمْعِه، وولاّهُ عثمان كتْبَ المصاحف » [٥] .

*****

« وهذا يفيد انّ النبيّ كان يستعرِضُ القرآن جميعَه في رمضـــان، وانّـــه استعرَضَـــه مرّتين في رمضان الأخير، وان المصحَفَ الذي كتَبَهُ زيدٌ في عهد أبي بكر انّما كـــان وفاقًـــا لذلك نصًّا وترتيباً » [٦] .

*****

وهناك روايات لا حصرَ لها في ترتيب السور والآياتِ كما هي اليوم في القرآن، على انّها توقيفٌ من النبي. وكلُّ المسلمين يُجْمِـــعُ. على أنّ ترتيبَ الآيـــاتِ توقيفيّ لا شبهةَ فـــي ذلك » [٧] . وقد روَى الزركشي : « أمّا الآياتُ في كل ســـورةٍ، ووضـــعُ البســـملة أوائِلَهـــا، فترتيبُها توقيفيّ بلا شكٍّ ولا خلاف فيه » [٨] .

وعن الإمامِ أحمد وابن أبي داوود والترمذي والنسائي وابنِ حيّان والحاكِمِ عـــن ابـــن عبَّاس عن عثمان قال : « فكانَ (الرسول) إذا نزلَ عليه شيءٌ دعا بعضَ مَن كانَ يكتبُ له، فيقول : ضَعُوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يُذْكَر فيها كذا ... » [٩] .

---

(٥) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٠.
(٦) محمد دروزة، القرآن المجيد، ٦٩ ـ ٧٠.
(٧) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
(٨) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٥٦.
(٩) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.

وكذلك أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال : « كنت جالسًا عند رسول الله (ص) إذ شَخَصَ ببَصَرِه، ثمّ صوّبَه، ثمّ قال : أتَاني جبريلُ، فأمرَني أن أضعَ هذه الآيةَ هذا الموضعَ من هذهِ السورة ... » [١٠] وعن القاضي أبي بكر في الانتصار : « لقد كانَ جبريلُ يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضعِ كذا » [١١] . وأخرج البخاري عن ابن الزُبَيْرِ عن عثمان قال: « لا أُغَيِّرُ شيئًا من مكانِه » [١٢] .

وقال القاضي أبو بكر : « الذي نذهبُ إليه إنَّ جميعَ القرآن الذي أنزلَهُ اللهُ وأمرَ بإثباتِ رَسْمِهِ ولم يَنسخْه ولا رَفَعَ تِلاوتَه بعدَ نزولِه، هو هذا الذي بينَ الدفتين الذي حواه مصحفُ عثمان، وإنه لم يَنقُصْ منه شيءٌ، ولا زيْدَ فيه. وإنّ ترتيبَه ونَظْمَه ثابتٌ على ما نَظَّمَهُ اللهُ تعالى ورَتَّبهُ عليه رسولُه من آي السُوَر، لم يُقدِّمْ من ذلك موخَّر، ولا أُخِّر منه مُقدَّم. وإنّ الأمّةَ ضَبَطتْ عن النبي (ص) ترتيبَ آي كلِ سورةٍ ومواضِعِها وعَرفتْ مواقعَها » . وبهذا المعنى أيضًا نَقَل البَغَوي في شرحِ السنة، وابن حصّار، وغيرهم[١٣] .

*****

ولكن، إذا كنّا نجدُ اختلافًا في ترتيبِ الصحابةِ لمصاحفِهم الخاصّة، فهذا، بحسبِ الشيخ صبحي الصالح « كانَ اختيارًا شخصيًا لم يحاولوا أن يُلزِمُوا به أحدًا ... إذ لم يكتبوا تلكَ المصاحفَ للناس، وانّما كتبوها لأنفسِهم » [١٤] . والرأي الراجح عند المسلمين كافّة هو أنّ النبيّ « اهتمَّ

(١٠) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
(١١) نفس المرجع، ١ / ٦١.
(١٢) نفس المرجع، ١ / ٦٠، صحيح البخاري ٦ / ٢٩.
(١٣) انظر السيوطي، الاتقان، ١ / ٦١ ـ ٦٢.
(١٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ٧١.

بكتابة القرآن، وإنّ القرآنَ كُتِبَ في عهدِه وحَضرتِه بكلِ إتقانٍ وضــبط » [١٥]. و « ترتيــبُ السُوَرِ، ووضعُ الآياتِ مواضِعَها انّما كانَ بالوحي. كان رسولُ الله يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضعِ كذا. وقد حصلَ اليقينُ من النقلِ المتواترِ بهذا الترتيب » [١٦]. وإذا كانَ للصحابةِ من سعيٍ فهو يعودُ إلى جمعِ القرآنِ من المصاحفِ وصدورِ الرجال، لا في كتابتهِ وترتيبهِ.

ويبدو، بحسبِ المسلمين، إنّ جَمْعَ القرآنِ لم يتمّ في عهدِ النبيّ بسببِ انتظــارِ محمّــد آياتٍ جديدةً تنزلُ عليه. لهذا « لم يُكْتَبْ في عهد النبي مصحفٌ لئلا يُفضيَ إلى تغييرهِ في كل وقت. فلهذا تأخرتْ كتابتُه إلى أَنْ كَمُلَ نزولُه بموتِه » [١٧]. وهذا معنى قــولِ زيد بن ثابت : « قُبِضَ النبيُّ (ص) ولم يكنِ القرآنُ جُمِــعَ في شيء » [١٨]. وبهذا المعنى قــال الخطابي: « انّما لم يَجْمَعِ النبيُّ القرآنَ في المصحفِ لِمَا كانَ يترقّبُه من ورودِ ناسخٍ لبعضِ أحكامه، أو تلاوتِه. فلما انقضَى نزولُه بوفاتِه أَلْهَمَ اللهُ الخلفاءَ الراشدين ذلك وفاءً بوعدِه الصادق بضَــمان حِفْظِهِ على هذه الأمّة. فكان ابتداءُ ذلك على يدِ الصدّيق بمشورةِ عمر » [١٩]. وفي ذلك أيضًا قال السيوطي : « إن القرآنَ كُتِبَ كلّه في عهدِ رسولِ الله (ص) لكن غيــر مجمــوعٍ فــي موضعٍ واحدٍ ولا مرتَّبِ السُوَرَ » [٢٠].

*****

(١٥) الزنجاني، تأريخ القرآن، ص ٤٣.
(١٦) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٢.
(١٧) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٦٢.
(١٨) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٧.
(١٩) نفس المرجع ١ / ٥٧.
(٢٠) نفس المرجع ١ / ٥٧.

إنّ المشكلة مع القرآن ليست هي في جمعِه أو حفظِه أو كتابتِه وتدوينه، بل هي فـي امكانيّةِ وجودِه قَبْلَ محمّد، وجودِه، لا في « اللوح المحفوظ » ، بل في مصادرَ تاريخيّةٍ نُقِـلَ القرآنُ عنها. والحقيقة، إنّنا لن نعتمدَ لا على القرآنِ نفسه لنحـدّدَ مصـادرَه، فهـو يعتـرفُ بوضوحٍ انَّ له مصادرَ ومراجعَ أَخَذَ عنها واستَنَدَ إليها واستقَى منها :

١ً ــ إنّ القرآنَ يقول عن نفسِه أنّه موجودٌ في الصُحُفِ الأُولَى وزُبُرِ الأوَّلين، فـي صحفِ موسى وابراهيم؛ وعلماءُ بني إسرائيلَ يَعلمونَه تمامًا. قال : « إنّ هذا (القرآنَ) لَفِي الصُحُفِ الأولى، صُحُفِ ابراهيم وموسى » (٢١) ، وقال : « أَوَلَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسـى وابراهيم الذي وَفَّى، ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وأنْ ليسَ للإنسانِ الا ما سَعى ... نَذِيرٌ مـن النُذُرِ الأُولى » (٢٢) . وقال : « إنّه لتنزيلُ ربِّ العالَمين، على قلبِكَ لتكونَ منَ المُنذِرين، بلسانٍ عربيٍ مُبين، وإنه لَفِي زُبُرِ الأَولين، ألم يكنْ لهم آيةٌ أن يَعْلَمَه علماءُ بني إسرائيل » (٢٣) ، أي « إنَ ذكرَ القرآنِ المنَزلِ على محمد لفي كتبِ الأولين كالتوراةِ والإنجيل » (٢٤) ...

٢ً ــ يعترفُ القرآنُ بأنَّ له « إمَامًا » سابقا عليه، هو كتابُ موسى، وقرآنُه يصـدِّقُ كتابَ موسى. قال : « ... وشهدَ شاهِدٌ من بني إسرائيل على مِثْلِهِ، فآمنَ واستكبرتُم ... وإذ لم يَهْتَدُوا به فسيقولون : هذا أَفْكٌ قديمٌ. وَمِنْ قَبْلِهِ كتابُ مُوسى إمَامًا ورحمةً. وهذا كتابٌ

(٢١) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩، انظر سورة طه ٢٠ / ١٣٣.
(٢٢) سورة النجم ٥٣ / ٣٧ ـ ٤٠ و ٥٦.
(٢٣) سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٦، انظر ٥٤ / ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠ و٥١ ـ ٥٣.
(٢٤) تفسير الجلالين على ٢٦ / ١٩٦.

مصدِّقٌ : لساناً عربياً، لِيُنْذِرَ الذينَ ظَلموا، وبُشرَى للمحسنين » [٢٥] . وقال أيضًا : « أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه، ويتلوه شاهِدٌ منه، ومن قَبْلِهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمة، أولئك يؤمنون به ... فلا تكُ في مريةٍ منه، إنه الحقُ من ربّك » [٢٦] .

٣ ـ ويعترفُ القرآنُ بأنّه ذكرٌ من الله مُحْدَثٌ : فيه ذكرُ الأولين وقَصَصُهم وتعاليمُهم. وما هو إلاّ للتذكيرِ بما أَتَوا به. قال : « لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكُركم، أفلا تعقلون ؟ ... وما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم مُحْدَث ... فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون ... هذا ذكرُ مَن معي وذكرُ مَنْ قَبْلِي ... » [٢٧] .

٤ ـ ويستشهدُ القرآنُ بأهلِ الكتابِ وبعلمهِم ومعرفتِهم بالكتب، وهو يسألُهم عن صحّةِ ما فيه، ويدعو أصحابَه لأن يسألوهم بدورِهم ليكونَ في نفوسِهم اطمئنانٌ : قال « فاسأَلوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تعلمون » [٢٨] . وقال أيضًا : « فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبيّناتِ والزُبُر. وأنزلنا إليك الذكرَ لتبيّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم. ولعلّهم يتفكّرون » [٢٩] ، وقال : « فإن كنتَ في شكٍ ممّا أنزلنا إليكَ فاسألِ الذينَ يقرأون الكتابَ مِن قَبْلِكَ » [٣٠] .

---

(٢٥) سورة الأحقاف ٤٦ / ٩ ـ ١٢.
(٢٦) سورة هود ١١ / ١٧، انظر السجدة ٣٢ / ٢٣ ـ ٢٤.
(٢٧) سورة الأنبياء ٢١ / ٢ و١٠ و٢٤ و٢٥.
(٢٨) سورة الأنبياء ٢١ / ٧ وما بعد.
(٢٩) سورة النحل ١٦ / ٤٣ ـ ٤٤.
(٣٠) سورة يونس ١٠ / ٩٤.

٥ً ــ ويبدو أنّ أهلَ الكتاب هم على مُستوى اطمئنانِ المسلمين في الردّ على سؤالهم. فهم يعرفون القرآنَ تمامَ المعرفة، يعرفونه كما يعرفون كتابَهم الذي بين أيديهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءَهم. قال : « الـذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » [٣١] . وقال: « والذي أوحينا إليكَ مِنَ الكِتابِ هو الحقُّ مُصَدِّقًا لما بين يديه ... ثم أورثنا الكتـابَ الـذي اصطفينا من عبادِنا » [٣٢] ، ويوضح : « أورثَنا بني إسرائيلَ الكتابَ » [٣٣] . « والذينَ آتيناهُمُ الكتابَ (بني إسرائيل) يعلمونَ أنّه (القرآن) مُنْزَلٌ من ربّكَ بالحقّ » [٣٤] .

٦ً ــ ويبدو أيضًا أنّ القرآن هو « تصديقَ » للتوراة والإنجيل. ومراراً ذكّر محمّـد بذلك : « إني رسولُ الله إليكم مُصدِّقًا لما بينَ يديَّ من التوراة » [٣٥] . والكتابيون يعرفونَ ذلك تمامَ المعرفة « لمّا جاءَهم كتابٌ من عندِ اللهِ مصدِّقٌ لما معهم » [٣٦] ، ويدعوهم القرآنُ بقوله: « يا أيها الذين أوتُوا الكتابَ آمِنوا بما نزّلْنا مُصدِّقًا لما معكم » [٣٧] . وهكذا يظهرُ القرآنُ بكل وضوحٍ بأنّه تصديقٌ للتوراةِ والإنجيل، فيكونُ الإنجيلُ كما التوراةُ مصدَرًا من مصادرِه التي لا يتنكّرُ لها أحدٌ من المسلمين الطيبين.

٧ً ــ ومن جملةِ الإشارات إلى مصادر القرآن كونهُ مترجَمًا عن « كتابٍ (أعجمي) فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عربياً » [٣٨] ، و « كتابٌ أحكِمَتْ آياتُه

(٣١) سورة الانعام ٦ / ٢٠.
(٣٢) سورة فاطر ٣٥ / ٣١.
(٣٣) سورة غافر ٤٠ / ٢ ـ ٣.
(٣٤) سورة الانعام ٦ / ١١٤.
(٣٥) سورة الأحقاف ٤٦ / ٣٠، انظر ٣ / ٥٠، ٥ / ٤٦ الخ ...
(٣٦) سورة البقرة ٢ / ٨٩ و ٩١ ...
(٣٧) سورة النساء ٤ / ٤٧.
(٣٨) انظر كتاب قس ونبي، ص ٧٦ ـ ٧٧.

ثمّ فُصِّلَتْ من لدنِ حكيمٍ خبير » [٣٩] . وممّا يشيرُ إلى وجودِ مصدرٍ أعجميٍ للقرآن هو تمنّي العرب أن يكونَ لهم كتابٌ بلغتِهم، وتلبيةُ محمّد (؟) لهذا التمنّي، من قوله : « ولو جعلناهُ قرآنًا أعجمياً، لقالوا : لولا فُصِّلَتْ آياتُه! » [٤٠] ... فيكونُ القرآنُ العربي « تفصيلَ الكتابِ (الأعجمي)، لا ريبَ فيه » [٤١] .

٨ ً ـــ وفي تسميةِ الكتاب بالقرآن دلالةٌ على أنّه قراءةٌ عربيةٌ لكتابٍ هو في الأصلِ بغيرِ لغة العرب. وقد وُضِعَ بلسانٍ عربيٍّ ليعقلَهُ العرب : « وأنزلناه قرآنًا عربيًا لعلّكم تعقلون » [٤٢] ، و « انّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون. وإنّه في أمِّ الكتاب لدينا » [٤٣] ، وليتبيّنوا تفاصيلَه : « كتابٌ فُصّلتْ آياتُه قرآنًا عربياً لقومٍ يعلمون » [٤٤] ، ويتعَرّفوا على أخباره وقَصَصِه : « نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَص بما أوحينَا إليكَ هذا القرآن » [٤٥] ، ويهتدوا بهِ من كلِ عِوَجٍ وضلال : « وقرآنًا عربيًا غيرَ ذي عِوَجٍ لعلّهم يتّقون » [٤٦] .

٩ ً ـــ هذه الإشارات السريعة تفيدنا أنّ للقرآنِ العربي مصدرًا في غيرِ لغة العرب. بل إن هذا المصدر هو القرآنُ الأعجمي الذي نرى له في كتبِ السِيَر اسمًا لامَعًا، وفي تاريخِ الكتابِ المقدس وتاريخِ الكنيسة

---

(٣٩) سورة هود ١١ / ١.
(٤٠) سورة فصّلت ٤١ / ٤٤. انظر « قسّ ونبيّ » ، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٤١) سورة يونس ١٠ / ٣٧.
(٤٢) سورة يوسف ١٢ / ٢.
(٤٣) سورة الزخرف ٤٣ / ٣ ـ ٤.
(٤٤) سورة فصّلت ٤١ / ٣.
(٤٥) سورة يوسف ١٢ / ٣.
(٤٦) سورة الزمّر ٣٩ / ٢٨. انظر : « قسّ ونبيّ » ، ص ٧٤ ـ ٧٥.

اسم « الإنجيل العبراني » الذي كانَ القسُّ ورقة بن نوفل، ابنُ عمّ خديجة يَنْقُلهُ إلى العربيّةِ بحَضرةِ النبيّ محمّد. ولقد عالجْنا صلةَ القرآن العربي بالإنجيل العبرانيّ في كتابِ قسّ ونبيّ مطولاً؛ فَلْيُعَدْ إليه(٤٧) .

١٠ ــ ولكنَّ في القرآنِ العربي إشاراتٍ إلى مقتَبَسَاتٍ أخرى، لا نجدُها في « الإنجيلِ العبراني » ؛ ولكنَّ العارفَ بالتاريخِ الكنسي وبعلومِ الكتابِ المقدس، في عهدَيهِ الجديدِ والقديمِ، يعلمَ تمامَ العلم أنّ القرآنَ اعتمدَ عليها، وأَخَذَ منها، واقتَبَسَ عنها. كما نجدُ تقاليدَ منتشرةً على ألسنةِ المرسَلين والوعّاظِ في جزيرةِ العرب، استلهمها القرآن وسجّلها بين صفحاته. وعلى ذلك مراجع سهلة المنال؛ فلْيُعَدْ إليها(٤٨) .

*****

بعد هذا العرض كلهِ لمصادر القرآن، ماذا يَبقى من قولِ أهل الأخبار والمحدِّثِين بأنَّ القرآنَ جُمِعَ كلَّهُ في عهدِ محمّد! أليسَ في ذلك دلالةٌ على أنّه مجموعًا قَبْلَ محمّد!؟ ولكنّ لذّةَ خَلْطِ تاريخِ الله بتاريخِ البشر جعلتِ الناسَ مطمئنّين لمعجزاتٍ يُحدِثُها اللهُ في كلِّ شيء. وفيما الناسُ تُعوزِهُمُ معجزةٌ، جعلوا اللهَ لا تُعجِزُه معجزة. بهذا يطمئنّ كلُّ حَيرانٍ، ويستريحُ كلُّ ذي بالٍ قَلِقٍ، وينامُ الكلُّ في رَاحةِ المُعجزة.

---

(٤٧) انظر كتاب قسّ ونبيّ حيث يعالج موضوع الإنجيل العبراني وصلته بالقرآن العربي. وفيه كل قصّة مصادر القرآن المباشرة ...

(٤٨) انظر : د. فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفني ناصف، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤.

D. Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées. DDB. 1976.

Tor Andrae, Les origines l'Islam et le christianisme, Adrien-Maisonneuve, 1955…

ثانياً ـــ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

في السنة الأولى من خلافةٍ أبي بكر الصديق، ظَهَر مُسَيلَمة النبيّ الكـذّاب باليَمَامـة، فجهّزَ أبو بكر لقِتالِه جيشاً من المسلمين، وفيهم كثيرٌ من القرّاء والحفّاظ، فَقُتِلَ مُسَيْلَمة، واشتدَّ القتلُ على قرّاءِ القرآن، حتى قُتِلَ منهم أكثرُ من سبعين قارئًا، فأحسَّ عمـر بـن الخطـاب بضرورةِ جَمْعِ القرآن، ودعا أبا بكر الصديق ليفعَل(١) .

وجاء في سُنَنِ ابن أبي داود « أنَّ عُمَر سألَ عن آيةٍ من كتاب الله، فقيل : كانتْ مـع فلان قُتِلَ يومَ اليمامة. فقال : إنَّا لله. فأمرَ بجَمْعِ القرآن. فكان أوّلَ مَنْ جَمَعَهُ في المصحف ... أي أشارَ بجمعِه » (٢) .

وروى البُخاري عن زيد بن ثابت قال : « أرسلَ إليّ أبو بكر، بعد مقتلِ أهلِ اليَمَامة، فإذا عُمَرُ بن الخطّابِ عنده؛ فقالَ أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القَتْلَ استَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقرّاءِ القرآن، وإني أَخشَى أن يَستَحِرَّ القتلُ بالقرّاءِ في المواطِنِ (بسائر البلاد)، فيَذْهبُ كَثِيرٌ من القرآن. وإنّي أرى أن تأمرَ بجَمِعِ القرآن. فقلتُ لعمر : كيفَ تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قال عمر : هُوَ وَاللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ يراجِعْني حتى شَرَحَ اللهُ صدري لذلك. ورأيتُ في ذلك الذي رأى عُمَر.

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٩.
(٢) نفس المرجع، ص ١ / ٥٨.

قال زيد : قال أبو بكر : إنّك شابٌ عاقل، لا نَتَّهِمُكَ، وقد كنتَ تكتبَ الوحيَ لرسولِ الله (ص)، فَتَتَبَّعِ القرآنَ وأجمَعْهُ. فوالله، لو كلّفوني نَقْلَ جَبَلٍ من الجبالِ ما كانَ أثقل عليَّ ممّا أَمَرَني بـه من جَمْعِ القرآن. فقلتُ : كيفَ تفعلانِ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قالَ : هو واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ أبو بكر يراجعني حتى شرحَ اللهُ صدري للذي شرحَ اللهُ له صدرَ أبي بكـر وعمـر. فتتبّعتُ القرآنَ أَجمعُه من العُسُبِ (جريدة من النخل) واللخَافِ (حجـارة بـيض رقـاق) وصدورِ الرجال، حتى وجدتُ آخِرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خُزيمَةِ الأنصاري لـم أجِـدْها مـعَ غيرهِ... فكانتِ الصحفُ عندَ أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عُمر حياتَه، ثم عند حفصة بنتَ عمر » [٣] .

*****

لقد استعجلَ أبو بكر وعمر في جَمْعِ المصاحف، لأنّ هناك خطرًا مُداهِمًا يتأتّى مـن مصاحفِ أخرى مختلفةٍ بعضُها ببعض. وقد كان أصحابُها من صحابةِ النبيّ المشهورين بالعلمِ والفضيلة ومن أمّهاتِ المؤمنين اللواتي عايَشْنَ النبيّ وعرفنَه في حالاتهِ الخاصّـةِ والعامّـة. وكان عددُ المصاحفِ كبيرًا، وخطرُها أكبر، والخلافُ بينها واسعًا، والثقةُ بها أوسع :

١ًـ فهناك مصحفُ سَالِم بني معقل مَولى أبي حُذَيْفَة الذي حرّره النبيّ. ولكنّ سالِمًا ماتَ بعدَ النبيّ بسنة[٤] . وقد أخرجَ ابن أشتة في كتابِ المصاحفِ عن ابن بريدة قال : « أوّلُ مَنْ جَمَعَ القرآنَ في مصحفٍ سَالِمٌ مَولى أَبِي حُذَيفة، أَقسَمَ : لا يرتدي برداءِ حتـى يجمَعَـه. فَجَمَعَهُ » [٥] .

---

(٣) الاتقان ١ / ٥٧، انظر : البرهان ١ / ٢٣٤، تهذيب التهذيب ٣ / ١٤٠.
(٤) تفسير الطبري ١ / ٦٣.
(٥) الاتقان ١ / ٥٨ عن كتاب المصاحف لابن أشتة.

٢ً ــ وهناك مصحفُ عبد الله بن عبّاس، توفّي سنة ٦٨ هجرية. ولابن عبّاس مكانٌ في الإسلام مرموق. تخصّصَ في تفسيرِ القرآن، وكان تلميذاً لعليّ بن أبـي طالـب. ذكـر الشهرستاني له مصحفًا يختلف بترتيبهِ عن مصاحف الصحابة(٦) .

٣ً ــ وهناك مصحف عقبة بن عامر (+ ٦٠ هــ) من صحابة النبي، وقـد حَكَـم مصرَ فيما بعد. له مصحَفٌ وجِدَ سنة ٣١٣ هــ / ٩٢٥ م. ولكنّه لم يعدْ يوجَد اليوم(٧) .

٤ً ــ وهناك مصحف المقداد بن عمر (+ ٣٣ هــ) من صحابة النبـي المشـهور بتقواه وشجاعته. لقد كان مصحفُه منتشِرًا في حمص بسوريا(٨) .

٥ً ــ ومصحف أبي موسى الأشعري (+ ٥٢ هــ) من شيعةِ علي. انتشر مصحفه في بصرى. وكان شبيهًا إلى حدٍّ بعيد بمصحَفَي ابنِ مسعود وأُبَيّ ابن كعب. عُرِفَ بمخالفتـه لمصحفِ عثمان الإمام(٩) .

٦ً ــ ومصحف أُبّيّ بن كعب (+ ٢٣ هــ) من المدينة. استخدَم النبيُّ أُبَيًا لتـدوينِ الوحي، ولكتابةِ الرسائلِ إلى القبائلِ. اشتهرَ باتّقادِ ذاكرته، وهو بين القلائلِ الذينَ حَفظُوا كـلَ القرآن. يختلفُ بمصحفهِ عن مصحفِ عثمان، بعددِ سُوَرِهِ وبترتيبهِ. ففيه ١١٦ سـورة بـدل ١١٤. والسورتان الزائدتان هما : سورة الخَلْعِ وسورة الحَفْد(١٠) .

---

(٦) انظر الاصابة ١ / ٩٤، وانظر ترتيب مصحفه في كتاب « تاريخ القرآن » للزنجاني، ص ٧٦.
(٧) نولدكه، تاريخ القرآن، ٣ / ٩٧، حاشية ١.
(٨) نولدكه، تاريخ القرآن، ٢ / ٢٩ ـ ٣٠.
(٩) تاريخ القرآن لنولدكه، ٢ / ٢٨ و ٣٠، الانسكلوبيديا الإسلامية ٤٨٨.
(١٠) انظر : الإصابة ١ / ١٦، الفهرست ٤٠، الزنجاني ٧٢ حيث ترتيبه.

٧ً ــ مصحف عبد الله بن مسعود (+ ٣٠ هــ). نشأَ راعِياً، وأسلم بــاكِراً، وخــدَمَ النبي بورَعٍ. نَقَلَ عنه البخاري قولَه : « باللهِ، ليسَ من سورةٍ في الكتابِ أُوحِيتْ إلاّ وعرفــتُ أينَ أوحِيَتْ وبمناسبةِ مَنْ أوحِيَتْ » [١١] . ينقص من مصحفهِ ســورةُ الفاتحــة والمعوذتَــان. ويختلف ترتيبُه عن سائر المصاحف[١٢] .

٨ً ــ مصحف عائشة، جمعَه لها مولاها أبو يونس. وروَى عنها عروةُ ابنُ الزبيــر أنها قالتْ : « إن سورةَ الأحزابِ كانت تُقرَأ في زمنِ النبي مئتي آية. فلمــا كتــبَ عثمــانُ المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن » [١٣] .

٩ً ــ مصحف حفصة، جمعَهُ لها مولاها عُمر بن رافع. ولكن لا نستطيعُ أن نعــرفَ عمّا إذا كان هو نفسه مصحف زيد بن ثابت الذي أودَعه عندها أم غيره.

١٠ً ــ مصحف علي بن أبي طالب (+ ٤٠ هــ). كلَّمنا عنه اليعقوبي وابن النــديم والسيوطي وغيرهم. عَرَفَ الامامُ محمدُ الباقِر هــذا المصحفَ ونَسَبَهُ إليه[١٤] . سمَّى عليٌّ بــ « الناسِخ والمنسوخ » [١٥]وقسَّمَه إلى سبعةِ أجزاء، وكلُ جزء مــن ١٥ أو ١٦ ســورة. ولا يُستبْعَد أن يكونَ مصحفُ عليّ فاقَ سائرَ المصاحفِ لمكانةِ عليٍّ في الإسلام. ولا يستبْعَدُ أيضًا أنْ يكونَ مصحفُه مغايرًا لسائرِ المصاحفِ ومختلِفًا عنها، لاختلافِ موقفِه من مواقــفِ أهــلِ السنة وجماعةِ الخلفاءِ الذين اغتصَبوا منه الخلافة. ومن الطبيعي أن نجدَ لعليٍّ مصاحِفَ كثيرة تَنتَسِبُ إليه لِكثرةِ الشيَعِ التي تفرّعتْ عن شيعته.

(١١) عن نولدكه، تاريخ القرآن ٣ / ٥٢٧، رابعاً.
(١٢) انظر ترتيبه في « تاريخ القرآن » للزنجاني ٧٤ ـ ٧٥.
(١٣) السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٥.
(١٤) تفسير القمي، ٤١٩ ـ ٤٢٠.
(١٥) الاتقان ١ / ٥٨.

والغريب في الأمر أن يشرَعَ عليَّ، بعد موت النبي مباشرة، وعند بيعة أبي بكر، بجمعِ القرآن! والغريب أيضًا أن يَرى عليٌّ، منذ تلكَ اللحظة، أنّ القرآنَ يُحَرَّفُ فيه ويُزَادُ عليه. قال عكرمة : « لمّا كانَ بعدَ بَيعَةِ أبي بكر، قعدَ عليّ بنُ أبي طالب في بيته. فقيل لأبي بكر : قد كَرِهَ بَيْعَتَكَ، فأرسلَ إليه. فقالَ : أكَرِهْتَ بَيعَتي ؟ قالَ : لا والله. قال : ما أقعدَكَ عنّي ؟ قال : رأيتُ كتابَ الله يُزادُ فيه. فحدّثتُ نفسي أن لا ألبَسَ ردائي إلاّ لصلاةٍ حتى أجمَعَهُ. قالَ له أبو بكر : فإنّك نِعْمَ ما رأيت » (١٦) .

وعن ابن أبي داود قال : « سمعتُ عليّاً يقول : أعظمُ الناس في المصاحفِ أجرًا أبو بكر، رحمةُ الله على أبي بكر، هو أوّلُ من جَمَعَ كتابَ الله » (١٧) . وعن ابن سيرين قال: « قالَ عليّ لمّا ماتَ رسولُ الله، آليتُ أن لا آخذَ عليَّ ردائي الاّ لصلاةِ جُمْعَةٍ حتى أَجْمَعَ القرآنَ فَجَمَعْتُهُ » (١٨) .

*****

لنا حولَ هذه المعطياتِ أكثرُ من تساؤل : لماذا يُشيدُ المحدِّثون برضى عليٍّ على صنيعِ أبي بكر وعمر ؟ هل يُعقَل أن يباشِرَ عليٌّ بوضعِ القرآن ولم يَمضِ على موتِ النبيّ ساعات ؟ وهل منذ هذه اللحظةِ ابتدأتِ الزياداتُ تَظهَرُ في القرآنِ حتى يقولَ عليٌّ « رأيتُ كتابَ اللهِ يُزاد فيه » ؟ وإذا كانتْ غَيرَةُ عليٍّ كبيرةً إلى هذا الحدّ فلماذا لم يأخذْ أبو بكر وعمر بمصحَفِه ؟ ولماذا فضّلَ أبو بكر وعمر مصحفَ زيد بن ثابت على مصحفِ عليّ ؟ وعليٌّ هو المسلمُ

---

(١٦) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٧ ـ ٥٨.
(١٧) نفس المرجع، ١ / ٥٧.
(١٨) نفس المرجع، ١ / ٥٧.

الأوّل والمجاهِد الأكبر، ابنُ عمِّ النبيّ وصهرُه وربيبُه وحامِلُ لواء الإسلام!!

ثمّ ما الذي دفَع أبا بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب إلى جَمْعِ القرآن ؟ ولماذا اختارا زيدًا بنَ ثابت لهذه المهمّة ؟ والمعروفُ أن زيدًا لم يزلْ في بطنِ أمّهِ عندما ابتدأ النبيُّ بالرسالة والنبوّة ؟ بل إن عُمْرَ زيدٍ لم يكنْ أكثرَ من عَشْر سنين عندما هاجَرَ النبيُ إلى المدينة. فهناكَ اذن اكثرُ مِن ثُلْثَي القرآن نزل على النبيّ ولم يكنْ زيدٌ يَعِيهَا لِصِغَرِ سِنِّهِ! وما معنى قولِ أبي بكر لزيد : « انّك شابٌ عاقِلٌ لا نتّهِمُك » ؟ فهل من اتّهامٍ لغيرِ زيد من كَتَبَةِ الوحي ؟ ولماذا ؟ ولماذا فُضِّلَ زَيدٌ على عبدِ الله بن عبّاس، وقد مَدَحَه النبيّ بأنّه خيرُ مَنْ عَرَفَ القرآنَ وفَسَّرَهُ، وعلى أُبَيّ بن كعب صاحبِ الذاكرةِ الوقادة، وعلى عبدِ الله بن مسعود المسلِمِ الورع ؟ ولماذا وَضَعَ زيدٌ المصحف الذي جَمَعَهُ عندَ حفصة بنتِ عُمَرْ وزوجةِ النبيّ وليسَ عند أمّ سَلَمة مثلا، أو غيرهما ؟

إنّها أسئلة كثيرة تخطر على البال، وليسَ عليها من التاريخِ جواب. الإيمانُ وحده يستطيعُ نَقْلَ الجبال. ونحنُ بنقلِ الجبالِ، ولو بأظافِرنا، مُلْزمون. فهل رواياتِ أهلِ الأخبارِ غيرُ صحيحة، وتاريخَهم تتحوّلُ أحداثُه بإيمانِهم. ولم يُعَبِّرْ أهلُ الاخبارِ عن هذا الإيمان الاّ بعدَ ما يَزيدُ على المائةِ سنة من موتِ النبي. وليسَ مَنْ يفصلُ بين التاريخِ والإيمانِ سوى التنقيبِ في رمالِ مكة وآثارِ الكعبة وبيتِ الله الحرام. ولكنّ حُرْمَةَ البيتِ تمنعُ عن القلقين البحث المتعِبَ المضني. ولم يبقَ أمامَنا الاّ الإيمانُ بمعجزةٍ إلهيّةٍ أخرى تُقَدِّمُ لنا المصحَفَ الجليلَ على راحَتَي جبريلَ المُباركَتَين!

******

ثالثاً ــ مصحف عثمان بن عفّان

في إيمان المسلمين إنّ القرآنَ المتداولَ اليومَ قد جمعَه عثمانُ بن عفّان مـــن الرقـــاعِ وصدورِ الرجال، وقد ألّفَ من أجلِ ذلك لجنةً من عدّة قرّاءٍ فوضعوا ما وضعوا متَّفِقِين. ولمّا انتهتِ اللجنةُ من أعمالها، أمرَ الخليفةُ بنسخِ المصحفِ عدّةَ نســخ، أربعـــةً أو ســـبعةً، ووزَّعَ النسخَ على الأمصارِ الاسلاميّة، ثمّ أتلفَ كلَ المصاحفِ الخاصّة.

لقد باتَ كل شيء معدّاً، إلى الآن، ليتدخّلَ الخليفةُ الثالث عثمان بن عفّان (٢٣ ــ ٣٥ هــ / ٦٤٤ ــ ٦٥٥ م) ليحسمَ موضوعَ جَمْعِ القرآنِ ببطشٍ وسلطان. زيد بن ثابت لا يزالُ حيّا يُرزق. والفتوحاتُ الإسلاميّة تتوالى. والقتلُ بين الصحابة يزداد. والاختلافاتُ بين القرّاء تزدادُ هي أيضاً. والاقتتالُ بين الناس يشتدُّ بسبب هـــذا الاخـــتلاف. لقـــد « اقتتـــلَ الغلمـــانُ والمعلمون »[١]، وتوزّعَ الحفّاظُ والقرّاءُ في الشامِ والعراقِ واليمنِ وأرمينيـــا وأذربيجـــان، ولَحَنَ العربُ في لغتهم لمجاورتِهم أممًا غيرَ عربية، أو عربيةً غير مَضَرِيَّة، وفســـدتِ اللغـــةُ فدخلَ فيها ألفاظٌ أعجميّة، وفُقِدَتْ منها ألفاظٌ أخرى ... كلُ هذا دعـــا الخليفـــةَ إلـــى التـــدخّلِ المباشَر، لأن القرآنَ أصبحَ في خَطَرِ التحريفِ والتصحيفِ والزيادةِ والنقصان ...

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٩.

يخبرنا البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن أنس بن مالك حدّثه « أنّ حُذَيفةَ بن اليمان قَدِمَ على عثمان، قَبْلَ الذهابِ إلى فَتْحِ أرمينيا وأذريبجان (سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠ م) وقال له : « يا أميرَ المؤمنين، أَدْرِك » هذه الأمّةَ قبلَ أن يختلِفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى. « فأرسلَ عثمانُ إلى حفصة أَنِ أَرسِلِي إلينا الصُحُفَ ننسخُها في المصاحفِ ثم نردُّها إليكِ. فأرسلتْ بها حفصةٌ إلى عثمان. فأمرَ زيدَ بن ثابت وعبدَ الله بن الزبير وسَعِيدَ بن العاص وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمانُ للرهطِ القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش، فإنّه إنما نَزَلَ بلسانِهم. ففعلوا، حتى إذا نَسخُوا الصحفَ في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة. وأرسلَ إلى كلِ أفقٍ بمصحفٍ ممّا نَسَخُوا. وأمرَ بما سواه من القرآنِ في كلِ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحْرَق » [٢] .

وعن أنسٍ بن مالك أيضًا قال : « اختلفوا في القرآنِ على عهد عثمان حتى اقتتلَ الغلمان والمعلمون، فبلغَ ذلك عثمانَ بن عفّان، فقال : عندي تكذِبون به وتلحنون فيه! فمن نأَى عنّي كانَ أشدَ تكذيبًا وأكثرَ لحنًا. يا أصحابَ محمّد اجتمِعوا فاكتُبوا للناسِ إمَامَا. فاجتمعُوا فكتبوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أيِّ آيةٍ قالوا : هذه أقرأَها رسولُ الله فلانًا فيُرسَلُ إليه وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينةِ، فيُقال لَه : كيفَ أقرأكَ رسولُ الله آيةَ كذا وكذا، فيقولُ : كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكاناً » [٣] .

---

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، الباب الثاني والباب الثالث، السيوطي، الاتقان ١ / ٥٩، ابن أبي داود ١٨، الطبري ١ / ٢٠ ـ ٢١.
(٣) نفس المرجع ١ / ٥٩.

لنا حول رواية البخاري الذي « ما عَرفَ التاريخُ مَنْ يُضَارعُه في الثقـــةِ والضـــبطِ والأمانة » [٤] عدّةُ تساؤلات :

لماذا زيد بن ثابت ؟ ومن المعروف أنّ بين الصحابة وكَتَبةِ الوحي من هو أكثر ثقـــةً وعلمًا وبلاغةً منه ؟ وانّه لم يَسمَعْ من النبيّ سوى آياتٍ قليلةٍ من القرآن، وانّه، بالنسبةِ إلـــى أُبَي وابنِ عبّاس وعليٍّ بن أبي طالب، لا يُعْتدُّ بورَعِهِ أو بعلمهِ أو بوعيهِ أو بجهـــادِه، ورفـــع لواء الإسلام! ولماذا فضّلَ عثمانُ أيضًا، كأبي بكر وعمر، أن يكونَ زيدٌ رئيسًا على جمّـــاعِ القرآن وحفّاظه! ثمّ على أيّ دين كان زيد ؟ هل حقّا كان يعرِفُ العبريةَ والســـريانية[٥] ، وإن كان ذلك فعلاً، فأين تعلّمهما ؟ وعلى يدِ مَن أخذهما ؟

ثمّ لماذا أحرقَ عثمانُ المصاحف ؟ وكيفَ أحرقها ؟ هل أحرِقَتْ، أم مُزِّقتْ، أم طُرِحَتْ في الماء ؟ التقليدُ يختلف في ذلك. وكيف تجرّأَ المؤمنون على إتلافٍ هذه المصاحف، وهـــي تحملُ في طيّاتِها صورةَ المعلم المحبوب، وهي من أيدي صحابةٍ أجلاّءَ محترَمِين مَوفـــوري الوَقارِ والكَرامة!

وكيف تألّفتِ اللجنةُ ؟ وممَّنْ ؟ التقليد على خلافٍ ظاهر. فمنه ما يشير إلى اثنين فقط: زيد وسَعيد بن العاص؛ ومنه ما يشيرُ إلى ثلاثة : زيد وسعيد وعبد الرحمن بن هشام؛ ومنه ما يشير إلى أربعة[٦] ، ومنه ما يشير إلى لجنة اثني عشرية[٧] ... ومن المعروف أيضًا أن سَعيدًا بن العاص كان إبّانَ تأليفِ اللجانِ والياً على الكوفة، فكيف يكونُ من أعضائها ؟

(٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧٩.
(٥) طبقات ابن سعد ١١، ٢ / ١١٥.
(٦) يضاف إلى الثلاثة المذكورين ابن الزبير، انظر البخاري وابن أبي داود.
(٧) ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٢، ٢٤ و ٢٥.

وثالثة من اللجنة الرباعية كانوا مكيّين من قريش ومن الطبقة الارستقراطيّة ومن أقرباء عثمان بن عفّان، وبين بعضهم بعضاً صلاتُ مصاهَرَةٍ ومصالحُ مشتركة. وزيدَ وحدَه كان مدنِيًا من الأنصار. ومع هذا كان رئيسا على اللجنة وفي نصيحة عثمان للجنة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانٍ قريش » [٨] ما يشير إلى إمكانية الخلاف، وإلى مداخلة الخليفة وإشرافه وسلطانه.

هل لعثمان نيّات وخفايا فيما صَنع ؟ الحقيقةُ إنه كانَ يعرفُ مدى خطورةِ مصحفِ عليّ بن أبي طالب خصمهِ وعدوّهِ السياسي، وكان يعرفُ انّ هناك مصاحفَ دُوِّنتْ أيّامَ النبيّ ولها قدسيَّتُها وأهمّيتها، وكان يعرفُ أنّ مصاحفَ الصحابةِ المعروفَة آنذاك كانتْ تنتمي إلى المدينةِ وسائرِ المواطن الإسلامية، وهو يريد لمكَّةَ السَبَقَ في هذا المجال ... لعلّها العصبيّة القبلية تحكّمتْ بعثمان ؟ وليستْ هذه العصبية مختفيةً في غير هذا الموضع في كل حال. فالعصبيةُ الأموية والعصبيةُ العباسية والعصبيةُ العلوية كانتْ باقيةً وقد أخذتْ مجراها في الخِصام والاقتتالِ والثوراتِ حتى الدم الغزير ...

ثمّ ما هو موقفُ عليّ ؟ وقد وضعَ المحدِّثون على لسانهِ كلَ الرضى، تمامًا كما أظهروا رضاه على ما صَنع أبو بكر وعمر. لقد « أخرَج ابنُ أبي داود بِسَنَدٍ صحيحٍ عن سُوَيد بن غَفلة قال : قال عليّ : لا تقولوا في عثمانَ الاّ خيرًا، فوالله ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحفِ إلا عن ملأ منّا » [٩] . هل رضِى عليّ هو حقيقة ؟ إن لعليٍّ مصحفًا دَوَّنَهُ بيدهِ ومباشرةً عن النبيّ، وهو كما يجب أن يكونَ أكثرَ أَصالة من مصحفِ زيد أو سواه، وقد أتلفَه عثمان، فهل هذا يوجِبُ من عليّ سخطًا أم رضى ؟

(٨) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٩.
(٩) نفس المرجع ١ / ٥٩ ـ ٦٠.

لماذا ردّ عثمانُ المصاحفَ لحفصة ؟ إن الخليفةَ مروان بن الحكم سنة ٦٤ حــاولَ أن يأخذَها منها ليحرقَها فأَبَتْ. فلمّا توفّيتْ أخذَها وأتلَفها، وقال مدافِعًا عن صنيعه : « انّما فعلتُ هذا لأنَّ ما فيها قد كُتِبَ وحُفِظَ بالمصحفِ الإمام، فخشيتُ ان طالَ بالناسِ زمانٌ أن يَرتابَ في شأنِ هذه الصحفِ مُرتاب » [١٠] . السؤال : أكانت مصاحف حفصة تختلف عــن مصــحف عثمان، حتى يتصرّف مروان هكذا ؟ إذا كان كذلك، فما صحّة علاقة مصحف عثمــان بمــا جمعه أبو بكر اذن ؟!

الحقيقة إن اعتمادَ عثمان على جمعِ أبي بكر هو عملٌ ذكي، بل عملُ سياسيٍ مــاهِر. لقد كانَ يعرفُ إنه إذا اعتمدَ مصحفَ ابنِ مسعود مثلاً لكانَ أثارَ عليه حَنَقَ السوريين وأهــلِ بصرى الذين كانوا يقرأون بمصحفِ أُبَي بن كعب وبمصحفِ الأشعري، ولكان شَــتَم عمــلَ سَابِقَيْهِ في الخلافة أبي بكر وعمر، وقد كان يعرفُ بذكائه إنّ المسلمينَ لن يختلفوا كثيرًا إذا ما رَفَعَ من شأن الخليفتَين اللذَين سَدَّدا خطواتِ الإسلامِ وفتحَا البلادَ وأعليَا العمران.

ثمّ أيضًا ما هو موقفُ ابن مسعود من مصحفِ عثمان ؟ إن دلائلَ كثيرةً تشــيرُ إلــى عدم رضاه؛ لقد رفضَ رفضًا قاطِعًا ما جمَعَه عثمان، وقال : « كيفَ تأمرني أن أتّبعَ قــراءةَ زيد في الوقتِ الذي كنتُ أقرأ القرآنَ سبعين مرّة، وأسمعُه من فمِ النبي، وزيدٌ كان لا يزالُ في صلبِ أبيه يحملُ لُعَبَ الأولاد ويلعبُ بالمكانس! » [١١] . ومــرّة أخــرى قــال : « ســأتركُ مصحفَ عثمان لأنّه من عمل إنسانٍ. فعندمــا كنتُ قد أصبحتُ مسلِماً، كان زيدٌ في أحشــاءِ أمّه » [١٢] .

---

(١٠) ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٤.
(١١) نفس المرجع، ١٧، ابن سعد ٢ / قسم ٢ ص ١٠٥.
(١٢) نفس المرجع، ص ١٧ سطر ١٥.

قد تكون هذه الأقوال المنسوبة إلى ابن مسعود صحيحة أو غير صحيحة، ولكنّ عدم رضاه فيها واضح. ومُبرِّرُ عدمِ الرضى واضحٌ أيضاً. وقد يكونُ هذا موقفُ أبيّ بن كعب أيضاً، ولكن لا علمَ لنا به على طريق الوضوح، فيما الذين يتّبعون مصحفه أظهروا عدمَ رضاهم برفضِهم مصحفَ عثمان الذي حَكَم على إتلافِ كل المصاحف. ولا شيءَ يمنعُ من القولِ بعدم رضى عليّ بن أبي طالب، بدليلِ ما وُضِعَ على لسانه من رضى، ظنّا أنّ في قلبِه غيرّ هذا الرضى.

*****

ومع هذا كلّه، ورغم حسنِ نيّات عثمان في توحيدِ الكلمة بني المسلمين وفي توحيدِ كتاب الله، لم تُحَلِّ المشكلة من أساسها، بل قد يكون عثمان عقَّدَها أكثر، لأنّ المصاحفَ القديمةَ كان يقرؤُها الناسُ بِيُسْرٍ وسهولة، ولأنّ بعضَهم كان يحفُظها عن ظهرِ القلب. وأمّا مصحفُ عثمان فليسَ هناك مَنْ يحفظْه، أو مَن يقرؤُه. وليس فيه نقَطٌ لتمييزِ الحروف. وليس فيه حركاتٌ لتعيين مواقعِ الكلمات وإعرابها. وليس فيه حروفُ علّةٍ لتعيين طبيعةِ الكلمة وتمييزِ الكلمات المتشابهةِ بعضها عن بعض ...

بهذا دخل في مصحف عثمان قراءاتٌ من مصاحفَ سابقة، وتصحيفٌ من قرّاءِ غير قرشيين أو مضريين أو حتى غير عرب. فكل شيء فيه يدعو إلى القلق اذن. وما يزيد القلقَ في صحّةِ قرآنِ عثمان هو انتسابُ مصاحفَ قديمةٍ وخاصةٍ إليه، وذلك بعدَ مقتلهِ الذي أضفى عليه المسلمون معنًى الاستشهاد والمَلَكوتي. فبعدَ أن عرف الناسُ عثمانَ ظالمًا محتالاً، عرفوه الآن بعد استشهادِه، شهيدًا وليّا طاهِراً. وبفضلِ هذا أصبحَ لمصحفهِ

مكانٌ فريد. وأصبحَ كلُ قرآن مجبولٍ بنقطةِ دمٍّ من عثمان قرآنًا لا يُقَدّرُ بثمن. وكلُ صـــاحبِ قرآن، لكي ينفذَ بكتابِه إلى قلوبِ الناس، نَسَبَه إلى عثمان. وهكذا أصبحَ مصحفُ عثمان سحرًا أفاضَه عليه الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان ووزيرُه الحجّاج بن يوسف، كما سترى.

وممّا يزيدُ الأمور تعقيدًا اختلافُ أهلِ الأخبار والمحدِّثين في عددِ النسخِ التي أرســلَها عثمانُ إلى الأمصار، فمنهم مَن يجعلُها أربعةً، ومنهم سبعةً، أرسلَ كلَ واحدة منها إلى قطر : « إلى مكّة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبسَ بالمدينة واحدة » [١٣] .

ثم لماذا لم يعدْ عثمانُ راضيًا بمصحفِ زيد بن ثابت الذي جَمَعَ لأبي بكر وعمر ؟ هل من خلافٍ بين مصحفِ زيدٍ الأوّل، وما يجمعُه لعثمان الآن ؟ ثم لماذا فضّل عثمــانْ حرفًــا واحِدًا من الأحرفِ السبعة ؟ ومِنَ المسلَّم به أنَّ الله « أنزلَ القرآنَ على سبعةِ أحرف. فــرأى عثمان أن يزيلَ منها ستّةً، وأن يجمعَ الناسَ على حرفٍ واحد، فلم يُخالِفْه أكثرُ الصحابة، حتى قال عليّ : لو كنتُ موضِعَه لفعلتُ كما فعل ... كانوا يقرأون القرآنَ على سبعةِ أحرف، فوقَع بينَهم الشرُّ والخلافُ، وأرادَ عثمانُ أن يختارَ من السبعةِ حرفًا واحِدًا هو أَفْصَــحُهَا، ويُزيــلَ الستَةَ. وهذا من أصحِّ ما قيل فيه لأنّه مرويّ عن زيد بن ثابت » [١٤] .

لكنّنا نسأل : ما هو الحرفُ الصحيح، بل ما هو « أفصحُ الحروفِ

---

(١٣) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
(١٤) أبو جعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ، ص ٣٧ ، انظر ١٥٩.

الستة » ؟ وأيضًا : « ألا يعني اختيارُ « الأفصح » منها انّه كانَ في النصوص السبعةِ فصيحٌ وأفصح ؟ » [١٥] ، والمسلمون يعتقدون بأنّ حروفَ القرآنِ جميعَها هي في مُنتهى البلاغةِ والفصاحة!

خاتمة الفصل

ليست المعجزة احتيالاً من الله على نِظام الكون وقوانينه، ولا احتيالاً من الإنسان على التاريخ ومعطياته. يستطيعُ اللهُ القادر القديرُ على تبديلِ كلِ نظامٍ دونَ أي مكرٍ منه عليه، ويستطيعُ الإنسانُ الإيمانَ دون أن ينالَ هذا الإيمانُ من حقائقِ التاريخ. يعرِفُ اللهُ لأيّةِ غايةٍ يتدخّلُ في العالَم، ويعرِفُ الإنسانُ معنَى المعجزةِ التي تحدثُ مرّةً بعد مرّة.

أمّا الذي لا أعرفه هو ما حدَث في تاريخِ النبوّةِ والقرآنِ من معجزات. فلا أستطيعُ اتّهام الله بمَكْرٍ أو بحيلة، رغم أنّه، بحسبِ القرآن، « خير الماكرين » [١٦] ، ولا اتّهامَ الإنسانِ بالإيمانِ الأعمى على حسابِ وضوحِ معطياتِ التاريخ. فالقرآنُ يعترف بكتابٍ سابقٍ عليه، ومحمّدٌ بلّغَ من هذا الكتابِ ما يوافِقُ عقليّةَ العربيّ ومجتمعه؛ ولكنَّ المسلمين استحبّوا الدخولَ في عالمِ المعجزات : معجزةِ الوحي والتنزيل، ومعجزةِ جمعِ القرآن من صدور المؤمنين، ومعجزةِ تبريرِ كلِ معجزة آمنوا بها.

فلا الله يعجبه ذلك، ولا الإيمان يُسلّم بكل ذلك. فيما المذهولون بربْطِ الأرضِ بعُمُدِ السماء يريدون لنفوسِهم الاطمئنانَ، فكان لهم كلُ الاطمئنان.

---

(١٥) الاستاذ الحداد : القرآن والكتاب ١ / ٢٤٣.
(١٦) سورة ٣ / ٥٤ ، ٨ / ٣٠، انظر ٢٧ / ٥٠، ١٠ / ٢١، ١٣ / ٤٢ ...

الفَصْلَ السَادس

مُعْجزَة ضَبْط القرآن واتلافَ المصَاحف

أَولاً ــ الوضع السياسي

ثَانياً ــ وضع المصاحف العثمانية

ثَالثاً ــ ضبط المصاحف العثمانية

رَابعاً ــ رخصة القراءات

مقدّمة الفصل

قام من المسلمين مَن قال : إنّ « أهلَ العصرِ الأوّل ... كانــت كتــابتُهم للمصــحفِ الشريفِ سقيمةَ الوضعِ، غيرَ محكمةِ الصنع. فجاءتِ الكَتْبَةُ الأولى مزيجًا من أخطاءَ فاحشــةٍ ومتناقضاتٍ متباينةٍ في الرَسْمِ والهجاء ... (لذلك) وقعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضعَ الكلماتِ من حيثُ صناعة الكتابة ورسمها » [١] .

هذا كلامُ الواقعِ والحقيقةِ، ولكنَّ النتيجةَ هي إنَّ اللهَ لا يُعجزُه حفظ كتابهِ العزيزِ سالِمًا وسليماً من المتناقضاتِ والأخطاءِ والاختلافاتِ والعِوَج، وهــو القائل : « إنّا له لحافظون » ، « لا اختلافَ فيه » و « لا عِوَج » . وظلَّ اللهُ يقاومُ الانحرافاتِ والتبايناتِ التـــي أصـــابتْ مصحفَ عثمانِ حتى جاءَ بالحجّاجِ بن يوسف أشهر « دهاةِ التاريخِ العتاةِ الــذين يســتبيحون جميعَ المحرّماتِ في سبيل مآربهم » [٢] .

لقد قاوَمَ اللهُ حتى الآن ضعفَ النبيّ ووهَنَ ذاكرتِه، ومَنَــعَ عنــه حبائــلَ الشــيطانِ ودسائِسَه، وحفظَ الصحابةَ من كلِ ميلٍ وهوى، وعصَمهم بقدرتهِ العاصــمة، ودَفَــعَ الخلفــاءَ الراشدين لجمعِ شتاتِ المصاحفِ دفعاً، وأنار عقلَ عثمان بن عفّان ليختارَ من الحروفِ السبعةِ « أصحَّها » ، وألهَمَ

---

(١) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧ ـ ٥٩.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٢١٦.

زيداً بن ثابت اختيارَ مصحفِ حفصة من جملةِ مصاحفَ مختلفة، وجعلَ في قلوبِ أصحابِ المصاحفِ فضيلةَ القَبولِ والرضى، ووقفَ بوجهِ كلِ محاولةِ انشقاقٍ في الدين ... وظلَّ اللهُ يسيرُ بالقرآنِ بنجاحٍ حتى جاءَ بالحجّاج.

جاء الحجّاج بن يوسف فارتاحَ الله إليه. وارتاحَ المسلمون. وضُبطَ القرآن. وأُعْجِمَتِ الحروف. وشُكِّلَتِ الكلمات. وأُثْبِتَتِ القواعدِ. واستَوتِ الكتابة. ورُكِّزَ الخطُّ والرسْمُ ... كلُ شيء مع الحجّاجِ أصبحَ مُسْتَوِيًا مُستَقِيمًا. وكلُ ما يمتُّ إلى القرآنِ بصلةٍ ضُبِطَتْ رسومُه وقوانينُه. فلن يعودَ بعدَ الآنِ مجالٌ لأيِّ اختلافٍ في كتابِ اللهِ العزيز. إنّ بعضَ الأمورِ، على ما يبدو، لن تستقيمَ بدونِ قوّةٍ وبطشٍ وسلطان. فكانَ الحَجّاج لها.

أمّا كيفَ وصلتْ حالُ القرآن إلى الحجّاجِ فهذا من أمورِ البحث. وكيف تدخّلَ الحجّاجُ ليضبطَ المخالفين ؟ فهذا أيضًا من عملِ رجالٍ عصامِيِّين. واللهُ هو مسيُّر التاريخِ في كلِ حال. وهو لن تستعصيَ عليه حال، ولن يَتْركَ كتابَه لعبةً بأيدي العابثين.

إنّ معجزةَ اللهِ التي تمّتْ على يدِ الحجّاج لن تكونَ الأخيرةَ في عَالَمِ المعجزات. ولن يسلمَ ما صحّحَه الحجّاجُ ببطشِه وسلطانِه من صعوباتٍ جديدةٍ وتصحيفاتٍ كثيرة. ولهذا تعدّدتْ، بعدَ عصرِ الحجّاج، قراءاتُ القرآن، كما تعدّدتْ، من قَبْلُ، أحرُفُه، ومصاحِفُه. وأكثرُ هذه المفاسد حصلتْ في العراق، وذلك بسببِ وضعٍ سياسيٍّ خطير. فلننظر :

*****

أولاً ـــ الوضع السياسي

إنّ وصولَ عبدِ الملك بن مَروان على خلافةِ الأمويين سنة ٦٥ هــ / ٦٨٥ لهوَ حاسِمٌ في العالَم الإسلامي. ففكرةُ العصرِ الرئيسيةُ كانتْ آنذاك دَعْمَ السلطةِ المركزيةِ للحكم الأَمَوي، وتوحيدَ قِوَى الإمبراطوريّةِ الإسلاميةِ الواسعة، وتحطيمَ كلِ مخالفٍ معاندٍ في الداخلِ. عندئـــذٍ تكونُ ساعةُ الإصلاحِ مؤاتيةً حيثُ تُصبِحُ اللغةَ الرسميةَ للدولةِ الإسلامية، ويصـــبحُ القـــرآنُ مُوَحَّدًا مضبوطًا بحرفهِ ورَسْمِه وترتيبِه في جميعِ الأمصار.

وكانَ لعبدِ الملك شخصيّتانِ بارزتان : عُبيدُ اللهِ بنُ زياد (+ ٦٧ هــ) والحجّاجُ بنُ يوسفَ الثقفي (+ ٩٥). كان الأوّلُ حاكِمـــًا على خَرَسَان وسَجِستَان وبلادِ مـــا بين النهرين، و « يُنْسَبُ إليه أنّه أمَرَ رجلاً فارسيَ الأصلِ بإضافةِ الألف إلى أَلْفَي كلمة حذفتْ منها، فكـــانَ هذا الكاتِبُ ينسخُ : (قَالَتْ) بدلاً من (قلَتْ)، و (كَانَتْ) بدلاً من (كنَتْ) » [١].

وكان الثاني، الحجّاجُ بن يوسف، وَاليًا على الحجازِ بعدَ قضائه على ثورةِ مصعب بنِ الزبير وأخيهِ عبد الله، ثمّ حاكِمًا على العراقِ المضطربِ بفتَنِ الخَوارجِ والشيعةِ والساخطين، فأخمدَها وأرسلَ الجيوشَ التي فتحتْ بُخَارَى وبَلْخَ والسِـــنْدَ وعُمَـــانَ وســـــائِرَ المقاطعـــاتِ الإيرانية. [٢] و « كانَ يرى طاعةَ الخليفةِ فرضًا دينيًا، فأدّى به ذلكَ مع كثرةِ الفِتَنِ إلى القَسوةِ

(١) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١١٧، ونولدكه، ص ٢٥٥.
(٢) لامنس، الانسكلوبيديا الإسلامية، ٢ / ٢١٥.

في سياستهِ، فَكَرِهَهُ الكثيرونَ وأَلصَقُوا باسمهِ القَصَصَ الكريهَة. وكان متعصِّبًا للعروبةِ، فَقَسَا على الموالي، وأحلَّ اللغةَ العربيةَ محلَّ غيرِها في الدواوين. ولمّا كثرَ الخطأُ في قِراءةِ القرآنِ عَهِدَ إلى نصرِ بن عاصم بضبطِهِ » [٣] .

وخلالَ هذه الفِتَن، في الداخلِ والخارجِ، نشطَ كثيرٌ من القرّاءِ وانقسموا فيما بينهم، بين مناصرٍ للثورة، ومناصرٍ للحجّاج، واختلفوا في نصوصِ القرآن وقراءاتِه وحروفهِ وإعرابهِ ... ومثالُ ذلك مالك بن أنس الذي انتصرَ لقرآنِ ابن مسعود وقرآنِ أُبَيّ بن كعب، وكانَ الاضطهادُ عليه مِن قِبَلِ الحجّاج عنيفًا، وكذلك على الذين أحبَوا قرآنَي عليّ بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري.

ومن همِّ الحجاجِ في اخمادِ الفِتَنِ ووحدَةِ المسلمين انتقلَ الحجّاجُ إلى همِّ اصلاحِ مِصحَفِ عثمان وتوحيدِ الكتاب؛ لأنَّ توحيدَ الكتابِ يجرُّ حتمًا إلى توحيدِ صفوفِ المسلمين، وهو الأمرُ الذي قامَ به القسُّ وَرَقَة بن نَوْفَل والنبيّ مُحمّد من قَبْل، ومن بعدِهما عثمانُ بن عفّان، ثمّ الحجّاجُ بن يوسف، وهو على هذا المستوى، لوفرةِ ذكائه وبطشِه وتعصّبه.

ولئن كانتِ المهمّةُ صعبةً، وصعبةً جدّا، في تتبّع المصاحفِ العثمانيّةِ المنتشرةِ في كلِ مكانٍ بانتشارِ المنشقّينَ وأصحابِ البِدَعِ والفِرَقِ المتعدّدة، فانّ أهونَ الأمورِ كان، عندَ الحجّاج، ضبطَ مصحفِ عثمان واصلاحَه، فتزولُ، بذلك، سائرُ المصاحفِ، وتتوحّدُ الأمّةُ على قراءةً واحدة. وليسَ من وسيلةٍ أخرى[٤] .

(٣) الموسوعة العربية الميسّرة، بإشراف محمد شفيق الغربال، مادّة الحجّاج بن يوسف، ١ / ٦٩٠.
(٤) انظر الحيوان للجاحظ ٥ / ٦٥، نزهة ٢٠، القالي للأمالي ١ / ٨٦ .

ثانياً ــ وضع المصاحف العثمانية

أمّا الحالة التي وصلَ إليها القرآنُ، حتى أيّامِ الحجّاج، فقد كانتْ تدعو إلى الفَشَل، فيها « كَثُرَتِ التصحيفاتُ وانتشرتْ في العراق » [١] « ووقَعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضع الكلمات » [٢] . وقد عبَّر عنها أحدُ المسلمين بــ « تناقضاتٍ واضحةٍ فاضــحة » [٣] ، وأعطى أمثلةً على ذلك « مِثْل تحريفِ صيغةِ التوكيدِ إلى صيغةِ النفــي : لا أذبحنّــه » [٤] ، ومثل نقصِ الألف وزيادتِها بغيرِ مُوجب : « وعتو » [٥] و « يدعوا حزبهِ » [٦] ، ومِثل زيادةِ أحرفٍ ونقصانِها في بعض الكلمات دونَ بعض : « مــن نبــاى المرســلين » [٧] ، وســبع سمــوات... سمــوت » [٨] ، ومِثــل رسمِ التــاءِ مفتــوحة في بعضِ الكلمات دون بعــض: « نعمت »[٩] و « نعمة الله » [١٠] ، كذلك « سنّت الله » [١١] و « سنّة الله » [١٢] ، ومثل إبدالِ السين صاداً في بعض المواضع : « بسطة » [١٣] و « بصطة » [١٤] ، ومثل حذفِ الألف من « قالَ » في بعض المواضع واثباتها في بعض[١٥] .

(١) وفيات الأعيان، ص ١٢٥.
(٢) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧.
(٣) نفس المرجع.
(٤) سورة النمل ٢٧ / ٢١.
(٥) سورة الفرقان ٢٥ / ٢١.
(٦) سورة فاطر ٣٥ / ٦.
(٧) سورة الانعام ٦ / ٣٤.
(٨) سورة فصلت ٤١ / ١٢.
(٩) سورة البقرة ٢ / ٢٣١.
(١٠) سورة المائدة ٥ / ٧.
(١١) سورة فاطر ٣٥ / ٤٣.
(١٢) سورة الفتح ٤٨ / ٢٣.
(١٣) سورة النساء ٤ / ٨٢.
(١٤) سورة الأعراف ٧ / ٦٩.
(١٥) انظــــر : ٢٣ / ١١٢ و١١٤، ٢١ / ٥٢ و٥٤ و٥٦ و٦٣.

« والناظر لهذا الاختلاف، الذي أوردنا بعضَه، يرى أن الرسْمَ القديمَ يقلبُ معاني الألفاظ، ويشوِّهُها تشويهًا شنيعاً، ويعكسُ معناها بدرجةٍ تُكَفِّرُ قارئيه وتحرّفُ معانيه. وفضلاً عن هذا فانَّ فيه تناقضًا غريبًا، وتنافرًا مُعيباً، لا يمكنُ تعليلُه، ولا يُستطاع تأويله » [١٦] .

« ولَحْنُ الكتّابِ في المصحفِ العثماني أدَّى إلى تحريفٍ في الكَلِمِ المنزّلِ : ذلك رأيُ عائشة في قولهِ : « إن هذان لساحران » [١٧] ، « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكوة » [١٨] ، « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » [١٩] قالت : « هذا مِنْ عَمَلِ الكُتَّابِ أخطأوا في الكتاب » .

« ورأي سَعيد بن جُبير قال : « في القرآنِ أربعةُ أحرفِ لَحْنٍ ... وقد قرأَها مستقيمةً بعضُ القراء، مثلِ أبي عمرو ويعقوب. وسُئِلَ أبَّانُ بن عثمان عن « المقيمين » وما بين يديها وما خلفها رَفْعٌ وهي نصبٌ ؟ قال : « مِنْ قِبَلِ الكَاتِب » .

« وكان ابنُ عَباس يُبَدِّلُ القراءةَ المشهورةَ بقراءتِه : « حتّى تستأنسوا وتسلموا » [٢٠] و « أفلم يتبيّنِ الذينَ آمنوا » [٢١] و « وصّى ربُّك » [٢٢] بدلاً من « حتى تستأذنوا، أفلم ييأس، وقضَى ربّك » ، ويقول : « انّما هي مِنْ خَطَأِ الكاتبِ قد كَتَبَها وهو نَاعِسٌ » . وكان يَقرأ « مثلُ نورِ المؤمن كمشكاةٍ » بدلاً من « مثل نورِه » ، ويقولُ هي خطأٌ مِنَ الكَاتِبِ، وهو تَعالى

(١٦) ابن الخطيب، الفرقان ٧١ ـ ٨٢ الفصل كله، عن الحداد ١ / ٢٤٦.
(١٧) سورة طه ٢٠ / ٦٣.
(١٨) سورة النساء ٤ / ١٦٢.
(١٩) سورة المائدة ٥ / ٦٩.
(٢٠) سورة النور ٢٤ / ٢٧.
(٢١) سورة الرعد ١٣ / ٣١.
(٢٢) سورة الإسراء ١٧ / ٢٣.

أعظم من أن يكون نورُه مثلَ نورِ المشكاة » . ختَم بقوله : « ومما لا شكّ فيهِ أن كتابَ المصاحفِ من البشر يجوزُ عليهم ما يجوزُ على سائرهم من السَهْو والغَفْلَةِ والنِسيان، والعصمةُ للهِ وحدَه. وقد اختلفوا في عصمةِ الأنبياء. والقولُ الراجح إنهم معصومون فيما يتعلّقُ برسالاتهم فقط، أمّا ما عداها فشأنُهم كشأنِ بقيّةِ البشر » [٢٣] .

هذه صورةٌ عمّا يمكِنُ تصوّره. ومَن أرادَ المزيدَ من هذه الصورة فليرجع، مثلاً، إلى كتاب « حجّةِ القراءاتْ » للإمامِ أبي زرعة بن زنجلة، وفيه أكثر من ٧٠٠ صفحة في تعدّد القراءات والاختلافات فيها[٢٤] .

أمّا السيوطي فيحصرُ أخطاءَ مصحفِ عثمان في « ستةِ قواعد : الحذف، والزيادة، والهمز، والبدل، والفصْل، والوصلُ، ويعطينا أمثلةً ضافيةً عن كلِ قاعدة، يبيّنُ فيها ما في المصحفِ العثماني من كلماتٍ كُتِبَتْ بأشكالٍ متعدّدة، خلافًا لما هو في اللغة العربيّة[٢٥] .

وكذلك الحجّاجُ بن يوسف رَفَعَ، في اثني عَشَر موضعًا، كلماتٍ قرأها الصحابةُ بَدَلَ كلمات، مثل : « إيمانِهما » بدل « أيديهما » [٢٦] ، و « لا تُجزَى نسمةٌ عن نسمة » بدل « لا تُجزى نفسٌ عن نفس » [٢٧] ، و « صَفَراء لذّة للشاربين » بدل « بيضاء لذة للشاربين » [٢٨] ، و « ادراس وادراسين » بدل « الياس والياسين » [٢٩] ، و « جاءت سكرةُ الحقِ بالموتِ » بدل « وجاءتْ

---

(٢٣) ابن الخطيب، الفرقان ٤١ ـ ٤٥ الفصل كلّه، عن الحدّاد ١ / ٢٤٦.
(٢٤) حجة القراءات، للإمام أبي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩.
(٢٥) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٦٦ ـ ١٧٣.
(٢٦) سورة المائدة ٥ / ٣٨.
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٤٨.
(٢٨) سورة الصافات ٣٧ / ٤٦.

سكرةُ الموتِ بالحقّ » [٣٠]، و « صراط مَن أنعمتَ عليهم » بدل « صراط الذين أنعمتَ عليهم » [٣١]، و « الحيُّ القيّام » بدل « الحيّ القيّوم » [٣٢]، و « للذين يقسمون » بدل « للذين يؤلون » [٣٣]، و « اركعي واسجدي مع الساجدين » بدل « واسجدي واركعي مع الراكعين » [٣٤]، و « مثقالُ نملة » بدل « مثقال ذرّة » [٣٥]، و « تزوّدَا وخيرُ الزادِ التقوى » بدل « وتزوّدوا فإنَ خيرَ الزاد التقوى » [٣٦]، وأخيرًا « وشاوِرهم في بعضِ الأمر » بدل « وشاورهم في الأمر » [٣٧].

*****

وهكذا ترى، بعد جمع عثمان للمصاحف وتوحيدها في مصحفٍ واحدٍ، كيفَ وقعتِ الأخطاءُ والمتناقِضاتُ أحيانًا، رغم حرصِ المسلمين على سلامةِ النصِّ والحرف. وأنتَ ترى أيضًا كيفَ كانتِ الحالُ قبلَ عثمان ولماذا قرّر عثمانُ توحيدَ المصاحف، ولماذا قال : « أَجِدُ فيهِ (في القرآن) ملاحِنَ وستَُصلِحُها العرب » [٣٨]، ولماذا تدخّلَ الحجّاج بسلطانهِ فتجرّأَ على إتلافِ المصاحفِ العثمانية، حتى لم يبقَ منها إلى اليوم مصحف ...

---

(٢٩) سورة الصافات ٣٧ / ١٢٣.
(٣٠) سورة ق ٥٠ / ١٩.
(٣١) الفاتحة ١ / ٧.
(٣٢) سورة آل عمران ٣ / ٢.
(٣٣) سورة البقرة ٢ / ٢٢٦.
(٣٤) سورة آل عمران ٣ / ٤٣.
(٣٥) سورة النساء ٤ / ٤٠.
(٣٦) سورة البقرة ٢ / ١٩٧.
(٣٧) سورة آل عمران ٣ / ١٥٩.
(٣٨) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ٣٢.

ثَالثاً ـــ ضبط المصاحف العثمانية

بسبب هذا الوضعِ السيّئِ للمصاحفِ العثمانيّة وسوءِ تلاوتِها، تَدَخَّلَ الحَجّاجُ فأصلحَ ما أمكنه اصلاحُه، وأتلفَ ما أمكنه اتلافهُ، ولمسَ الجميعُ مع الحَجّاجِ فسادَ القراءات، فطلبَ زيادُ بن سميّة والي البصرة من أبي الأسود الدؤَلي النحويّ الشهير أن يضـــعَ طريقـــةً لإصـــلاحِ الألْسنة، وقالَ له : « إنّ هذه الحَمْرَاءَ قد كَثُرَتْ وأَفْسَدَتْ من أَلسنةِ العرب، فلو وضعتَ شـــيئًا يُصلِحُ به الناسُ كلامَهم ويُعرِبُون بهِ كتابَ الله » .

« فأَبَى أبو الأسود أولاً لبعضِ أسبابٍ كان يراها. فأمَر زيادُ رجلاً أن يَقْعُدَ في طريقِ أبي الأسود، فلمّا قاربَه رفعَ صوتَه بالقراءةِ كأنّه يقصُدُ إسماعَ أبي الأسود، وقـــرأ : « إنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين ورسولِهِ » ، بِكَسْرِ اللام. فأعظمَ ذلك أبو الأسود وقال : « عزَّ وجهُ اللهِ أَنْ يبرأَ مِن رسولِهِ » . ثمّ رجَعَ من حينهِ إلى زياد، وقالَ له : « قد أَجَبْتُكَ إلى مـــا ســـأَلْتَ، ورأيتُ أن أَبْدَأَ بإِعرابِ القرآن » . فكانَ ذلك[١] .

ولكن، رغم هذه الرواية، يختلفُ الناسُ فيمنْ بدأَ بضبطِ المصحف،أَهوَ أبـــو الأســـود الدؤلي أم الحسنُ البصرى أم يحيى بن يعمر، أم نصرُ بن عاصم الليثي[٢] ؟ اللهُ أعلم. وفي كلِ حال، جَرى الإصلاحُ، وقَام على

---

(١) الزركشي، البرهان ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥١، الزنجاني، تاريخ القرآن ٨٧ ..

(٢) السيوطي ٢ / ١٧١. انظر في سيرة هؤلاء الرجال : وفيات الأعيان ٢ / ٢٢٦، وغاية النهاية ٣٨١، وسير النبلاء ٤ / ٢٥١ وغيرها ...

وَضع النقَطِ فوقَ الحروفِ المتشابهة، والشكلِ فوقَ الحروفِ لتعيينِ مواقِع الكلمات، ووضـــعِ الهمزِ والتشديدِ والروم والاشمامِ، ورسْمِ الخطِ وحروفِ العلّة ... وغيرِ ذلك.

ومع هذا بقيَ في القرآنِ كلماتٌ لم يُجْرَ عليها الإصلاح، في حين أنَّ كلماتٍ أُصـــلِحَتْ في مكانٍ وَبَقيتْ كما هي في مكانٍ آخر. فتجدُ مثلا كافرون وكفرون، وأنهار وأنهر، وأطيعونِ وأطيعوني، وسموات وسموت؛ وَيُعَدُّ هذا الشذوذُ بالآلاف. لعلّ التصحيحَ توقّفَ في منتصـــفِ الطريق ؟ أو لعلّ في القرآنِ لغَتَين : حجازية ونجدية ؟ أو لعلّ قدسيّةَ الحرف أوقفتْ حماســـةَ المصلحين! والمعروفُ عن ابنِ مسعود قولُه : « جرِّدوا القرآنَ ولا تَخلِطوه بشيء » . [٣] .

وخشية المسلمين زيادة شيءٍ على القرآن، اعتمدَ المصلحون على استعمال الألـــوان : فكانَ « الحركاتُ والتنوينُ والتشديدُ والسكونُ والمدُّ بالحمرةِ، والهمزاتُ بالصفرة » [٤] . وأمّا الشكلُ فكان نقَطـــاً : فالفتحةُ نقطة على أوّلِ الحرف، والضمّةُ على آخِـــرهِ، والكسرةُ تحـــت أوّلِه » [٥] . وعندما جاء الخليل (+ ٧٨٦) جعلَ « الفتحَ شكلةً مســـتطيلةً فـــوق الحـــرف، والكسرَ كذلك تحتَه، والضمَّ واو صُغرى فوقَه، والتنوينُ زيادة مثلها » [٦] .

ومن ناحيةِ السُوَر، لم يكنْ يفصِل بين سورةٍ وســـورةٍ إلا فســـحةُ بيضـــاء أو دائـــرةٌ مزركشة، دونَ عنوانٍ لها[٧] . ولكن، في المخطوطاتِ الكوفيّة،

---

(٣) انظر السيوطي، ٢ / ١٧١.
(٤) نفس المرجع.
(٥) نفس المرجع.
(٦) نفس المرجع.
(٧) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١٥٨.

أصبحَ عنوانُ السورةِ في الدائرة. وهو، كما يبدو، مضافٌ إليها فيما بعد. وقد أخرجَ ابن أبـــي داوود عن النخعي إنّه كانَ يكرَهُ أن يَكتبَ في المصحفِ سورَة كذا وكذا. وكذلك الحليمي يكرهُ كتابَة أسماءِ السُوَرِ وعددِ الآياتِ وكتابةَ الأعشارِ والأخماسِ والفَوَاتِحِ والخواتِم(٨) ...

ويبدو أيضًا أنّ المصاحفَ الحجازية لا تتضمّنُ أرقامَ الآيات، مثل مخطوطِ المكتبـــةِ الوطنية بباريس رقم ٣٢٨، في حين تتضمّنها أرقام ٣٢٦ و ٣٢٤. وفي البدءِ كان يفصلُ بينَ الآيةِ والآيةِ خطٌّ منحرف، وفيما بعد فصلتْ بزخرفةٍ على شكلِ زهرة، وكانتْ غالبَ الأحيـــانِ مذهّبةً. كما كان يوضَعُ بين أوراقِ المصحفِ أوراقٌ من زهرِ الورد، اذ « يُســتَحبّ تطبيـــبُ المصحف » (٩) .

* * * * *

هذا التجديدُ في المصحفِ، بإضافةِ عناوين السورِ وعددِ الآياتِ ووضـــعِ الحركـــاتِ والنقطِ وتقسيمِ القرآنِ إلى أجزاء وأعشار وأخماس وأحزاب وغير ذلك، كان مدارَ جدالٍ طويلٍ في الإسلام حتى أواخرِ الجيلِ الثالث للهجرة / بدايةِ الجيلِ العاشر للميلاد. وكان الجدالُ يدور حولَ شرعيّتِها، وكانتِ السلطاتُ السياسية تحزمُ بالأمرِ وتجـــزم. واختلـــفَ المحـــدّثون فـــي شرعيّتها. وصوابيتِها، كما هم مختلفون حتى اليوم بشرعيّةِ طباعةِ المصاحفِ بخطِّ المطـــابع دونِ الرسْم العثماني.

ففي نَظَرِ بعضِهم، كالزرقاني وابن المبارك وعبدِ العزيز الدباغ وغيرهم، أنّ الرســـمَ العثماني أَمْرٌ الهيٌّ وسِرٌ ربّاني. « وما للصحابةِ، ولا

---

(٨) السيوطي، الاتقان ٢ / ١٧١، الأعشار والأخماس تقسيم الآيات ١٠ و ٥.
(٩) نفس المرجع ٢ / ١٧٢، انظر المحكم، ص ١٥.

لغيرهم في رسمِ القرآنِ ولا شعرةٌ واحدة، وانما هو توقيفٌ من النبيّ، وهو الــذي أمَــرَهم أن يكتبوه على الهيئةِ المعروفة ... لأسرارٍ لا تهتدي إليها العقول؛ وهو سرٌّ من الأسرارِ خَــصَّ اللهُ بهِ كتابَه العزيز دونَ سائرِ الكتب السماوية. فكمــا أنّ نَظْمَ القرآنِ مُعجَز فرسْــمُه أيضًــا معجز » [١٠].

وللرسمِ العثمــاني في نفسِ الإمام أحمد بن حنبل قدسية لا مجــالَ للشكِّ فيهــا، وهو « يحرِّم مخالفةَ خطِّ مصحفِ عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك » [١١]. وعندما سئل الإمامُ تغيير الرسمِ العثماني أجاب « لا أرى ذلك. ولكن يُكتَبُ على الكَتْبَــةِ الأولــى » [١٢]، وقال البيهقي : « مَنْ يَكتب مصحفًا فينبغي أن يحافِظَ على الهِجــاءِ الــذي كَتبــوا بــه تلــكَ المصاحف، ولا يخالِفُهم فيه، ولا يُغيِّر مما كتبوه شيئًا، فانّهم كانوا أكثرَ عِلمًا وأصــدَقَ قلبًــا ولسانًا وأعظمَ أمانةً منّا » [١٣].

أمّا القاضي أبي بكر الباقلاني فهو يجيز تغييرَ الرسمِ العثمــاني دون خــوفٍ علــى قدسيّته. ولكنّ الزرقاني ردَّ عليه واستشهدَ في دحضِ آرائه بجمهرة من العلماء[١٤].

وفي رأيِ المسلمين اليوم بعضُ الشَفَقَةِ على العامّةِ من الناسِ الذين « لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآنَ في رَسْمِهِ القديم، فيحسن، بل يجب، أن يُكتب لهم بالاصطلاحاتِ الشائعةِ فــي عصرهم » . ولكنّهم، مع هذه الشفقة ألا يستطيعونَ التخلّصَ من قدسيةِ الرسم العثماني، لهــذا فَهُمْ لا يُبيحون إلغاءَه بهذهِ السهولة، لأنّ في إلغائِه تشويهًا لرمزٍ دينيٍّ عظيم، اجتمعتْ عليــه الكلمة، واعتصمتْ به الأمّة من الشقاق » [١٥].

---

(١٠) الزرقاني، مناهل العرفان ١ / ٣٧٠.
(١١) السيوطي، الاتقان ٢ / ١٦٧.
(١٢) نفس المرجع، المقنع ١٠ .
(١٣) السيوطي، ٢ / ١٦٧.
(١٤) الزرقاني ١ / ٣٧٣ ـ ٨ ...
(١٥) الصالح، ص ٢٨٠.

رَابعاً ــ رخصة القراءات

قَضى الحَجّاج، وفي ظنِّه أنَّ كلَّ خلافٍ حولَ المصحف قد حُلَّ من جــذوره. ولكــنَّ الناسَ، بعد موتهِ، عادوا إلى ما كانوا عليه من خلافات. والخلافُ، الآن، يقوم علـــى قــراءةِ مصحفِ الحَجّاجِ نفسه، أي على كيفيّةِ قراءته. وكانَ كلُ قارئ يقرأُ القرآنَ بحسبِ مـــا نشـــأ عليه، لا بحسب ما جَرى الاصطلاح فيه أو الإصلاح عليه.

« وتدور هذه الخلافيات على الأغلب في النطاق التالي :

١ً ــ مخارج الحروف، كالترقيقِ والتفخيمِ والمَيلِ إلى الخـــارج المجـــاورَةِ، كنطـــقِ الصراطِ بإمالَةِ الصَاد إلى الزاي.

٢ً ــ والاداء، كالمدِّ والقصرِ والوقفِ والوصلِ والتسكينِ والإمالَة والأشْمَام.

٣ً ــ والرسم، كالتشديدِ والتخفيفِ، مثل « يُغشَى يُغَشّى » ، و « فُتِحَت وفُتِّحَـــت » ، والإدغام والإظهار، مثل « تَذَكَّرون وتتذكرون » . والهمز ومدّ الألف، مثل « مْلكِ ومالك » ، و « مَسَٰجد ومساجد » ، لتحمّل الرسم النطقين.

٤ً ــ والتنقيط والحركـــات النحوية، مثـــل « يفعلون وتفعلـــون » ، و« أرجَلَكـــــم وأرجلِكم » ، مثلا » [1].

---

(١) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ١٣٦.

أمّا الشروط التي حدّد بها المسلمون صحّة القراءة، منعًا لتفاقمِ الخـلاف، فأربعـةٌ : التواترُ، وموافقةُ قواعدِ اللغةِ العربية، ورسمُ المصحفَ العثماني، وصحّةُ سَنَدِ القراءةِ إلى أحدِ قرّاءِ الصحابة.

ورأى المسلمون تبريرًا من النبيّ نفسِه لهذه الاختلافـات، فقـال الإمـامُ الطحـاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن البر وغيرُهم من أئمّة الكلام : « إن القراءاتِ جميعَها كانتْ رُخْصَةً في أوّلِ الأمرِ، لتعسّرِ القراءةِ بلغةِ قريش على كثيرٍ من الناس ... » (٢) .

وقال ابن قتيبة : « إن مِن تيسيرِ الله أَنْ أَمَرَ نبيَّه أن يُقرِئَ كلَ قـومٍ بلغـتهم » (٣) . وكذلك هو رأي الطبري الذي جوّز لعثمانِ بن عفّان جمعَ الناسِ على حرفٍ واحد من الأحرف السبعة، كما رأينا.

ورأى المسلمون أيضا للنبيّ تبريرًا من عندهم فقال ابن قتيبة : « ولو أنّ كلّ فريـقٍ من هؤلاء أمرَ أن يزولَ عن لغتهِ وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً لأشتدَّ ذلك عليه، وعظمـتِ المحنةُ فيه، ولم يمكنْه، إلاّ بعد ريـاضةٍ النفسِ طويلة، وتذليـلِ للسـان، وقطـعِ العادة » (٤) .

*****

أمّا القراءات فهي تختلف من حيثُ انتماء أصحابِها إلى العواصمِ الإسلاميّة الكبـرى، كما تختلفُ من حيثُ عددها، فمنهم من قال بسبعِ قراءات، ومنهم بعشرٍ، ومنهم بأربعَ عشرة.

---

(٢) دروزة، ص ١٣٩، عن ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٦٧.
(٣) نفس المرجع.
(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧، النشر في القراءات العشر ١ / ٢١، ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ١٢٣.

وشيخ القرّاء في المدينة كان « نافع المدني » (+ ١٦٩ هـ)، وفي مكّة « ابن كثير » (+ ١٢٠ هـ)، وفي البصرة « زبان بن العلاء المازني » (+ ١٥٤ هـ)، وفي الشام « ابن عامر الدمشقي » (+ ١١٨ هـ)، وفي الكوفة « عاصم بن أبي النجود » (+ ١٢٧ هـ)، وهكذا إلى آخرهم، كما هو معروف في الكتب. ومن أرادَ معرفتهم بالتفصيلِ فليقرأ مثلاً كتابَ « حجّة القراءات » للإمام أبي زرعة بن زنجلة[٥] ... ومن المعروف أيضًا أنّه كان لكلِ قارئ تلاميذ، أخذوا عنه طريقتَه في التلاوةِ والأداءِ والتجويد.

« هذا غير قراءات أخرى لا عدادَ لها سمّيت « شاذّة » ، لشذوذها عن اللغة، وعمّا أجمعَ عليه المسلمون، ولتغييرها للألفاظِ والمعاني في كثيرٍ من المواضعِ. وقد بلغَ من هذه القراءاتِ والاختلافاتِ انّ الآيةَ الواحدةَ، التي لا يَختلِفُ في النطقِ بها ولا في معناها اثنان، قد يَبلغُ الاختلافُ في روايتها إلى عشرينَ أو ثلاثينَ أو أكثر من ذلك. وقد بلغتْ هذه الطرق تسعماية وثمانين طريقًا للقراءاتِ العشر فقط » [٦] .

******

ولم يقتصرِ الخلافُ في القراءاتِ وحسب، بل تعدّاها إلى معنى الآياتِ وكيفيّةِ فهمِها. ومن هذا القبيل قالوا بـ « المُحْكَم والمُتَشَابهِ » في القرآن. وهذا يعتمدُ على ما جاء في الكتاب: « هو الذي أنزلَ عليك الكتاب، منه آياتٌ مُحْكَمَات هُنَّ أمُّ الكتاب، وأُخَر مُتَشَابِهَات » [٧] . وقامَ

---

(٥) انظر : صفحة ٥١ ـ ٧٣ حيث تجد سيرة كل قارئ مع تلاميذه.
(٦) انظر : الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢٥١، عن الفرقان لابن الخطيب.
(٧) سورة آل عمران ٣ / ٧.

مِن بين المسلمين مَن قال : « إن القرآنَ كلُّه مُحكم، لقولهِ تعالى : كتابَ أحكمت آياته » . ومَن قال : « كلُّه متشابه، لقولهِ تعالى : كتاباً مُتَشَابهاً مثاني » [٨] .

وتحديدُ « المُحكَمِ » هو « ما عُرِفَ المُرادُ منه » ، أو « هو الذي يَدلُّ على معناه بوضوحٍ لا خفاء فيه » ، أو أيضاً « ما لا يَحْتَمِل من التأويلِ الاّ وجهًا واحداً » . وتحديدُ « المتشابِه » هو « ما استأثَرَ اللهُ بعلمهِ، كقيامِ الساعة وخروجِ الدجّالِ والحروفِ المقطعة في أوائل السور » ، أو « هو الذي يخلو من الدلالةِ الراجحةِ على معناه » ، أو أيضًا « ما لا يُدْرَك الاّ بالتأويل » [٩] .

واختلفَ المسلمون فيمَنْ يعرفُ المتشابِه : أهوَ اللهُ وحدَه، من قولهِ تعالى : « لا يعلمُ تأويلَه الاّ الله » ؛ أم يعلمُه أيضًا « الراسخون في العلم ؟ » والواقع إن أمورًا متشابِهةً يعرفُها اللهُ وحده، وأموراً يعرفُها العلماءُ الذين يعتمدون على الاجتهادِ والتأويلِ. وما لا يعلمُه العلماءُ مثلاً، علمَ الساعةِ واليومِ الأخير وذاتِ الله وخروجِ الدابّة وعلمَ ما في الأرحامِ ومعرفةِ المستقبل وساعةِ الموت[١٠] ... كلّها منوطٌ باللهِ وحدَه.

أمّا ما يمكن للعلماءِ معرفتُه فقد اختلفوا فيه : اختلفوا في صفاتِ الله التي تشبّه ذاتَ اللهِ بالبَشر، كقوله : « الرحمٰن على العرشِ استوى » [١١] ، و « يبقى وجهُ ربِّك » [١٢] ، و « يدُ اللهِ فوقَ أيديهم » [١٣] ، وغيرها. فمنهم

---

(٨) انظر السيوطي، ٢ / ٢.
(٩) نفس المرجع.
(١٠) انظر سورة لقمان ٣١ / ٣٤.
(١١) سورة طه ٢٠ / ٥.
(١٢) سورة الرحمن ٥٥ / ٢٧.

مَن آمنَ بها كمـا هي وفَوَّضَ معرفتَهـا إلى اللهِ، كقولِ الإمـام مالك عن الاسـتواء في آية « الرحمن على العرش استوى » ، فقال : « الاستواءُ معلوم، والكيفُ مجهول، والسؤالُ عنه بدعة، وأظنَّك رجلَ سواءٍ. أَخرِجوه عنّي » (١٤) .

ومنهم من ذهبَ في تأويلِها حتى يليقَ معناها بذاتِ الله، ففسّروا مـثلا « الاسـتواء » بالعلوِ المعنوي بالتدبير من غير معاناة » (١٥) ، و « الوجه » هـو ذات الله(١٦) ، و « اليـد » قدرتَه(١٧) . واختلفَ هؤلاءِ في التأويل بعضُهم ببعض، ونشأَ عن خلافِهم الفِرَقُ في الإسـلام، فكانتِ الجَهْمِيَّةُ والجَبرِيَّةُ والقدريةُ والمعتزلةُ والصفاتِية وعلماءُ الكلام وغيرُهم ...

إلاّ أنّ مسلمي اليوم يرون في وجودِ المتشابهِ حكمةً ما بعدها حكمة، فيقـولُ الشـيخ صبحي الصالح مثلا : « لعلَّ اشتمالَ القرآنِ على المتشابهِ وعدمِ اقتصارهِ على المُحْكَمِ وحدَه، أن يكونَ حافِزًا للمؤمنين على الاشتغالِ بالعلومِ الكثيرةِ التـي تُقَـدِّرهم علـى فَهْـمِ الآيـاتِ المتشابِهات، فيَتَخلَّصونَ من ظلمةِ التقليدِ، ويقرؤونَ القرآنَ متدبرينَ خَاشِعِين » (١٨) .

******

وقامَ أيضاً من بين المسلمين من يتعرّضُ للقرآنِ، بعدَ إصـلاحه وجمعـهِ وضـبطهِ، ويعبّرون عن مواقفِهم بتعابيرَ مثل : التحريفِ والتصـحيفِ والتبـديلِ والإقحـامِ والزيـادة والنقصان ... وغيرها. فكان منهم مَنْ قَبِلَ

---

(١٣) سورة الفتح ٤٨ / ١٠.
(١٤) السيوطي، الاتقان ٢ / ٦.
(١٥) نفس المرجع ٢ / ٧، البرهان ٢ / ٨٠ ـ ٨٢.
(١٦) نفس المرجع ٢ / ٧، البرهان ٢ / ٨٢.
(١٧) الاتقان ٢ / ٧ و ٨.
(١٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ص ٢٨٦، عن البرهان ٢ / ٧٥.

بالقرآن على وجوهه، ومنهم مَنْ رَفَضَ منه كثيرًا من السور والآياتِ.

فالمعتزلة، التي ترى في اللهِ الصلاحِ المطلق، ترفضُ أن يكونَ في القرآنِ شتائمَ ولعنات، كما هو الحال في عَدَاوة النبيّ محمّد وأبي لهب وامرأتِه حمّالةِ الحطب، والوليدِ، وأبي جهل، وغيرهم(١٩) . فهذه الشتائم لا تليقُ بالوحي بحالٍ من الأحوالِ، فرفضها المعتزلة، وقالوا بأنّ إضافاتٍ بشريّةً حدثتْ في القرآن(٢٠) .

والعَجَارِدَةُ أنكرتْ أن تكونَ سورةُ يوسف من القرآن، وتقولُ بأنّها في حقيقتها قصّةٌ غراميّةٌ لا تليقُ بالوحي، ولا يُعْقَلُ أن تكونَ من صلبِ القرآن(٢١) . فهي بالتالي إضافةٌ بشريّةٌ على كلامِ الله.

والعُبَادِية يشتكون من عثمانٍ ويتّهمونَه بتصحيفِ القرآن وتحريفِه من أجلِ غاياتٍ سياسيّةٍ معروفة(٢٢) . وكذلك بعضُ شيعةِ عليّ وقد كانوا أكثرَ تهجّماً على القرآن، واتّهموا عثمانَ بحذفِ كلِ ما يمتّ إلى عليٍّ بنِ أبي طالبِ بصلة، وأوجدوا لذلك لفظةَ « تبديلٍ في القرآن » (٢٣) .

ربّما يكونُ انتقادُ الفِرَقِ لمصحفِ عثمان وإصلاحِ الحَجّاجُ مُغرِضًا، لمآربَ سياسيةٍ ومصالحَ شخصيةٍ، ولكنَّ النَقْدَ الصحيحَ لا بدّ له أن ينظرَ في الأسسِ التاريخية التي، بالكشفِ عنها، قد تكونُ جارِحَةً في حق كلامِ الله، ولكن لا بدّ منها لأجلِ حقِّ الله :

---

(١٩) Goldziher, Dogme, p. 163.

(٢٠) Nöldeke, Geschichte des Qorans, II, 94.

(٢١) انظر الشهرستاني، الملل والنحل ٩٥، Goldz., Dogme, 162

(٢٢) Massignon, Hallaj, 242 et n° 7.

(٢٣) Nöldeke, G. d. Q. II, 94 …

من حقِّ اللهِ أن يسألَ عن تبديلِ الآياتِ الذي جرى في السُوَر : فلماذا وُضعتْ آية ٦١ في سورة ٢٤ في الموضِع الذي هي فيه، فيما هي في السورة ٤٨ آية ١٧ في مكان آخــر ؟ ويبدو أن هذه الأخيرة هي الأصح! ولماذا آية ٤ في سورة ٧٠، وهي بدون نظم ولا قافية، بل لكأنّها تفسير للآية السابقة! وكذلك آية ٣٨ في سورة ٤٢ فهي اقحام على النصّ زادها عثمان لتبريرِ خلافته على حسابِ عليّ[٢٤] . وكذلك ٣ / ١٤٤ فهي أيضًا مقحمة، لا محرّفة فقط كما يدّعي « دى ساسي » و « ويل » .

ثمّ لئن كانتْ سورةُ « النــورَين » شيعيّةً لا يُعْتَدُّ بأَصَالَتِهــا، فإنّ سورتَي « الحَفْدِ » و « الخَلْعِ » ، الواردتين في مصحَفَي أُبَيّ بن كعــب وابــن مســعود لا يُظَــنُّ بزيادتِهمــا، وأصحابُهما من خِيرةِ القرّاءِ من الصحابة! ثمّ إنَّ آيةَ الرجمِ، وقد أكَّدَها عمر وحدَه، هل يؤخَذُ بها، والشاهدُ عليها رجلٌ واحدٌ، فيما اتّفق المسلمون على إثباتِ الآيةِ من جملةِ شهود! الخ ...

******

الحقيقة إن مصحفَ الحَجّاج لم يَسْلَم من التِهَمِ والرَفض. فاختلافُ المسلمين فيه خيــرُ دليل. وما إيجادُ نظريّاتٍ، مثل « تعدّدِ القراءات » ، والتمييز بين « المُحْكَــمِ والمتشَــابِه » ، وبين « الناسِخِ والمنسوخِ » ، ورفضِ بعض السُوَرِ والآيات ... إلاّ تبريرٌ لِمَا لم يُفْلِــحْ فيــه الحَجاج. ولئن بقي القرآنُ كتابَ إيمانٍ لا يَمَسُّهُ الاّ المطهَرون، فانّه سيظلّ عنــد المــؤرّخين موضوعَ بحثٍ يحقُّ لأيِّ باحثٍ قَلِقِ التثبتَ من أساساتِه.

Casanova, Mohammed et la fin du monde, p. 151. (٢٤)

خاتمة الفصل

لنا على إصلاحات الحجّاج بعضُ الملاحظات : لماذا أتلفَ مروان بنُ عبد الملك مصحفَ حفصة ؟ ألـِ « خشيةِ أن يكونَ فيها ما ليسَ في المصحف العثماني ؟ » [٢٥] . ولماذا لم يبقَ بين أيدينا اليومَ أيّةُ نُسخةٍ من مصحف عثمان ؟ وهذا ما يقوله المسلمون أنفسهم : « إن الباحثَ ليتساءل : أينَ أصبحتِ المصاحفُ العثمانية الآن ؟ ولن يَظفِرَ بجوابٍ شافٍ على هذا السؤال » [٢٦] .

وهناك روايةٌ تقول « بأنَّ المصحفَ المتداول انّما هو مصحفُ الحَجاج وجمعُه وترتيبُه ... وأن الحَجاجَ قد جمعَ المصاحفَ المتداولةَ ومصاحفَ عثمان وأبادَها » [٢٧] ، وهي نظريةُ كازانوفا الذي « جعلَ الحَجّاج بن يوسف الثقفي أوّلَ جامعٍ للقرآن » [٢٨] . وردَّ الشيخُ صبحي بقوله : « إن كازانوفا لا يتورّعُ عن المجازفةِ بإلقاءِ حكمٍ صبيانيٍ لا يوافقُه عليه عاقِل بين الناس » [٢٩] .

لا يعنينا هذا الخلاف كثيرًا بقدر ما يعنينا التساؤل: لماذا أتلفَ الحَجاجُ النسَخَ العثمانية ؟ لو كانَ مصحفُ الحَجاج موافِقًا لمصحفِ عثمان لَمَا تجرّأ الحَجاجُ على ذلك. وفي الاتلافِ صعوباتٌ جمّة، إنْ لجهةِ قدسيّةِ المصاحف، وإنْ لجهةِ ندرةِ الوَرَقِ و « الرقاع » ، وإنْ لجهةِ انتشارِ المصاحف في البلادِ الإسلامية ... فلو لم يكنْ تَعَادُلٌ بين صعوباتِ الإتلافِ من جهة، وأهميّةِ الأسباب الداعيةِ إلى ذلك من جهةٍ ثانية، لَمَا أقدمَ الحَجَاجُ على مِثلِ هذا العملِ بحالٍ من الأحوال.

---

(٢٥) انظر بلاشير، مقدمة القرآن (بالفرنسية)، ص ٧٠.
(٢٦) الشيخ صبحي، مباحث ... ، ص ٨٧، دروزة القرآن المجيد، ٨٣.
(٢٧) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٨٣.
(٢٨) كازانوفا، المرجع المذكور (بالفرنسية)، ص ١٢٧.
(٢٩) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٨٨.

هل إتلافُ الحجاجِ كانَ بسببِ ضبطِ مصحفِ عثمان وحسب ؟ أي هل كانتْ عمليّةُ الإعرابِ والإعجامِ هي الداعيةُ لهذا الإصلاح فقط ؟ ليسَ الأمرُ كما يبدو! بل هناكَ سببٌ جوهريٌّ، هو اختلافُ المصاحفِ بعضها على بعض. والخلافُ كان واضحًا جدّا، بل هو « تَناقضاتٌ واضحةٌ فاضحة » [٣٠] .

وهناك أكثرُ من خلاف وتناقضات : هناك « آياتُ المائدة ويوسف والزخرف والحديد لم يقرأْ بها أحدٌ من القرّاء، بل القراءةُ المشهورة هي كما غيّرَها الحجّاج » [٣١] . ليس الخلافُ اذن وَقْفاً على بعضِ كلمات بل هو أبعدُ من ذلك، هو الآنَ في مجالِ صحّةِ وجودِ بعضِ الآيات وبعضِ السور.

وأخيرًا، كيف صحَّحَ الحَجَاجُ مصحفَ عثمان، واقتضى لتصحيحِه اتلافُه ؟ ثم استبقى فيه غوامضَ لا حَصْرَ لها ؟ هذه الغوامضُ رأى لها المسلمون حلاًّ في القراءاتِ السبع أو العشرِ أو الأربَعَ عَشَرة. وهكذا فالأمرُ عَوْدٌ على بَدء : لقد خَلُصَ عثمانُ من « الأحرفِ السبعة » إلى حرفٍ واحد، وخَلُصَ الحَجَاجُ من « الحرفِ الواحد » إلى إصلاحهِ وتنقيحه، ثمّ هذا التنقيحُ والإصلاحُ أفضيا إلى غموضٍ كثير. وهذا الغموضُ الكثير أوجدَ « القراءاتِ » القرآنيةَ المتعددةَ، وأوجَبَها.

******

(٣٠) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٧١.
(٣١) نفس المرجع، ص ٥٠ ـ ٥٢ في الحواشي.

يبدو، بعد كل هذا الغموض، أن معجزةَ القرآنِ تكمن، لا في المصحفِ واعجازه، بل في تقبّلِ هذا الغموض. إنّ التسليمَ بما فعلَه الحَجَّاج، ومن قَبْلِهِ الخليفةُ مَروانُ بنُ عبد الملــك، ومن قَبْلِهِ عثمانُ وعُمَر وأبو بكر، هو أمرٌ يدخلُ في عالَم المعجزات من بابهِ الواسع.

قد لا يحتاجُ الله، لإعلانِ رسالتهِ وانزالِ وحيهِ، إلى مثل هذه المعجزة الكلاميّة، بقــدرِ ما يحتاجُ إلى نفوسٍ تتقبّلُ هذه المعجزةَ الطريفة. وإذا ما كانَ الإنسانُ بحاجةٍ إلى تجسّــدِ اللهِ وظهورهِ ليتمكّنَ من إيمانِه، فهو لا يقرّرُ الشكلَ الذي به يتجسّدُ الله. في الإسلام اقرارٌ بتجسّــدِ اللهِ في كتاب، فكانَ على كثيرٍ من المسلمين أن لا يَقبلوا بهذا النوع من التجسّد. لقد عَظُمَ على الموحِّدين الدروز أن يَظهرَ اللهُ في كتابٍ ويتجسّدُ في حروفه، وعَظُمَ على العلويين النُصَيْريين أن يَرَوا اللهَ يَنْسَابُ ظلُّه بينَ حروفِ القرآنِ وكلماته، لهذا أجمعَ الدروزُ على إظهارِ اللهِ فـــي إنسانٍ هو « الحاكم بأمر الله »، كما أجمعَ النُصَيريون على إظهارِ المعنويةِ الإلهيةِ في « عليٍّ بن أبي طالب » .

ويُخشى على المسلمين السنّيين السلَفِيين أنفسِهم أن لا يكتفوا بمثلِ تجسّدِ اللهِ في كتابٍ من كلماتٍ وحروف، فَعَوَّضُوا عن هذا النقصِ الإلهيِّ في تجسّدِهِ القرآني بردِّ الاعتبـــارِ إلـــى حاملِ الرسالةِ والوحي، فرفعوا محمّدًا إلى مُقَامٍ يكادُ يكونُ إلهيّا، فاعتبروه فوقَ البَشَرِ، وأقاموا له الذكرى والاحتفالاتِ والأعيادِ، في الوقتِ الذي قالَ النبيّ عن نفسِه بأنّه بشرٌ كسائرِ الناس، وبأنَّ الأعيادَ والاحتفالاتِ الطقسيةَ إحياءٌ لمراسِمِ الوثنيين وعبّادِ الأصنامِ والمشركين.

* * * * * *

الفَصْل السَابع

مُعْجزَة الإعجَاز البَيانـيّ في القرآن

أَولاً ـــ إعجاز لغة القرآن العربية

ثَانياً ـــ إعجاز أسلوب القرآن

ثَالثاً ـــ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

مقدّمة الفصل

في إيمانِ المسلمين أنّ « المعجزةَ أمرٌ خارقٌ للعادة، مَقْرُونٌ بالتحـــدِّي، ســـالِمٌ عـــن المعارَضة. وهي إمّا حِسّيّة، وأمّا عقلية. وأكثرُ معجزاتِ بني إسرائيل كانتْ حسّيّةً، لِبَلاَدَتِهم، وقِلّةِ بصيرتِهم. وأكثرُ معجزاتِ هذه الأمّةِ عقليةً، لِفَرْطِ ذَكائهم، وكمالِ أَفهـــامِهم؛ ولأنَّ هـــذه الشريعةَ، لمّا كانتْ باقيةً على صفحاتِ الدهرِ إلى يومِ القيامة، خُصَّتْ بالمعجزةِ العقليةِ الباقيةِ، ليراها ذُووا البصائر ..

« إنّ معجزاتِ الأنبياءِ انقرضتْ بانقراضِ أَعصارِهم، فلم يشاهِدْها الاّ مَنْ حَضَـــرَها. ومعجزةُ القرآنِ مستمرّةٌ إلى يومِ القيامة، وخَرْقُه العادةَ في أسلوبهِ وبلاغتهِ وأخبارِهِ بالمغيباتِ؛ فلا يمرُّ عَصرٌ من الأعصارِ الاّ ويَظهرُ فيه شيءٌ ممّا أخبَر بهِ أنّه سيكونُ يدلّ علـــى صـــحةِ دعواه » [١] .

لقد جاءَ القرآنُ معجزةً في كلِ شيء : في تحدِّيه الإنسَ والجنَّ على أن يأتوا بمثلهِ، أو بمثلِ سورةٍ منه، وفي أسلوبهِ البليغِ، وفي أخبارهِ عن المستقبل، وعن قَصَصِ الأولين وســـائرِ المتقدمين، وعن الضمائرِ من غير أن يَظْهَرَ ذلك منهم بقولٍ أو فعل، وفي ما يحتويهِ من النَظْمِ والتأليفِ والترصيفِ، وفي التأليفِ الخاصّ بكلِ علمٍ بحيث نجدُ فيه كلَ فنٍّ في مرتبتهِ العُليا في اللفظِ والمعنى، وفي نَظْمهِ وصحةِ معانيه وتوالِي فصاحةِ ألفاظهِ،

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ١١٦ ـ ١١٧.

وفي عالم البيان الذي يُحتَرزُ به عن الخطأ في تأديةِ المعنى وعن تعقيــدِه، وفــي فصــاحتهِ وبلاغتهِ، وفي صَرْفِ الناس عن معارَضَتِه، وفي حُسْنِ تأليفِه والتئامِ كَلِمِه وَوُجُــوهِ إيجــازِه وبلاغتِه الخارقةِ عادةَ العرب، وصورةِ نَظمهِ العجيب، والأسلوبِ الغريبِ المخالِفِ لأســاليبِ كلامِ العرب، ولم يوجده قَبْلَه ولا بَعْدَهُ نضيرٌ له، والإخبارُ بالمغيباتِ، وما أنبأَ به من أخبــارِ القرونِ السالفةِ والأممِ البائدةِ والشرائعِ الدائرة[٢] .

نشأ علمُ الاعجازِ منذ القدم، ووضعَ فيه المسلِمون الكتبَ، منها ما وصَل إلينا، ومنهــا ما لم يصل. وقــد يكونُ الجاحِظُ (+ ٢٥٥ هــ) أوّلَ من وَضَعَ بحثًا فيه، في كتــابٍ أسماه « نَظْمُ القرآن » ، أشارَ إليه في كتابِه « الحيوان » ؛ ثمّ محمّد بن يزيد الواســطي (+ ٣٠٦ هــ) وضعَ كتــابًا في « إعجازِ القرآن » ، لم يصلْ إلينــا؛ ثم الرمّاني (+ ٣٨٤ هــ) في « الإعجاز » ؛ والقاضي أبو بكر الباقلاني (+ ٤٠٣ هــ) في « إعجازِ القرآن » ، وعبــد القاهر الجرجاني (+ ٤٧١ هــ) في « دلائلِ الإعجاز » .

وللمسلمين المعاصرين أيضًا أبحاثٌ لا عدَّ لها في هذا العلم، وأخصّهم السيّد رضــى، والإمام الشيخ محمّد عبده، وسيّد قُطب في كتابه « التصوير الفني في القرآن » ، والــدكتور مصطفى صادق الرافعي في « إعجاز القرآن » ... وغيرهم. وقد ركّز هؤلاء، بالإضافةِ إلى ما عُني به الأقدمون، على سحرِ أسلوبِ القرآن وجَرْسِه وإيقاعِه وموسيقاه وفنِّه التصــويري النبيل. كما ركّز غيرُهم على إعجازِ القرآن في العلومِ الحديثة، كالطبِّ والفلكِ، الخ. وسنتوقّفُ على معجزةِ الإعجازِ القرآني في جميعِ نواحيها القديمةِ والحديثة.

---

(٢) السيوطي، الاتقان، ٢ / ١١٨ ـ ١٢٢، حيث يسرد آراء المحدّثين ، أمثال : ابن عطية، والمراكشي، والاصبهاني، والامام الرازي، وابي بكر الباقلاني، والزملكاني، والنظام، وغيرهم ...

أولاً ــ إعجاز لغة القرآن العربية

في معتقد المسلمين أنّ القرآنَ نزلَ بلفظهِ وحرفهِ ومعناه، أي بلغتِه وأسلوبِه وعلومِه. ولو كنّا نجدُ عندَهم بعضَ الخلافِ في ذلك، فهو من قبيل فَذْلَكَةٍ جَدَلية : فمنهم من يقولُ بأنّ اللهَ أنزلَ المعنى على جبريل، وجبريل لَقَّنه محمّدًا بلغتهِ وأسلوبهِ المَلَكِيِّين؛ ومنهم من يقولُ بأنَّ النبيَّ صاغَ معانيه بلغتِهِ وأسلوبهِ المَضَرِيِّين؛ ومنهم، أخيراً، من يقولُ بأنّ اللهَ صاغَه بلغتهِ وأسلوبه الربّانِيِّين.

وهذا الخلاف، على قِدَمِه، لا يُعْتَدُّ به، لأنّ جميعَ ما في القرآن كلّه من عندِ الله، « كلّ من عند ربّنا » [١]، لا اختلافَ فيه[٢]، ولا عِوَجَ[٣]؛ وليسَ لأحدٍ يستطيعُ أن يغيّرَ فيه حرفًا واحدًا، إذ « لا تبديل لكلماتِ الله » [٤] و « لا مبدِّل لكلماته » [٥] ... ولئنِ استمرَّ الخلافُ والجَدَلُ في ذلك، فليسَ هذا الاّ من قبيلِ زرعِ الشكوكِ لدحضِها.

والحقيقةُ هي، كما جاء في القرآنِ نفسه، إنّ اللهَ أنزلَه بلسانٍ عربيّ مبين[٦]، أنزلَه على العربِ قرآنًا عربيًا لعلّهم يتّقون[٧]، وأنزلَه

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ٧، انظر : القصص ٢٨ / ٥٣.
(٢) سورة النساء ٤ / ٨٢.
(٣) سورة طه ٢٠ / ١٠٧، انظر : ٢٠ / ١٠٨، ١٨ / ١.
(٤) سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر : ٢٣ / ٦٢، ٣٥ / ٤٣، ٤٨ / ٢٣ ...
(٥) سورة الانعام ٦ / ١١٥، الكهف ١٨ / ٢٧، انظر : ٦ / ٣٤ ...
(٦) انظر : ١٦ / ١٠٣، ٢٦ / ١٩٥.
(٧) ١٢ / ٢، ٣٩ / ٢٨، ٤٢ / ٧، ٤٣ / ٣، ٢٠ / ١١٣ ...

حِكَمًا عربيًا[٨] ، ولسانًا عربيًا[٩] . لقد أنزله اللهُ على محمّد بلسانٍ قومه، لِيُنْذِرَ أمَّ القِرى (مكّة) وما حَولها[١٠] ، ويسّرَه بلسانهِ ليبشّرَ به المتّقين[١١] .

بسبب ذلك، أثبتَ الإمامُ الشافعي وابنُ جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر الباقلاني وأبو فارس عدمَ وقوعِ شيءٍ في القرآنِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد شدّدَ الشافعي النكيرَ على القائلِ بذلك. وقال أبو عبيدة إنّما أنزلَ القرآنُ بلسانٍ عربي مبين، فمَن زعمَ أنّ فيهِ غيرَ العربيةِ فقد أعظَمَ القول. وقال ابن أوس : لو كانَ فيه من لغةٍ غيرِ العَرَبِ شيءٌ لتوهَمَ متوهِّمٌ أنّ العربُ انّما عجزتْ عن الاتيانِ بمثلهِ، لأنّه أتى بلغاتٍ لا يعرفونها[١٢] .

ولئن وقعَ في القرآنِ ألفاظٌ من الفارسيةِ والحَبَشيةِ والنَبَطيةِ وغيرها، فانّ ذلك، بحسبِ ابن جرير، من « تواردِ اللغاتِ، فتكلّمتْ بها العربُ والفرسُ والحبشة بلفظٍ واحد » [١٣] ؛ وقالَ غيره : « كلُ هذه الألفاظ عربيّةٌ صرفَة، ولكن لغةُ العربِ متّسعةٌ جداً » [١٤] ؛ وقالَ أبو المعالي عزيزي بن عبدِ الملك : « انّما وجدتْ هذه الألفاظُ في لغةِ العربِ لأنّها أوسعُ اللغاتِ وأكثرُها ألفاظاً، ويجوز أن يكونوا (العرب) سبقوا إلى هذه الألفاظ » [١٥] ، وقال آخرون: « بأن الكلماتِ اليسيرةَ غير العربية لا تُخرِجه عن كونهِ عربيّاً » [١٦] .

---

(٨) سورة الرعد ١٣ / ٣٧.
(٩) سورة الأحقاف ٤٦ / ١٢.
(١٠) سورة الانعام ٦ / ٩٢، ابراهيم ١٤ / ٤، انظر : ٤٢ / ٧.
(١١) سورة مريم ١٩ / ٩٧، انظر : الدخان ٤٤ / ٥٨.
(١٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ١٣٥ ـ ١٣٦.
(١٣) نفس المرجع ١ / ١٣٦.
(١٤) نفس المرجع.
(١٥) نفس المرجع.
(١٦) نفس المرجع.

إلاّ أنّ بعضَ المسلمين رأى في القرآن مئاتِ الكلماتِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد أخرجَ ابن جرير عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال : « في القرآن من كلِ لسان » [١٧] ، ومثله سَعيد بن جُبير، ووَهَب بن منّبه وغيرهم ... وفي رأيهم أنّ الحكمةَ من وقوعِ هذه الألفاظِ فيه، « إنّه حوى علومَ الأولين والآخرين، ونبأً كلِ شيء. فلا بدّ أن تقعَ فيه الإشارةُ إلى أنواعِ اللغاتِ والألسنِ ليُتِمَّ إحاطتَه بكل شيء؛ فاختيرَ له من كلِ لغةٍ أعذبها وأخفّها وأكثرها استعمالاً للعرب » [١٨] .

وقد صرّحَ ابنُ النقيب بجَوازِ وجودِ ألفاظِ أعجميةٍ في القرآن، فقال : « من خصائصِ القرآنِ على سائرِ كتبِ اللهِ المنزَلةِ التي نزلتْ بلغةِ القومِ الذين أُنزلتْ عليهم، لم ينزل فيها شيءٌ بلغةِ غيرهم، والقرآنُ احتوى على جميع لغاتِ العرب، وأُنزل فيه بلغاتِ غيرهم من الرومِ والفرسِ والحبشة شيءٌ كثير » [١٩] ... فالنبيُّ العربيُ مرسَلٌ إلى العربِ وإلى كلِّ أمّةٍ، وعقيدتُه يجب أن تُبلَّغ لجميع الناس، فلا بدّ أن يكونَ في كتابهِ المبعوثِ به من لسانِ كل أمّةٍ، وإن كان أصلُه بلغةِ قومهِ هو.

******

أمّا السيوطي فلا مانعَ عندَه من أن تكونَ بعضُ الألفاظِ أعجميةً، وقعتْ للعربِ فعرّبتها بألسنتِها وحوّلتْها عن ألفاظِ العَجَمِ إلى ألفاظِها، فصارتْ عربيّةً، ثم نزلَ القرآنُ وقد اختلطتْ هذه الحروفُ بكلامِ العرب. فمن قالَ إنها عربيةً فهو صادق، ومن قالَ عجميةً فصادقٌ أيضا[٢٠] . ثمّ

(١٧) السيوطي، الاتقان ١ / ١٣٦.
(١٨) نفس المرجع.
(١٩) نفس المرجع.

يسرد السيوطي حوالي مائة لفظة واردةً في القرآن هي من لغاتٍ متعددة، فارسيّة، وهنديّــة، وحبشيّة، وقبطيّة، ونبطيّة، وسريانيّة، وعبرانيّة، وبربريّة، ويونانيّة، ورومية ...[٢١]

أمّا ما جاءَ في القرآن من غيرِ لغة الحجازِ المَضَريّة فكثير. وقد جاءَ في كــلامِ أبــي بكر الواسطي، في كتابِه « الارشادِ في القراءاتِ العشر » ما يلي : « في القرآن من اللغــاتِ خمسون لغة : لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضــرموت وســدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلــب وطــيّ وعــامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجــذام وبلى وعــذرة وهــوازن والنمــر واليمامة » [٢٢].

وفي السيوطي سيلٌ من الألفاظِ العربيةِ غيرِ الحجازية[٢٣]، وكذلك عند ابنَ الجــوزى في كتــابه « فنونِ الأفنــانِ في القرآن بلغة همدان » . وقال ابن عبد البرّ في « التمهيد » : « قول من قال نزلَ بلغةِ قريش معناه عندي الأغلب، لأن غيرَ لغةِ قريش موجودةٌ في جميــعِ القراءات » [٢٤]. وقال الشيخ جمالُ الدين بن مالك : « أنزلَ اللهُ القرآن بلغةٍ الحجــازيين إلاّ قليلاً » [٢٥].

وإذا ابتغينا المقارنةَ بين لغةِ قريش وسائرِ لغاتِ العرب لطالَ بنا الكلام، ولكن، اثباتًا لهذا الموضوع الخطير، لا بدّ من الإشارة إلى بعض

(٢٠) السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٧.
(٢١) انظر السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٧ ـ ١٤١.
(٢٢) السيوطي نقلا عن الواسطي، الاتقان، ١ / ١٣٥.
(٢٣) انظر السيوطي، الاتقان ١ / ١٣٣ ـ ١٣٥ حيث ينقل بعض الألفاظ.
(٢٤) عن السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٥.
(٢٥) نفس المرجع.

الفروقات، إن من جهة الادغام والفكّ، وإن من جهةِ اعتمادِ النصب في المنقَطِع، (أي النصب في الاستثناء بعد إلاّ)، وإن من جهةِ الفتح والأمَالَة، وإن من جهة الهمزِ وعدمــه، أو الثقيــلِ والتفخيم، أو الاخفاء والاقلاب، أو المدّ والقصر ... إلى غير ذلك[٢٦] .

******

وبالنتيجة، إن القولَ بأنّ القرآن نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبين، وبلغةٍ عربيةٍ قرشيةٍ صــافيةٍ خالصة، هو قولٌ جزاف، يحوم حولَه كثيرٌ من الشبهات. ولئن سلّمنا بمــا يقوله الواسطي بأنّ « كلامَ قريش سهلٌ ليّنٌ واضِحٌ، وكلامَ العرب وحشيٌّ غريب » [٢٧] ، فانّ ذلك يجعلنا نتساءل عن مدى فصاحةِ كلام القرآن وبلاغته اللغوية.

ولكثرةِ وجودِ لغاتٍ عربيةٍ عديدة في القرآن، راحَ بعــضُ المســلمين والمستشــرقين يقوّمون لغةَ القرآن بلغةِ الشعر الجاهلي؛ وعلى أساس هذا الشعر نستطيعُ فَهْمَ بعضِ مــا فــي القرآنِ من غرائبِ اللغة. « ومن هنا نتساءل، مع الحداد : أَنَزَلَ القرآنُ بلغةِ نَجْد أم جُمِعَ بلغةِ نجد ؟ أم قُرِئ بلغةِ نجد على خلافِ المتواتر ؟

وإذا نَزَلَ بلغةٍ قريش فكيفَ نقرأُه بلغةِ نجد، أو بلغةٍ غير قرشيّة ؟ أَمِنَ الأمانَةِ كتابــةُ القرآنِ بلغةٍ لم ينزِل بها ؟

---

(٢٦) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، انظر الصفحات التالية : ١ / ٨٣ ـ ٨٩، ١ / ٨٩ / ٩٠، ١ / ٩١ ـ ٩٤، ١ / ٩٤ ـ ٩٦، ١ / ٩٦ ـ ٩٨، ١ / ٩٨ ـ ٩٩، ١ / ١٣٥ ...
(٢٧) السيوطي، نقلا عن « الإرشاد » للواسطي، ١ / ١٣٥.

أم آلف النبي، أو آلف الصحابة من بعدِه بين لغةِ القرآن ولغةِ الشعر الجــاهلي التـــي كانتْ لغةَ الأدبِ والكلامَ الجميل ؟

كلّها أسئلةٌ وشبهاتٌ يحار فيها المؤرّخ الأديب. وقد استنتج بعضُهم من ذلك شبهةً على صحةِ لغةِ القرآن وعلى صحة اعجازها » (٢٨) .

******

في كل حال، إنّنا، مع المسلمين المؤمنين، أمام معجزةٍ كلِ حرفٍ من حروفِ القرآن، وكلِ كلمةٍ منـــه، وكلِ لفظةٍ وتعبير. بل كلُ حرفٍ منقَطعٍ هـــو آيةٌ في ذاتِه ومعجزة. ومـــا « فواتِحُ السُوَرِ » ، الواردةُ في سبعٍ وعشرين سورة الاّ دليلٌ قاطِعٌ جازِمٌ على معجزةِ اللغـــةِ القرآنية. وكلُ حرفٍ من هـــذه الحروفِ المتقطعة، كالــ « ن » في سورة « القلم » ، والـــ « ق » في سورة « ق » ، والــ « حم » في « الأحقــاف » و « الجاثية » و « الـــدخان » و « الـــزخرف و « الشورى » و « فصلـــت » و « غـــافر » ، والــ « ص » في ســـورة « ص » ، و « يس » في ســـورة « يس » ، و « ألـــم » في « الســـجدة » و « لقمـــان » و « الروم » و « العنكبوت » ، و « طسم » في « القصص » ، و « طس » في « النمل »، و « طسم » في « الشعراء » ، و « طه » في « طـــه » ، و « كهيعص » في « مريم » ، و « الر » في الحجر وابراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس، و « ألمص » في الاعـــراف، كلُ حرفٍ من هذهِ الحروف فيه معجزةٌ، لا يعلَم مرادَه الاّ الله. فكيفَ بنا بسحرِ الحروفِ التي تؤدّي معنىً إلهيّا يعجزُ عن إدراكِه عقلُ كلِ إنسان!

****

(٢٨) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب، ٢ / ٣٢٣.

ثانياً ــ إعجاز أسلوب القرآن

في إيمانِ المسلمين إن القرآنَ معجزٌ في بَيانِه وبديعِه، أي في نظمِه وتأليفِهِ ورصــفِهِ، وفصاحتِه وبلاغتِه، وصُوَرِه وتعابيرِه، وإيجازِه وأطنابِه، وتشــابيهِه واســتعاراتِه، وحقيقتــهِ ومجازِه، وكنايتِه وتعريضِه، وَخَبرِه وانشائِه، وشعرِه ونثــرهِ، ووزنِــه وفَواصِــله، وجُمَلِــه ومفرداته، وسِحرِهِ وموسيقاه، واختيارِ حروفِه ووجوهِه وضمائرِه، ومقدّمِه ومؤخّرِه، وعامِّــه وخاصِّه، ومُجْمَلِهِ ومبيّنِهِ، وقَصَصِه وأمثالِه، وأقسامه وأجزائه ...

بهذا الأسلوب المعجز في كل شيء « تحدّى القرآنُ فصــحاءَ العــرب بمعارضــتِه، وطاولَهم في المعارضة، ولكنّهم انهزَموا أمامَ تحدِّيه، وأعلنوا عجزَهم عن تقليدِه، لأنّه يَعلو ولا يُعلى، وما هو بقولِ بَشَر »[١]، و « لا ريبَ إن العربَ المعاصرين للقرآنِ قد سُحِروا، قبــلَ كلِ شيءٍ، بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضُوه فما استطاعوا، حتى إذا فهموه أدرَكوا جَمَالَــه، ومَسَّ قلوبَهم بتأثيرِه »[٢]. وهذا الجانبُ الفنيُ الخالصُ كان « كافيًا لإثباتِ فكــرةِ الإعجــازِ وخلودِ القرآنِ بأسلوبِه الذي يَعلو ولا يُعلى ... فما اعجازُ هذا الكتاب الكريم الاّ سحرُه. ولقــد فعلَ سِحْرُه هذا فِعلَه في القلوبِ »[٣].

---

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٣.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٢٠.
(٣) نفس المرجع، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

ً١ ــ لقد سُحِرَ المسلمون في معرفةِ « الوجوهِ والنظائر » [٤] لمّا وجدوا « الكلمةَ الواحدةَ تنصرفُ إلى عشرينَ وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلامِ البشر » [٥]، ومن أمثلةِ ذلك « الهُدَى » ، فهو يأتي على سبعةَ عَشَرَ وجهًا[٦]، « والسوء » ، وهو يأتي على أوجهٍ عديدة[٧] والصلاة والرحمة والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء .. وغير ذلك[٨].

ً٢ ــ وسُحِروا بالقرآن « يستعيرُ » ألفاظَه من عالَمِ الإنسان إلى عالَمِ الأشياء، فيَجعلُ الصبحَ يتنفّسُ في قوله « والصبحُ إذا تنفّس » [٩]، ويجعلُ القذفَ والدمغَ للحقِ والباطلِ في قوله : « بل نَقذفُ بالحقِ على الباطِل، فيدمغُه فإذا هو زاهِق » [١٠]، ويَجعلُ لجهنّم شخصيّةً آدميّة، لها انفعالاتٌ وجدانيّة، وخَلَجاتٌ عاطفية، فهي تَشهَقُ شهيقَ الباكين، وهي تَغضبُ وتثور، وهي ذاتُ نَفْسٍ حادّةِ الشعور[١١] في قوله : « إذا أُلْقُوا فيها (في جهنم) سَمِعوا لها شهيقًا وهي تَفور، تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ » [١٢].

ً٣ ــ وسُحِروا بالقرآنِ ينزع « التشابيهَ » من أمورٍ مختلفةٍ مجموعةٍ بعضها إلى بعض، فيقول مثلاً : « كَمَثَلِ الحمارِ يَحملُ أسفارًا » [١٣]. وسحر هذا الكلام في القرآن هو في حرمانِ الحمار من « الانتفاعِ بأبلغ نافعٍ مع تحمّل التعبِ في استصحابِه » [١٤]. ويقول أيضًا : « انّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا

---

(٤) الوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان؛ والنظائر هي الألفاظ المتواطئة المترادفة التي معناها واحد في مواضع كثيرة، انظر الاتقان، ١ / ١٤١.
(٥) نفس المرجع.
(٦) نفس المرجع، ١ / ١٤٢.
(٧) نفس المرجع.
(٨) انظر ذلك في نفس المرجع.

كماء أنزلناه من السماء ... لم تغن بالأمس » [١٥] ؛ يقول الشيخ صبحي في سحر هذا القول : « إن فيه عشر جُمَل وقعَ التركيبُ من مجموعها، بحيث لــو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه » فــ « تمّ لهذا المشهد القرآني من الاعجاز بالألفاظِ الجامدةِ ما لا يتمّ مــن الابــداعِ بالريشــة والألوان » [١٦] .

٤ ــ وسُحِروا بالقرآن يستعملُ « المَجازَ اللغوي » الذي فيه يكونُ اللفظُ في غيرِ ما وُضِعَ له، مثل قوله : « يجعلونَ أصابعَهم في آذانِهم من الصــواعقِ حَــذَر المــوت » [١٧] ؛ ويستعملُ « المجازَ العقلي الذي يكون أحدُ طرَفيهِ حقيقيّاً دونَ الآخر، مثل قولــهِ : « وأمّــه هاوية » [١٨] . واعتبــر المسلمون أنّه « لــو سقَطَ المجــازُ من القرآنِ لســقطَ منــه شَــطْرُ الحَسَن » [١٩] .

(٩) سورة التكوير ٨١ / ١٨. انظر : الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٢٤.
(١٠) سورة الأنبياء ٢١ / ١٨. نفس المرجع.
(١١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٥.
(١٢) سورة الملك ٦٧ / ٧ ـ ٨.
(١٣) سورة الجمعة ٦٢ / ٥.
(١٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٢، نقلا عن السيوطي، الاتقان ٢ / ٤٢ ـ ٤٣. ومن هذا القبيل الآيات : « فاصدع بما تؤمر » (الحج ٩٤)، « فوجد فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه » (الكهف ٧٧)، و « اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » (٣ / ١٠٣). « وتركنا بعضهم يؤمئذ يموج في بعض » (الكهف ١٠٠) ... الخ.
(١٥) سورة يونس ١٠ / ٢٤.
(١٦) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥، نقلاً عن السيوطي في الاتقان ٢ / ٤٢ ـ ٤٣. وهو يستفيض في إظهار سحر هذه الآية وإعجازها البياني إلى درجة أنّه اعتبر السيوطي وبلغاء المسلمين مقصرين فيما يبيّنوه في القرآن وفصاحته.
(١٧) سورة البقرة ٢ / ١٩.
(١٨) سورة القارعة ١٠١ / ٩ : اسم الام « الهاوية » مجاز، أي كما أن الأم كافلة لولدها وملجأ له، كذلك النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع.
(١٩) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ٣٦ ـ ٤٦ ...

٥ ـــ وسُحِروا بالقرآن يستعملُ « الكنايةَ لأجل الرمزِ والإيماء، قصدَ تحاشي كلامٍ لا يجملُ فيه التصريح. فإذا أرادَ، مثلاً، التعبيرَ عن التناسلِ والمعاشـــرةِ الزوجيـــة ومضـــاجعةِ الأزواج، استعملَ لفظة « الحَرْث » في قـــوله « نساؤكـــم حَرْثٌ لكم، فأتـــوا حَـــرْثَكم أَنَّـــى شئتم » [٢٠] . ومن هذا القبيل قـــال أيضًا : « هنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لِباسٌ لهنّ » [٢١] . ويبدو أن « الكناية » ، في نظر المسلمين، هي « من أبلغِ الأساليب » [٢٢] ...

ولكن، إذا كان اللهُ يَسْتَعْفِفُ في ذكرِ النساءِ والنِكاحِ والمضاجَعةِ في هذه الآيات، فلماذا هو يستعمل، في أمكنةٍ أخرى كثيرةٌ، لفظةَ « النِكاح » ، مثلا، وهي تعني، عنـــد العـــرب، لا التزويجَ وحسب، بل « الوطء » غالبًا. وبهذا المعنى فسّر الأزهري آيةَ « الزاني لا ينكح الاّ زانية أو مُشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشرِك » [٢٣] ، وقال : « أصلُ النكـــاح فـــي كلامِ العرب الوطء، وقيل للتزوّجِ نكاح لأنه سبب الوطء المباح » [٢٤] ، وهو أيضًـــا تفســـير الجوهري، وسبيعة، وغيرهم[٢٥] ..

ولماذا لم يتورّع اللهُ من ذكرِ « حبِّ الشهوات من النساء » [٢٦] ، واعتزالِ النساء في المَحيض[٢٧] ، ومراودةِ النساء للفتيان[٢٨] ، ومسّ النساء[٢٩] ، ونكاح ما طاب للرجالِ منهنّ[٣٠]، وملامستهنّ قبل الصلاة

---

(٢٠) سورة البقرة ٢ / ٢٢٣.
(٢١) ٢ / ١٨٧، انظر : ٧ / ١٨٩، ٢٣ / ٥، ٣٣ / ٣٥، ٦٦ / ١٢ ...
(٢٢) الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٣٠.
(٢٣) سورة النور ٢٤ / ٣.
(٢٤) لسان العرب، ٢ / ٦٥٢ مادّة : « نكح » .
(٢٥) انظر لسان العرب، ٢ / ٦٢٥ ـ ٦٢٦. ترد لفظة نكاح ٢٥ مرّة.
(٢٦) سورة آل عمران ٣ / ١٤.
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٢٢٢.

خشية النجاسة، وإن لم يكن ماء للتطهير فلا بدّ منه ولو بالتراب[٣١]، وذكر « عورات النساء » وإظهارها للطفل[٣٢]، وذكر الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء[٣٣]، ووطء النساء[٣٤]،والرفث إليهنّ[٣٥]، والدخول بهنّ[٣٦]، الخ ... فهل هذه التعابير هي من العفّة في شيء حتى لم يستعملِ اللهُ بعضَ « الكناية » ؟

٦ً ــ وسُحِرَ المسلمون بما في أسلوبِ القرآن من « الإيجاز » ، وهو جمعُ المعاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة. وقد شدّدَ الجاحظُ على هذه المعجزة القرآنية، ويستشهدُ، لأجل حجّتهِ، بوصفِ خمرةِ أهلِ الجنّة : « لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنزِفُون » [٣٧]، ويقول : « هاتان الكلمتان جَمَعَتَا جميعَ عيوبِ خمرِ أهلِ الدنيا » ، ويدلّ على الإيجاز في قول القرآن عن فاكهة الجنّة « لا مَقطوعَةٍ ولا مَمْنوعَةٍ » [٣٨]، ويقول : « جَمَعَ بهاتينِ الكلمتين جميعَ تلك المعاني » [٣٩].

٧ً ــ وسُحِرِ الجرجاني ببعضِ الصُوَر الجَماليةِ الفنيّةِ في القرآن، ويستشهدُ بقوله: « اشتعلَ الرأسُ شَيْبًا » [٤٠]، ويرى في هذا الكلام كلَ أنواعِ الاستعارةِ والشمولِ والاسناد، ومن هذا القبيل قوله : « فَجّرْنَا الأرض عيونا » [٤١].

---

(٢٨) سورة يوسف ١٢ / ٣٠.
(٢٩) سورة البقرة ٢ / ٢٣٦.
(٣٠) سورة النساء ٤ / ٣.
(٣١) سورة النساء ٤ / ٤٣.
(٣٢) سورة النور ٢٤ / ٣١.
(٣٣) سورة الأعراف ٧ / ٨١.
(٣٤) سورة الفتح ٤٨ / ٢٥.
(٣٥) سورة البقرة ٢ / ١٨٧.
(٣٦) سورة النساء ٤ / ٢٣.
(٣٧) سورة الواقعة ٥٦ / ١٩.
(٣٨) سورة الواقعة ٥٦ / ٣٣.
(٣٩) عن الرافعي، في تاريخ آداب العرب ٢ / ١٥٢ حاشية.
(٤٠) سورة مريم ١٩ / ٤.
(٤١) سورة القمر ٥٤ / ١٢، انظر : مباحث في علوم القرآن، ٣١٥.

٨ً ــ وسُحِرَ الرافعي بموسيقى القرآن في ترتيب حروفه « باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضِه مناسبةً طبيعية في الهمْس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشّي والتكرير » (٤٢). ويعطينا من القرآن هذا المثل : « ولقد أنذَرَهُم بَطْشَتَنا فَتَمَارَوا بالنُذُر » (٤٣)، ويدعونا إلى التأمّل، ويقول : « تأمّل هذا التركيب، وأَنعِم ثم أَنعِم على تأمّلِه، وتذوّقْ مواقِعَ الحروفِ، وأَجرِ حركاتِها في حسِّ السَمْع، وتأمّلْ مواضِعَ القَلْقَلَةِ في دالِ « لَقَدْ » ، وفي الطاء من « بَطشَتَنَا » ، وهذه الفَتْحَاتِ المتوالية فيما وراءِ الطاء إلى واو « تمارَوا » مع الفصلِ بالمدِّ كأنَّها تثقيلٌ لخفةِ التتابع في الفَتحات إذا هي جَرَتْ على اللسان، ليكونَ ثقلُ الضمّةِ عليه مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمّةُ قد أصابتْ موضعَها، كما تكونُ الاحماضُ في الأطعمة » (٤٤) .

هذه الموسيقى في ألفاظ القرآنِ وحروفِه « لم تُعْرَفْ قط في كلامٍ عربيٍ غير القرآن، وبها انفردَ نظمه وخرجَ ممّا يطيقُه الناس » (٤٥) . « هذا النظم الذي يشبه السحرَ، والذي ألّفَ العربَ على تعاديهم، وكوّن منهم أمةً واحدة، تطربُ لِلَحْنٍ واحد، تجتمعْ عليه قلوبُها في الأرضِ، بينما ترتفعُ به أرواحُها في السماء » (٤٦) .

٩ً ــ أمّا سيّدُ قطب فسُحِرَ بالتصويرِ الفنّي الذي « هو الأداةُ المفضَّلَة في أسلوبِ القرآن » . هذا التصوير « يُعبّرُ بالصورةِ المحسّة

(٤٢) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٢ / ٢٢٥.
(٤٣) سورة القمر ٥٤ / ٣٦.
(٤٤) الرافعي، نفس المرجع، ٢ / ٢٣٩.
(٤٥) نفس المرجع، ٢ / ٢٦٠.
(٤٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٩.

المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالةِ النفسية، وعن الحادثِ المحسوس والمشهَدِ المنظورِ، وعن النموذَجِ الإنساني والطبيعةِ البشرية. ثمّ يرتقي بالصورةِ التي يرسمُها فيمنحُها الحياةَ الشاخِصة، أو الحركةَ المتحدّدة. فإذا المعنى الذهني هيئةٌ أو حركةٌ، وإذا الحالةُ النفسيةُ لوحةٌ أو مشهَدٌ، وإذا النموذَجَ الإنساني شاخِصٌ حيٌّ، وإذا الطبيعةُ مجسَّمةٌ مرئيّةٌ » إلى درجة « يَنسى المستمِعُ أنَ هذا كلامٌ يُتلى، ومَثَلٌ يُضرب ... وحادِثٌ يَقع ... إنّها الحياةُ هنا، وليستْ حكايةَ الحياة ... » بهذا ندرِكُ « موضِع الإعجازِ في تعبير القرآن » [٤٧].

١٠ً ــ ويتوقّف الشيخُ صبحي الصالح، للدلالة على معجزة إعجاز القرآن، على ما تعلّم في مقالةِ « الفنِّ والجمال » ، فيرى « هذه الموسيقى الداخليةَ لتنبعثُ في القرآن، حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقل ــ بجَرْسها ونَغَمها ــ بتصويرِ لوحةٍ كاملةِ اللونِ زاهياً أو شاحباً، وفيها الظلُّ شفيفاً أو كثيفاً » [٤٨].

ويستدلُ الشيخ، من جملةِ آياتٍ، على جَمَال الحروفِ القرآنيّة في مواقِعها، فيستهويه « هَمْسُ السينِ المكرَّرَةِ » في قولِ القرآن : « فلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ، الجَوَاري الكُنَّسِ، والليلِ إذ عَسْعَسَ، والصُبحُ إلى تَنَفَّسَ » [٤٩]، وتقع في نفسهِ الرهبةُ وهو يسمَعُ « صوتَ الدالِ المنذِرَةِ المتوعِدَةِ، مسبوقة بالياءِ المشبعةِ في لفظةِ « تَحِيدُ » في قوله: « وجاءتْ سَكرةُ الموتِ بالحقّ: ذلك ما كنت منه تَحِيد » [٥٠]، ويُضْرَبُ بالذعرِ لدى سَماعه كلمةَ « زُحْزِحَ »

---

(٤٧) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٣٣ ...
(٤٨) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤.
(٤٩) سورة التكوير ٨١ / ١٥ ـ ١٨.
(٥٠) سورة ق ٥٠ / ١٩.

تُصَوِّرُ مشهدَ الابعادِ والتنحية بكلِ ما يقعُ في هذا المشهدِ من أصوات « في قولــه : « فَمَــنْ زُحزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنّةَ فقد فَاز » (٥١) ، ويستولي عليه القلقُ وهو يَقرأُ هَاءَ السَكْتِ في سورةِ الحَاقَةِ « ماأغنى عَنِي ماليَهْ، هَلَكَ عني سُلطانِيَهْ » (٥٢) ، ويَأخذُه من الغيظِ مثل ما يأخذُ جهنم حين يتسمَّعُ لفظَ « تَمَيَّزُ من الغَيْظِ » (٥٣) ، وتنقبضُ شفتاه استِقباحًا واســتهجَانًا عنــدما يسمَعْ القرآن يقولُ « ويُسْقَى (الكافر) من ماءٍ صديدٍ يَتَجَرَّعُه » (٥٤) ، ويكاد يكبّ على وجههِ ومِنخارِه لسماعِه « فَكَبْكَبُوا فيها هُم والغاوون » (٥٥) ... إلى ما هنالك من ألفــاظِ وحــروف وكلمات تعبّر عن لوحة كاملة(٥٦) .

وإذا كان هذا شأن الحروف فكيفَ بكَ بالآياتِ والسُوَرِ الكاملةِ التــي، إذا مــا قرأهــا المؤمن، « يوقظ نَسَقُها الرائعُ قلبَهُ، ويهزّ ايقاعُها العجيبُ مشاعِرَه » (٥٧) . ولئن كان الجــنُّ سُحِروا بما سمعوا من القرآنِ، فكيفَ بالعَرَب! الواقعُ، بنظرِ الشيخ صبحي، « أن القرآنَ نسيجٌ واحِدٌ في بلاغتِه وسحرِ بيانه، إلاّ أنّه متنوِّعٌ تنوّعَ موسيقى الوجودِ في أنغامِه والحانه » (٥٨) . و « إن هو إلاّ أسلوبٌ يؤدّي غرضَه كاملاً غيرَ منقوص، يلينُ أو يشــتدّ، ويهــدأ أو يهــيج! ينسابُ انسياباً كالمــاء إذ يسقي الغراس، أو يعصفُ عَصفاً كأنّه صَرْصَــرٌ عــــاتية تبهــرُ الأنفاس » (٥٩) .

---

(٥١) سورة آل عمران ٣ / ١٨٥.
(٥٢) سورة الحاقة ٦٩ / ٢٩.
(٥٣) سورة الملك ٦٧ / ٨.
(٥٤) سورة ابراهيم ١٤ / ١٧.
(٥٥) سورة الشعراء ٢٦ / ٩٤.
(٥٦) الشيخ صبحي، مباحث ...، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٥٧) نفس المرجع، ص ٣٣٦.
(٥٨) نفس المرجع، ص ٣٣٤.
(٥٩) نفس المرجع، ص ٣٤٠.

ثالثاً ــ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

إذا كان الأمر كما يقولُ الشيخ صبحي الصالح « اننّا نجعلُ القرآنَ حَكَمًا على قواعـدِ اللغة والنَحْوِ، ولا نجعلُ القواعِدَ حَكَمًا على القرآن » [١] ، فاننّا نعجزُ، ونحـنُ بهـذا العَجْـزِ راضون، عن ابداءِ أيِ رأيٍ في موضوعِ اعجازِ القرآن. وإذا كانتِ الأمّـةُ العربيـةُ بعيـدةً بعضها عن بعض، لأسبابٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعنصريةٍ وحَضـاريةٍ، فإنّهـا، كمـا يقـولُ الابياري، « قريبةٌ بهذا الكتابِ وحدَه إلى لُغَتِها » [٢] ، ونحن لا نبغي لهذه الأمّة غيرَ هذا.

ولكن رضانا بهذا العجز لا يجعلّنا نرضى كثيرًا بمعجزةِ إعجاز القرآن. ولقـد ميّـز الأقدمون فيه بين « الفصيحِ والأفصحِ » ، وتساءَل الشيخُ عزُّ الدينِ بن عبد السلام : « لِمَ لَمْ يأتِ القرآنُ جميعُه بالأفصح ؟ » [٣] ، وأجابَه الصدرُ موهوبُ الجزرى : « إنّه لو جاءَ القرآنُ على ذلك لكانَ على غيرِ النمطِ المُعتادِ في كلامِ العرب » [٤] . وفي رأيه أن القـرآنَ تحـدّى العربَ، لا في أفصحِه وحسب، بل في فَصيحه أيضاً ... ولكن هل هو جوابٌ مقنِع، في الوقتِ الذي نرى فيه القرآنَ يَعرِجُ بين المعنى والمبنى ؟!

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.
(٢) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٥.
(٣) السيوطي، الاتقان، ٢ / ١٢٣.
(٤) نفس المرجع.

وإذا كنّا لا نستطيع الحكْمَ على القرآن من قواعدِ اللغة، أفلا نستطيعُ الحكمُ على القرآن بالقرآن نفسه ؟! الواقعُ إنَّ القرآن لا يستوي كلُّه في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحةِ والبلاغةِ. فنحن نجد فيه تراكيبَ غيرَ صحيحة، فبعضُه يضحّي بالمعنى مُرَاعاةً للفاصلة[٥] ، وبعضُه يتقدَّمُ على بعض، وبعضُه يختلف في مرجع الضمائر إلى ما تضمر عنه، وبعضه يقيّد بالتخصيصِ ما قد جرى تعميمُه ... وعلى كل ذلك أدلّة :

١ ــ ففي ما تقدّم وتأخر في القرآن من كلماتٍ وآيات، نسأل :أيّ إعجازٍ نجــدُه فـــي مثل قوله: « أنزلَ على عبدِه الكتابَ ، ولم يَجعلُ له عِوَجًا قَيّماً » [٦] ؟ والتركيبُ الصحيح: « أنزلَ على عبدِه الكتاب قَيّماً، ولم يجعلْ له عِوَجًا » .

وأيّ إعجاز في قوله : « فقالوا : أَرِنَا اللهَ جَهرةً » [٧] ، والصحيح، كما قال ابنُ عباس وابنُ جرير : « قالوا جهرةً : أرِنَا الله » ، أي : « إنّ سؤالَهم كانَ جهرة » .

ومن ذلك قوله : « أفرأيتَ مَنِ اتّخذَ إلهَه هواه » [٨] ، والمعنى : « من اتّخــذَ هـــواهُ إلهَه » ، لأنّ من اتّخذ إلهَه هواه فهو غيرُ مذموم.

وقوله : « فضحكتْ فبشّرناها » [٩] ، والصحيح : « فبشّرنَاها فضحكتْ » .

---

(٥) الفاصلة في القرآن هي قافية الآيات المسجّعة، وهي توازي قافية الشعر. ولكنّ المسلمين ابتغوا لها هذه التسمية إبعاداً عن الشعر.
(٦) سورة الكهف ١٨ / ١.
(٧) سورة النساء ٤ / ١٥٣.
(٨) سورة الفرقان ٢٥ / ٤٣.
(٩) سورة هود ١١ / ٧١.

ومنه قوله : « ولــولا كلمةٌ من ربّكَ لكانَ لزامــاً وأَجَلٌ مسمّى » [١٠]، والصــحيح: « ولولا كلمةَ وأَجَلٌ مسمّى لكان لزاماً ... » .

ومنه: « يسألونك كأنّك حفيّ عنها » [١١]، والصحيح: « يسألونك عنها كأنّك حفيّ ».

ومنه قوله : « فلا تعجبُكَ أموالُهم ولا أولادُهم إنما يُريد اللهُ ليعذِّبَهم بها فــي الحيــاةِ الدنيا » [١٢]، والصحيح : « لا تعجبُك أموالُهم ولا أولادهم في الحياةِ الدنيا، إنمــا يريــدُ الله ليعذَبهم بها في الآخرة » .

ومنه قلبُ المنقول في « طور سينين » ، والأصلُ : سيناء، وفــي « ال ياســين » ، والأصل : الياس[١٣] .

إلى ما هنالك من أمثلة عديدة في القرآن، على هذا النمط، وقد رأى لها المسلمون ألفَ تفسير وتفسير، اثباتًا لمعجزة الاعجاز في الكتاب العزيز[١٤] .

٢ ـــ وفي القرآن أيضًا شبهةٌ في مرجعِ الضمائرِ إلى أصحابها، ويحتارُ القارئ فــي المعنى المقصود في قوله : « إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّــبُ، والعمــلُ الصــالح يَرْفَعُــهُ » [١٥] . فالضمير في « يرفعه » إمّا يعود إلى ما عــاد إليه ضمير « إليه » وهو الله، وإمّا يعود إلى « العمل » . والمعنى في كلتا

---

(١٠) سورة طه ٢٠ / ١٢٩.
(١١) سورة الاعراف ٧ / ١٨٧.
(١٢) سورة التوبة ٩ / ٥٥.
(١٣) سورة التين ٩٥ / ٢، الصافات ٣٧ / ١٣٠.
(١٤) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٣ ـ ١٦.
(١٥) سورة فاطر ٣٥ / ١٠.

الحالتين : إن العملَ الصالح هو الذي يرفعُه الكَلِمُ الطيّب؛ أو أنّ الكَلِمَ الطيب، وهو التوحيد، يرفعُ العملَ الصالح، لأنه لا يصح العمل إلاّ مع الإيمان[١٦] .

وفي قوله أيضًا : « أن أقذفيهِ في التابوتِ، فاقذفيه في اليمّ » [١٧] . إنّ الضمير في « اقذفيه » الثانية يرجعْ إلى التابوت، وفي الأولى يرجع إلى موسى. وفي ذلك يقول الزمخشري : « رجوعُ بعضِها (الضمائر) إليه (إلى موسى) وبعضِها إلى التابوت فيه هجنة » [١٨] .

وفي قوله : « ولا تستفتِ فيهم منهم أحدًا » [١٩] ، إنّ ضميرَ « فيهم » لأصحابِ الكهف، وضميرَ « منهم » لليهود.

فهل هذا الخلط من الإعجاز في شيء ؟ وهل هو جائر في اللغة والمنطق ؟ لئن كان الله أنزلَ القرآنَ بلغةٍ عربيّةٍ خالصة، أفيجوّزُ لنفسِه ما لا يجوز في قوانينِ الكونِ ونظمه، وهو واضعها!

٣ ـ وفي القرآن تبيينٌ لما جاء في مكانٍ آخر، أي إنّ فيه كلاماً يبيّنه كلامٌ آخر في زمنٍ آخر وآياتٍ أخرى لاحقة. مثل قوله : « وجوهٌ يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة » [٢٠] ، وهو دالّ على جواز الرؤية. ثمّ قال : « لا تدركه الأبصار » [٢١] . وغير ذلك كثير[٢٢] .

---

(١٦) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٩.
(١٧) سورة طه ٢٠ / ٣٩.
(١٨) انظر السيوطي، الاتقان ١ / ١٧٨ ...
(١٩) سورة الكهف ١٨ / ٢٢.
(٢٠) سورة القيامة ٧٥ / ٢٢.
(٢١) سورة الانعام ٦ / ١٠٣.
(٢٢) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٨ ـ ٢٠.

٤ ـــ وفي قراءة القرآن تستوقفنا غراباتٌ كثيرةٌ، منها : لماذا جاءت لفظةُ أَحَدْ « في صيغةِ النكرة، « والصَمَدْ » في صيغة التعريف، في قوله : « هو الله أحد، الله الصمد » [٢٣] ؟

ولماذا جاءت لفظةُ « خالِصَة » مؤنّثة، و « محرَّم » مذكّرة، في قوله : « ما في بطونِ هذه الأنعام خالِصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا » [٢٤] ، ورأى لها المفسّرون حجّة، وهي أنّ « محرّم » ترجع إلى « ما » ، و « خالصة » ترجع إلى « الانعام » . فهل هذا معقول ؟

ولماذا أجاز القرآنُ التأنيثَ في مكانٍ، ولم يجزه في مكان آخر، في مثل قوله: « اعجازُ نَخْلٍ خَاوية » [٢٥] و « اعجاز نخل مُنْقَعِر »[٢٦] ، وفي « انّ البقَر تشَابَه علينا »[٢٧] وحجّة التذكير عند المفسرين مقصود « جنسُه تشابَه علينا » [٢٨] ، وفي قوله « السماءُ منفطِر » [٢٩] وفي مكان « إذا انفطرتِ السماء » [٣٠] ، وفي قوله « جاءتها ريحٌ عاصف » [٣١] ، وفي مكانٍ « ولسليمانَ الريحُ عاصفة » [٣٢] . إلى غير ذلك.

٥ ـــ ثمّ أيّهما أصحّ في الاعجاز ؟ قوله: « ادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا : حِطَّةً » [٣٣] ، أم قوله : « قولوا حطّة، وادخلوا الباب سُجَّدا » [٣٤] ؟

---

(٢٣) سورة الاخلاص ١١٢ / ٢.
(٢٤) سورة الانعام ٦ / ١٣٩.
(٢٥) سورة الحاقة ٦٩ / ٧.
(٢٦) سورة القمر ٥٤ / ٢٠.
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٧٠.
(٢٨) تفسير الجلالين على ٢ / ٧٠.
(٢٩) سورة المزمل ٧٣ / ١٨.
(٣٠) سورة الانفطار ٨٢ / ١.
(٣١) سورة يونس ١٠ / ٢٢ .
(٣٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٨١.
(٣٣) سورة البقرة ٢ / ٥٨.
(٣٤) سورة الأعراف ٧ / ١٦١.

وقوله: « ما أُهِلَّ بهِ لغير الله » [٣٥] ؟ أم قوله: « ما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به » [٣٦] ؟ وقوله: « يكون الدينُ لله » [٣٧] ؟ أم قوله : « يكونُ الدينُ كلّه لله » [٣٨] ؟ وقوله : « ولن تمسَّنا النارُ إلاّ أياماً معدودة » [٣٩] ؟ أم قوله : « أيّاما معدودات » [٤٠] ؟ وقوله : « إن هدى الله هو هدى » [٤١] ؟ أم قوله : « إن الهدى هدى الله » [٤٢] ؟ وقوله : « قولوا : آمنا بالله وما أنزِلَ إلينا » [٤٣] ؟ أم قوله : « ... وما أنزل علينا » [٤٤] ؟ وقوله: « ولا تقتلوا أولادَكم من املاق » [٤٥] ؟ أم قوله: « خشيةَ املاق » [٤٦] ؟

ولئن كان هذا التفاوت جائزاً في القرآن، فأيّهما في اللغة أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح وفصيح، فــ « لِمَ لَمْ يأتِ القــرآنُ جميعُه بالأفصح ؟ » [٤٧] .

٦ ـــ وإذا أردنا العودةَ إلى نظريّةِ « المحكم والمتشابه » في القرآن، فلا بدّ لنا مــن التساؤل : ما هي الحكمةُ في وجود المتشابه ؟ « فإن كان ممّا يُمكِنُ علمُه، فله فوائــد، منهــا الحثّ للعلماء على النظر؛ وإن كان ممّا لا يُمْكِنُ علمُه، فله فوائد ، منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده » [٤٨] .

ولكن كيف ينسجم « ابتلاءُ العباد » مع عقيدة الاعجاز ؟ وإذا كان المتشابه ـــ ومعظم القرآن عليه ـــ للخاصّة دون العامّة، فكيف يخاطب

(٣٥) سورة البقرة ٢ / ١٧٣.
(٣٦) ٥ / ٣، ٦ / ١٤٥، ١٦ / ١١٥.
(٣٧) سورة البقرة ٢ / ١٩٣.
(٣٨) سورة الانفال ٨ / ٣٩.
(٣٩) سورة البقرة ٢ / ٨٠.
(٤٠) ٣ / ٢٤، ٢ / ١٨٤، ٢٠٣.
(٤١) سورة البقرة ٢ / ١٢٠.
(٤٢) سورة آل عمران ٣ / ٧٣.
(٤٣) سورة البقرة ٢ / ١٣٦.
(٤٤) سورة آل عمران ٣ / ٨٤.
(٤٥) سورة الانعام ٦ / ١٥١.
(٤٦) سورة الاسراء ١٧ / ٣١.
(٤٧) السيوطي، ٢ / ١٢٣.
(٤٨) السيوطي، ٢ / ١٢.

الله العامّة ؟ وكيف تعمل العامّة لتستفيد من كلام الله العزيز ؟ إنّها شبهة أخرى تطعن بأهداف الوحي والنبوّة. وقد لا يكون القرآن كذلك، بل كذلك أراده المسلمون.

٧ ــ وإذا أردنا العودةَ إلى « الناسخ والمنسوخ » في القرآن، فلا بدّ لنا من القول بأنّ القرآنَ انفرد، دون سائرِ الكتب المنزلة، بهذه النظرية الخطيرة. ولم يكن النسخ ــ بحسب معناه ــ ابدالَ آية بآية فحسب، بل هناك نَسْخٌ بطريقةِ النسيان بدون ابدال. ولهذا كان النبيّ يصلّي : « اللهم ارحمني بالقرآن، اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلّمني ما جهلت » (٤٩) .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنّ النبيّ اقرأ رجلين سورة، فكانا يقرآن بها، فقاما ذاتَ ليلة يصلّيان، فلم يقدرا منها على حرفٍ، فأصبحا غادِيَين على رسولِ الله، فذكرا له ذلك، فقال: « انّهما مِمّا نُسِخَ ــ أي رُفِعَ ــ فأَلْهُوَا عنها » . وكذلك روى عن أبي موسى الأشعري: « نزلتْ سورةٌ نحو براءة، ثم رُفِعَتْ » . وروى البخاري عن أنس أنّه أنزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه، ثم رُفِعَ » (٥٠) .

ويسجّلُ هذا النسخ في القرآنِ أقوالُ كثيرةٌ من المحدّثين، نذكر بعضها : روى عن عمر قوله : « لا يقولن أحدكم أخذتُ القرآنَ كلَّه. وما يدريه ما كلّه! فقد ذَهَبَ منه قرآنٌ كثير » (٥١) ، وعن عبد الرحمن بن عوف قال عن آية في الجهاد : « أسقِطَتْ في ما أُسقِطَ من القرآن » (٥٢) ؛ وعن

(٤٩) عن دروزة، القرآن، ص ٧١.
(٥٠) الاتقان، ٢ / ٢٥.
(٥١) السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٥.
(٥٢) نفس المرجع.

عائشة قالت عن آية « إنّها كانت قبل أن يغيَّر عثمانُ المصاحف » [٥٣] .

ونحن نسأل : هل من الاعجازِ في شيء أن يَذهبَ « كثيرٌ من القرآن » ؟ وأن يُرْفَعَ منه الكثير ؟ وأن يُنْسَخَ أو يُنْسَى منه الكثير ؟ هل يصحُّ النسخُ في كتابِ الله المنزَل ؟ وهل يَبقى القرآن، مع هذا النسخ، معجزةً في اعجازه ؟ أين هو الاعجاز في كل ذلك ؟ وأي اعجاز هو أن نجدَ الناسخَ، في بعضِ السور، يتقدّمُ على المنسوخ ؟ كما هو الحالُ في آيةِ البقرة ٢/ ٢٣٤ التي تَنسَخُ ما بعدها ٢/ ٢٤٠، وآية الأحزاب ٣٣/ ٥٠ التي تنسخُ ما بعدها ٣٣/ ٥٣ ؟

٨ ــ ومنْ غريبِ القرآن في اعجازِه أن تَرى المَعاني تختلِطُ علينا لأجلِ « مراعاةِ الفاصلة » ، أي القافية، وأن ترى اللغةَ تُحَرَّفُ مُخالِفةً للأصول لأجلٍ « مراعاة الرَوِيّ والإيقاع » . والأمثالُ على ذلك عديدة :

لماذا يقدِّم القرآنُ ما هو متأخِّرٌ في الزمانِ، نحو « فللهِ الآخِرةِ والأولى » [٥٤] ؟ ولولا مراعاة الفاصلة لقدّم « الأُولى » كقوله في مكانٍ آخر: « له الحمدُ في الأولى والآخرة » [٥٥]؛ ونحو تقديمِ هارون على موسى في قوله : « بربِّ هارون وموسى » [٥٦] ؛ ونحو تقديمِ الضمير على ما يفسّره في قوله : « فأوجسَ في نفسِه خِيفَةَ موسى » [٥٧] ، والأصلُ تقديمُ الفاعلِ موسى؛ ونحو حذف ياءِ الفعل غيرِ المجزوم في قوله : « والليلِ إذا يَسْر » [٥٨] ؛ ونحو حذف ياءِ الإضافة في قوله : « فكيفَ كان عذابي ونُذرِ ... (٥٤/ ١٦) فكيف كان عقاب » (٤٠/ ٥)[٥٩] ؛ ونحو صرفِ الممنوعِ من الصرْفِ في قولهِ : « قَواريرًا

(٥٣) الاتقان، ٢ / ٢٥.
(٥٤) سورة النجم ٥٣ / ٢٥.
(٥٥) سورة القصص ٢٨ / ٧٠.
(٥٦) سورة طه ٢٠ / ٧٠.
(٥٧) سورة طه ٢٠ / ٦٧.
(٥٨) سورة الفجر ٨٩ / ٤.
(٥٩) سورة غافر ٤٠ / ٥.

قواريرًا » [٦٠] .

ولماذا يستغني القرآنُ بالمفردِ عن الجمع في قولهِ : « واجعلنا للمتّقينَ إِمَامًـا » [٦١] ؟ والأصل « أئمّة » ، كما في قوله : « وجعلناهم أئمّةُ يهدون » [٦٢] ؛ وفي قوله : « إنّ المتّقين في جنّاتٍ ونَهْرٍ » [٦٣] ، والأصل « وأنهَار » ، وقد جعلها مفردة مراعاة للفاصلة.

ولماذا يستغني بالمثنّى عن المفرد في مثل قوله: « ولمن خافَ مُقامَ ربّه جنّتان » [٦٤]، والأصل، كما قال الفرّاء، « جنّة » . ولماذا أيضًا يستغني بالمثنى عن الجمع في قوله: « ومن دونهما جنّتان »[٦٥]، والأصل جنّات؟ الظاهر أن القرآن استعمل المثنّى مكان المفرد « مراعاة للفاصلة » ، ومكان الجمع « مراعاة للفظ » .

ثمّ أيضًا لماذا الاستغناء بالجمع عن المفرد في قوله : « لا بَيْع فيهِ ولا خلال » [٦٦] ، والأصل : خلّة، كما في قوله في مكان آخر : « لا بيع فيه ولا خلّة » [٦٧] ؟

ومن غرائبِ القرآن أيضـًا : وقوعُ مفعولٍ موقعَ فـاعلٍ في قـوله : « حجابـًا مستوراً » [٦٨] ، والأصل : ساتِرًا؛ وفي قوله : « وكان وعدُه مَأْتِيًّا » [٦٩] ، والأصل : آتيًـا. ووقوعُ فاعلٍ موقعَ مفعولٍ في قوله : « عِيشةً راضية » [٧٠] ، والأصل: مرضِية؛ وفي قوله: « ماءٌ دافق » [٧١] ، والأصل : « مدفوق » !

---

(٦٠) سورة الإنسان ٧٦ / ١٥.
(٦١) سورة الفرقان ٢٥ / ٧٤.
(٦٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٧٣.
(٦٣) سورة القمر ٥٤ / ٥٤.
(٦٤) سورة الرحمن ٥٥ / ٤٦.
(٦٥) سورة الرحمن ٥٥ / ٦٢.
(٦٦) سورة ابراهيم ١٤ / ٣١.
(٦٧) سورة البقرة ٢ / ٢٥٤.
(٦٨) سورة الاسراء ١٧ / ٤٥.
(٦٩) سورة مريم ١٩ / ٦١.
(٧٠) سورة الحاقة ٦٩ / ٢١.
(٧١) سورة الطارق ٨٦ / ٦.

ومن غرائبه أيضاً : ايقاعُ حرفٍ مكان غيره في قوله : « بأنَّ ربَّك أوحَى لها » (٧٢) بدل « إليها » ؛ وحذف الفاعل ونائِبه في قوله : « وما لأحدٍ عنده من نعمـــة تُجــزَى » (٧٣) والأصل: « يُجزَى عليها » ؛ واستعمالُ صيغة المستقبل بدل صيغة الماضي في قوله: « فريقًا كَذَّبتُم وفريقًا تَقتلون »(٧٤) والأصل: « قَتلتم » ؛ وتغييرُ بنيةِ الكلمة في قوله: « طور سينين » و « ال ياسين » ، بدل طور سيناء، والياس، كما مرّ معنا.

****

كل هذه الغرائب البيانية في القرآن كانت من أجل مراعاة الفواصل، واحتراماً للرويّ والإيقاع، وتقديراً لرهافة حسّ السامعين الفصحاء، وتحدّياً للشعراء والكهّان، وتخطّياً لأصول المنطق وصحّة المعاني ... أهذه من عجائب القرآن، كما يقولون : « إن القـــرآنَ العظـــيم لا تنقضي عجائبه » (٧٥) ؟ أم هي تعجيز لعقولنا التي ابتليت بالقرآن، كما يقولون : انّها « ابتلاء للعباد » (٧٦) ؟

ولئن سلّمنا، مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح، بأنّ القرآن هو الحكَـــمُ علـــى اللغـــة وقواعدها لا العكس، فهل نسلّم أيضا بنظرية الفصيح والأفصح في القرآن ؟ وإن كان الأمـــر كذلك فأين أصبحَ اللسانُ العربيّ المبين ؟ وكيف نفهم قـــولَ الله : « قرآناً عربيـــاً غيـــر ذي عِوَجٍ » (٧٧) ؟ وهل نقول مع النبيّ : « الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ لـــه عِوَجًا » (٧٨) ؟

---

(٧٢) سورة الزلزلة ٩٩ / ٥.
(٧٣) سورة الليل ٩٢ / ١٩.
(٧٤) سورة البقرة ٢ / ٨٧.
(٧٥) الاتقان ٢ / ١٠٣.
(٧٦) الاتقان ٢ / ١٢.
(٧٧) الزمر ٣٩ / ٢٨.
(٧٨) الكهف ١٨ / ١.

الخَاتمَة

في يقيني إن كرامةَ الله تَسلم بكرامةِ الإنسان، ومجدَ الله العظيم يكبر عنــدما يُصـــانُ الإنسان في حرّيتِه وشأنه. وبـــ« الجهادِ » لأجلِ الإنسان يَحظى اللهُ بـــ« الجهادِ في سبيله » . وبتعبيرٍ إنسانيٍ نبيل أقول : هو الإنسانُ الذي يحتاجُ إلى عَطفِ المســلمين ومحبـــتهِم قبـــلَ الاهتمامِ بالله وأنبيائِه. إن السعيَ إلى الله ينالُ قدسيّتَه بعدَ السعي نحـــوَ الإنســـان. وإن محبّـــةَ الإنسان تسمو، بما لا يحدّ، على محبّةِ القرابين والكتاب المنزل والقوانين الصارمة ...

ومن كرامةِ الإنسانِ أن يتناولَ الباحثونَ عن الحقيقةِ بشيءٍ من التواضعِ أمامَ رحابـــةِ العلمِ وغموضِ وثائقِ التاريخ، فلا يقولنّ أحدّهم، كما يقولُ الشيخ الـــدكتور : « إنّـــي أدعـــو العلماءَ في مختلفِ العالَمِ الإسلامي إلى قراءةِ هذا البحثِ خاصّةً بإمعانٍ شـــديد » [١] . وكمـــا يحكُم بنفسِه على قيمةِ بحثِه بقولِه : « وأجدَى ما في هذا الكتاب أنّه قد يُغني، في كـــلِ بحـــثٍ طَرَقَه، عن عشراتِ الكتبِ في بابهِ، ولكنّها مجتمعةً لن تُغني عنه أبداً » [٢] .

فأيَّ علمٍ نستطيعُ أن نأخذَه من شيخٍ ملآنٍ من ذاته! وأيّ بحثٍ علميٍّ يصدرُ عن مثـــلِ شيخٍ يقول : « لذلك كَرَّرنَا على شُبُهَاتِهم (أي شبهات العلماء) جميعاً، نَنْقُضَها نَقْضًا، ونردُّها إلى صدورِهم سِهَامًا

(١) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧.
(٢) المرجع نفسه، في صفحة الغلاف الأخير للكتاب.

قاتلات » [٣] . أهوَ علمٌ أم مهاترة بحق كرامةِ الإنسان! أهوَ بحثٌ تاريخيٌ أم « العقـلُ فـي تابوت. يحملُ سبحةً. في مِنخَارَيه قطن » [٤] ؟ الحقيقةُ، إنّ « القطنَ الذي في منخارَيّ العقل » صورةٌ مزعجةٌ، نَتِنةٌ، قَبيحة، ولن أخشى أن يكونَ مصوّرُها على حقٍّ، بل أخشَى، بعد قِراءةِ الدكتورِ، أن يكونَ الحقُّ والعقلُ في الصورةِ إيّاها!

ومن كرامةِ الإسلامِ والقرآنِ نفسَيهما ألاّ يقالَ فيهما إنّ « لدينا النظامَ الكاملَ الصـالحَ لعمارةِ الكونِ وتنظيم الحياةِ البشريّةِ » [٥] ، وألاّ يقال بمثلِ هذا الهَوَس : « يُوجَد فيـهِ (فـي الإسلام) نظامٌ حياتيٌّ كامل، لا يَترِكُ مجالاً لأيِّ نظامٍ آخر، ولا يَدَعُ منفذًا للشعورِ بالحاجـةِ إلى تنظيمِ جانبٍ من جوانبِ الحياة، لأنّ الشريعةَ الإسلاميةَ بقواعِدِها الكلّيّةِ العامّـةِ، وبالفقـهِ الذي بُني على أصلَيهما الكبيرَين (الكتاب والسنّة)، شامِلةٌ مستوعِبةٌ لكلِ ما تقضي به سـنّةُ الحياةِ من نُظُمٍ وأحكام » [٦] .

أيّ حظٍّ سعيدٍ يَنعَمُ به المسلمون وهم واجدون في كتابِ الله كمالَ العِلم وتمامَ المعرفة! حتى « إن نجاحَ الإنسانِ في الوصولِ إلى القمر لا يَنبغي أن يُدْهِشَ مُسلمًا اطّلع على ما فـي القرآن من آياتٍ محكمات » [٧] . أخشى أن يَكثرَ، بعدَ خاتمِ النبيين، الأنبيـاءُ المعصـومون، فتكونُ قضيّتُنا مع المسلمين لا مع الإسلام، ومصيبتُنا بالقرآنيين لا بالقرآن. إنّ حزنَنـا علـى العقلِ « يمشي على الخزفِ، جذورُه في مكانٍ، وهو في مكانٍ

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
(٤) مصطفى جحا، محنة العقل في الإسلام، ص ٢٧١.
(٥) الشيخ حسن خالد، « آراء ومواقف » ، ص ١٤٥، جريدة الأنوار ٣ / ٦ / ١٩٧٣.
(٦) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، بيروت ١٩٨٠، ص ٨٦.
(٧) الشيخ حسن خالد، آراء ومواقف، ص ٢٩١، نقلا عن جريدة الجريدة،

آخر » [٨] ، لا على القرآنِ الذي رتّبَ لزمانِه شرائعَ وقوانينَ أصلَحَتْ ما كان فاسِدًا في مجتمعٍ هي له.

وقبلَ أن يضعَ مصطفى جحا القرآنَ « في المتحفِ مع المعلّقاتِ الجاهليةِ والشعرِ الذي لا يَتعدّى النظمَ والقافية » [٩] ، ألمْ يرَ لحكمِه رادِعًا عند الشيخِ الدكتور وهو يردّد « إنّ مفهومَ « التقدّمِ » قرآنيٌّ قديمٌ وليسَ بالمستحدَثِ الجديد » [١٠] ، وقد رأى ذلك بأحسن تعبير في سورةِ المدثّر : « كلاّ والقَمرِ. والليل إذْ أَدبَر. والصُبحِ إذا أَسفَر. إنّها لإحدَى الكُبَرِ. نَذيرًا للبَشَرِ. لِمَنْ شاءَ منكم أنْ يَتَقَدَّمَ أو يَتَأَخَّر » [١١] .. فهل بعد ذلك من خيارٍ بين باحثٍ قَلِقٍ على مصيرِ الإنسانِ وبينَ مَن يُضفي على نبوّةِ الكتابِ نبوّةً أخرى!؟

وما يَضيرُ الشيخ أن تشوّقَ إلى النبوّة! وفي الكتبِ المقدسةِ المنزلةِ دعوةً إليها: « تشوّقوا إذاً، يا أخوتي، إلى النبوّة » [١٢] . وعلى الجميعِ أن يـ « تشوّقوا إلى المواهب، ولا سيّما موهبة النبوّة » [١٣] . وقد « قال الله : سيكون في الأيامِ الأخيرةِ فَيضٌ من روحي، أفيضُه على الناسِ أجمعين، فيتنبأ بنوهم وبَناتهم » [١٤] ... فلماذا مُنِعَتِ النبوّةُ عن كافّة الآدميين، في حين أنني سمعتُ « أَتَانَ بلعام » تتكلّمُ بعد ما رأتْ ملاكَ الله، وقد عرفتْ مقاصدَه وعملتْ على خلاصِ صاحبِها من غضبِ الملاك وسيفهِ المسعورِ إلى الدماء[١٥] !

في موضوع الإسلام وغزوا الفضاء ٧ / ٨ / ١٩٦٩، بمناسبةِ وصول الإنسان إلى القمر.
(٨) مصطفى جحا، المرجع السابق، ص ١٠.
(٩) المرجع نفسه، ص ٢٠٠.
(١٠) الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

وما يُضيرُ الناس إن اكتفَوا من عالَمِ النبوّةِ والمعجزاتِ بمعجزةِ المحبّة وحسب! فهل يغضبُ اللهُ إن جَاهَدَ الناسُ في سبيلٍ المحبّة، ولو كان ذلك على حسابه، وحسابِ جبريل والكتابِ والأنبياءِ أجمعين! فَمَا شأنُ « المجاهِدين » لأجل الدفاعِ عن الله، و « المرابِطين » على حدودِه ليَمنَعوا الناسَ عنه وعن ديارِه المقدّسة! أصحيحٌ ما قالهُ سَمَاحَتُهُ: « لقد أصبحَ (الجهادُ) في الإسلامِ دفاعًا عن العقيدةِ، وذبّا عن شريعتِها، وحمايةً لحياضِها وأوطانِها، وصيانةً لمقوّماتِها وطاقاتِها وقدراتِها » [١٦] !!!؟؟؟ أيحتاجُ الله العليُ القديرُ إلى مَن يدفعُ عنه وعن شريعتِه ودينِه الظلمَ والكفرَ والعدوان!

إنّ المعجزةَ الكبرى هي في أن تصعدَ إلى اللهِ عَبْرَ التاريخِ والكونِ والإنسانِ، لا أن تنزِلَ إلى الأرضِ من فوق من « الأفقِ الأعلى » ومن « اللوحِ المحفوظِ » . قد ينيرُ اللهُ سبيلَكَ لتصلَ إليهِ. ولكنّكَ لم تقدرِ الإحاطةَ به، ومعرفةَ أسرارِه، وعلمَ مشيئتِه. بَدءًا بالإنسانِ تسيرُ على صراطٍ اللهِ القويم، ونزولاً من اللهِ تتعثّرُ خطاك نحوَ الإنسان. ولكي تقوِّمَ خطواتِك نحوه، بهذا النزولِ الغريب، لا بدّ من « الجهاد » ؛ ويدعمُ الجهادُ عَالَمٌ منَ المعجزاتِ يصونُه الادّعاء ويعانقُه الجنون ...

****

(١١) سورة المدّثر ٧٤ / ٣٢ ـ ٣٧.
(١٢) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتتس ١٤ / ٣٩.
(١٣) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس ١٤ / ١.
(١٤) أشعيا ٢ / ٢، أعمال الرسل ٢ / ١٧.
(١٥) سفر العدد، ٢٢ / ٢٢ ـ ٣٥.
(١٦) الشيخ حسن خالد، الشهيد في الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٨، ص ٤١ ...

المصَادر والمراجع

لم أثبت في هذا الباب الاّ الكتب التي لها علاقة مباشرة بالقرآن، بتاريخه ونشأته وحفظه وتدوينه ... أمّا ما له علاقة بالتفسير والعقيدة والأحكام والعلوم والقوانين فلم أذكر منها إلاّ ما كان له صلة بموضوع البحث ... وخشية التكرار لم أعد إلى ذكر بعض الكتب الواردة في المقدّمة والكاملة التعريف ... ثمّ عمدت إلى سرد المراجع بحسب حروف الأبجدية لاسم الكاتب المشتهر به؛ ولم أحسب لكلمتي : ابن وأبو، وأل التعريف حساباً في الترتيب. أهمّ المراجع هي :

١) الابياري، ابراهيم، تاريخ القرآن، دار الشروق بيروت سنة ١٩٦٤ م.

٢) الاشيقر، محمّد علي، لمحات من تاريخ القرآن، مطبعة النعمان، كربلاء، بدون تاريخ.

٣) ابن أبي الاصيبع، محمد، بديع القرآن، مكتبة النهضة بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٧.

٤) الاصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، اعداد محمّد أحمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٧٠ م.

٥) الآصفي، علي محمّد، دراسات في القرآن الكريم، مكتبة النجاح، النجف، سنة ١٣٨٠ هـ.

٦) الألوسي، محمود، روح المعاني، المطابع المنيرية القاهرة ١٣٤٥ هـ.

٧) ابن الانباري، البيان في غريب القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.

٨) الباقلاني، القاضي أبو بكر، اعجاز القرآن، جزءان، بهامش كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣ م.

٩) البيلاوى، محمد علي، التعريف بالنبي والقرآن الشريف، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٢٧ م.

١٠) البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، ٩ أجزاء في ثلاثة مجلّدات، مطابع الشعب (بدون تاريخ).

١١) بدوى، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٠ م.

١٢) البغدادي، الحسين، معالم التنزيل، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

١٣) بلاشير، القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، عرّبه رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤ م.

١٤) البنا، أحمد الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـ.

١٥) بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، مكتبة دار العروبة، القاهرة، سنة ١٩٥٨ م.

١٦) البهي، الدكتور محمد، من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.

١٧) البوطي، محمد سعيد، من روائع القرآن، ط ٢، مكتبة الفارابي، دمشق، سنة ١٩٧٠ م.

١٨) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.

١٩) الترمذي، الجامع الصحيح، أو « سنن الترمذي » ، مطبعة البابي،

القاهرة، سنة ١٩٣٧ م.

٢٠) التسترى، سهل، تفسير القرآن العظيم، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٠٨ م.

٢١) ابن تيمية، أحمد، الاكليل في المتشابه والتنزيل، المطبعة العامة الشرقية، القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.

٢٢) ابن تيمية، أحمد، مقدمة في أصول التفسير، دار القرآن الكريم، الكويت (بدون تاريخ).

٢٣) الثعالبي، عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الجزائر، سنة ١٣٢٣ هـ.

٢٤) الجديلي، محمد، نظرات حديثة في التفسير، المكتب التجاري، بيروت، سنة ١٩٦٣ م.

٢٥) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، ط ٢، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٣١ هـ. (نشر السيد محمد رشيد رضا).

٢٦) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، قرآن كريم، تفسير الجلالين، مكتبة الملاح، دمشق، (بدون تاريخ).

٢٧) جملة مؤلّفين، القرآن، نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٢ م.

٢٨) جمال، أحمد محمد، مع المفسرين والكتاب، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٤ م.

٢٩) ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هـ.

٣٠) الحداد، الأستاذ، القرآن والكتاب، جزءان، لا دار نشر، ولا تاريخ، في سلسلة « دروس قرآنية » .

٣١) الحداد، الاستاذ، نظم القرآن والكتاب، الكتاب الأوّل : اعجاز القرآن، لا دار نشر، ولا تاريخ.

٣٢) حسين، محمد الخضر، بلاغة القرآن، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧١ م.

٣٣) أبو حيان الأندلسي، التفسير الكبير، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.

٣٤) ابن الخازن الشيخي، لباب التأويل في معاني التنزيل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.

٣٥) الخطيب، عبد الكريم، اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

٣٦) الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة. بدون تاريخ.

٣٧) ابن الخطيب، محمد، أوضح التفاسير، ط ٦، المطبعة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

٣٨) خلف الله، محمد وسلام، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٥ م.

٣٩) الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ط ٢، مطبعة الآداب، النجف، سنة ١٩٦٦ م.

٤٠) الداني، أبو عمرو، المحكم في نقط المصاحف، مديرية احياء التراث القديم، دمشق، سنة١٩٦٠ م.

٤١) الداني، المقنع في رسم القرآن الكريم (مخطوط) في الجامعة الأميركية ببيروت.

٤٢) الداني، التيسير في القراءات السبع، نشر وتحقيق « برتزل » ، الاستانة، سنة ١٩٣٠ م، سلسلة المكتبة الإسلاميّة، ٢.

٤٣) ابن أبي داود، أبو بكر، كتاب المصاحف، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، سنة ١٩٣٦ م.

٤٤) دراز، الدكتور محمد عبد الله، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ط ٢، دار القلم، الكويت، سنة ١٩٧٠ م.

٤٥) دروزة، محمّد عزّة، القرآن المجيد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون تاريخ.

٤٦) الدومي، أحمد عبد الجواد، مبعوث الأزهر الشريف بلبنان، الإسلام منهاج وسلوك، المكتبة العصرية صيدا بيروت، بدون تاريخ.

٤٧) الديب، محمد السباعي، البيان في اعجاز القرآن، مطبعة صبيح، القاهرة، سنة ١٩٦٠ م.

٤٨) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦١ م.

٤٩) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، سنة ١٩٣٨ م.

٥٠) الرافعي، الدكتور مصطفى صادق، اعجاز القرآن، والبلاغة النبويّة، ط ٩، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.

٥١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ط ٨، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٤٦ هـ.

٥٢) الزجاج، اعراب القرآن، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ م.

٥٣) أبي زرعة، الامام عبد الرحمن بن زنجلة، حجة القراءات، تحقيق

سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩ م.

٥٤) الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان، مطبعة شبرا، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـ.

٥٥) الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٧ م القاهرة.

٥٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة، ١٣٥٤ هـ (٤ جزء).

٥٧) الزنجاني، أبو عبد الله ، تاريخ القرآن، ط ٣، مؤسسة الأعلمي، بيرو سنة ١٩٦٩ م.

٥٨) السجستاني، غريب القرآن، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.

٥٩) أبو السعود، ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، جزءان، مطبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ.

٦٠) السيوري، مقداد، كنز العرفان في فقه القرآن، تبريز، ١٣١٤ هـ.

٦١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن، جزءان في مجلّد واحد، المكتبة الثقافية، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.

٦٢) السيوطي، المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، سنة ١٣٤٨ هـ.

٦٣) السيوطي، معترك الأقران في اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.

٦٤) شاهين، عبد الصبور، تاريخ القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٦ م.

٦٥) شحاتة، دكتور عبد الله محمود، تاريخ القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٢ م.
٦٦) الشرباصي، أحمد، قصة التفسير، دار القلم القاهرة ١٩٦٢ م. ودار الجيل بيـــروت، ط ٢، سنة ١٩٧٨ م.
٦٧) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حســـن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥ م.
٦٨) شيخ أمين، الدكتور بكري، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت سنة ١٩٧٣ م.
٦٩) الصابوني، محمد علي، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد، بيروت سنة ١٩٧٠ م.
٧٠) الصالح، الدكتور الشيخ صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط ١١، دار العلم للملايـــين، بيروت، سنة ١٩٧٩ م.
٧١) صبيح، محمد، بحث جديد عن القرآن، ط ٦، دار الثقافة العامّة القاهرة، بدون تاريخ.
٧٢) الصعيدي، عبد المتعال، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ١٩٥٠ م.
٧٣) الطبرسي، مجمع البيان، طهران، سنة ١٣١٤ هـــ.
٧٤) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الأميرية القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـــ.
٧٥) الطوسي، أبو جعفر، التبيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية النجف، سنة ١٩٥٧م.
٧٦) الظافر، نصير الدين، حسن الايجـــاز فـــي ابطـــال الإعجـــاز، المطبعـــة الإنجليزيـــة الأميركانية، القاهرة، بدون تاريخ.

٧٧) عبد الجبار، القاضي، تنزيه القرآن عن المطاعن، المطبعة الجمالية، القاهرة، سنة ١٣٢٩ هـ.

٧٨) عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٦٢ م.

٧٩) عبد الرحمن، عائشة، القرآن والتفسير العصري، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٧٠ م.

٨٠) عبدو، محمد، تفسير جزء عم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٤١ هـ.

٨١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٥٤ م.

٨٢) العدوى، محمد مخلوف، عنوان البيان في علوم التبيان، مطبعة المعاهد، القاهرة، سنة ١٣٤٤ هـ.

٨٣) ابن العربي، أحكام القرآن، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٣١ هـ.

٨٤) العزوزى، محمد العربي، دليل مباحث علوم القرآن المجيد، دار الانصاف بيروت ١٩٥٦ م.

٨٥) العسكري، الحسن، تفسير العسكري، تبريز، سنة ١٣١٤ هـ.

٨٦) عطاء، عبد القادر، التفسير الصوفي للقرآن، دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.

٨٧) العطار، الدكتور داود، موجز علوم القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت، ط ٢، سنة ١٩٧٩ م.

٨٨) العكبرى، املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن، المطبعة الميمنيّة، القاهرة، سنة ١٣٢١ هـ.

٨٩) العلوي، عبد الله، تفسير القرآن، طهران، سنة ١٣٥٢ هـ.

٩٠) الغزالي، جواهر القرآن، مطبعة الدين الكردي القاهرة،

سنة ١٣٢٩ هـــ.

٩١) الغزالي، محمد، نظرات في القرآن، ط ٣، دار الكتب الحديثة القاهرة، سنة ١٩٦٢ م.

٩٢) جفرى، آرثر، مقدمتان في علوم القرآن، مكتبة الخانجي القاهرة، سنة ١٩٧٢ م.

٩٣) الفراء، معاني القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥ م.

٩٤) الفيض الكاشاني، الصافي في تفسير القرآن، المطبعة الإسلاميّة، طهران، سنة ١٣٧٤ هـــ.

٩٥) قبيسي، الدكتور محمد، تدوين القرآن الكريم، الوثيقة الأولى في الإسلام، دار الآفـــاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١ م.

٩٦) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار احياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٣٧٣ هـــ.

٩٧) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق السيد أحمد صقر، سنة ١٩٧٨ م.

٩٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٥ م.

٩٩) القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، الدار السعودية للنشر، الرياض، بدون تاريخ.

١٠٠) قطب، سيّد، التصوير الفنّي في القرآن، دار الشروق، بيروت، بدون تاريخ.

١٠١) قطب، سيّد، في ظلال القرآن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٣ م.

١٠٢) القيسي، قاسم محمد، تاريخ التفسير، المجمع العلمي العراقي، بغداد، سنة ١٩٦٦ م.

١٠٣) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣ م.

١٠٤) ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

١٠٥) ابن كثير، اسماعيل، تفسير الحافظ ابن كثير، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٤٣ هـ.

١٠٦) لاشين، دكتور عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٩ م.

١٠٧) لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط ٣، سنة ١٩٧٨ م.

١٠٨) لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، سنة ١٩٧٧ م.

١٠٩) المبرد، ما اتّفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد، المطبعة السلفية القاهرة، سنة ١٣٥٠ هـ.

١١٠) مخلوف، دكتور عبد الرؤوف، الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٧٨ م.

١١١) مكّي، أبو محمد بن أبي طالب القبسي، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١ م.

١١٢) النحاس، أبو جعفر، الناسخ والمنسوخ في القرآن، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ.

١١٣) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٧ هـ.

١١٤) النمر، الدكتور عبد المنعم، علوم القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩ م.

١١٥) النيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الأميرية،

القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.

١١٦) الواحدي، علي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨ م.

١١٧) BLACÈERE, Régis, Introduction au Coran; Ed. Besson et Chantemerle; Paris 1959.

١١٨) BLACHERE, Régis, Le Coran; Coll. "Que sais-Je?"; P.U.F.; Paris 1977.

١١٩) CASANOVA, P., Mohammed et la fin du monde; Paris, 1911-1913; 2 fasc.

١٢٠) ENCYLOPEDIE DE L'ISLAM, Leyde, Plusieurs articles: Arab, Arabya, Kur'an, Madina, Mekka, Muhammad, Djazirat al-'Arab…

١٢١) NÖLDEKE, SCHWALLY, BERGSTRASSER et PRETZL, Geschichte des Qorans, Leipzig, 1919- 1938; 3 vol; I, Uber den Urspung des Qorans; II, Die Sammlung des Qorans; III, Die Geschichte des Qorantexts.

****

مَوَاضيع الكتَاب

انتهى في ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ